

عبد الخالق الركابي
الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام
نافذة بسعة حلم
رواية

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

١٩٧٧ ــــــــــــ سلسلة القصة والمسرحية

(٦٩)

عبد الخالق الركابي

نافذة بسعة الحلم

رواية



الصباح

لم يكن هزيم الرعد ، ولا صوت ارتطام قطرات المطر بزجاج النافذة ، الممتدة على يمينه ، هما اللذان أيقظاه من نومه المحموم • فها هو غبش هلاميّ آخر يندلق في الخارج والمطر ينث باستمرار ، وكأنه صدى انهيار عالم قديم ، بدأ بالتحلل والذوبان ، ليتلاشى في كيان سديميّ غريب ولينبثق من فوضاه المربكة – من ذلك الرحم الطيني البليل – عالم جديد أكثر وضوحا واشراقا • لم يستيقظ بسبب ذلك ، فاذناه اللتان سبق وان الفتا قصف المدافع ودوي القنابل المتفجرة بين لحظة وأخرى وهدير الطائرات المارقة

على ارتفاع منخفض مجتازة حاجز الصوت ، ألفتا الآن قعقعة الرعد وصوت انهمار المطر المتساقط باستمرار منذ ثلاثة أيام • انما هي الخطى الثقيلة والبطيئة ، المترددة ـ مثلما تتردد صباح كل يوم ـ فوق السقف ، هي التي أيقظته من نومه ، هكذا هو ، ومنذ خمسة أشهر مضت على تسريحه من خدمة الأحتياط ، حالما تبدأ الخطوات الثقيلة ترددها البطيء فوق السقف ، يفاجيء نفسه وقد استيقظ من نومه ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما وهما تتنقلان عبر جذوع السقف المرتفع •

أئتلق البرق على يمينه فانكشفت ، للحظة خاطفة ، محتويات الغرفة القليلة ، الا أن عينيه انخطفتا على توهج زجاجة محاطة باطار فضي ، معلقة على الجدار المواجه لسريره ، ولكن العتمة سرعان ما أطبقت على كل شيء • وقعقع الرعد بطيئاً وخافتا في البداية ، لينفجر بعد ذلك بدوي هائل وكأنه صوت انهيار جبل •

ببطء يكاد أن يكون مرادفا للسكون المستفز ، كانت الخطوات تتنقّل فوق السقف المتكون من طبقة طين تصلبت بمرور السنين ، تسندها من الأسفل طبقة رقيقة من أعواد القصب ، تستند بدورها على جذوع مستقيمة تمتد عبر سقف الغرفة ، وكان السقف يئنّ تحت وقع الخطوات ، وغبار خفيف يتسرب من بين القصب القديم حيثما تضرب الخطى ، مما حتم عليه أن يغمض عينيه ، ولكنه استطاع ان يشم رائحة الغبار القديم المتساقط •

« حبلى !••• » ومضت الكلمة في ذهنه ، وبعينيه القديمتين ، عينيه اللتين تألقتا بضوء الفرح الغامر وهو يسمع بنبأ اندلاع

القتال في تلك الظهيرة التشرينية ، قبل ستة اشهر ، بتينك العينين أبصر عري جسدها الذي انخطف شعاع الشمس على بياضه الناصع وفي عينيها المشدوهتين وعبر ملامح وجهها المندى بالعرق وعلى العشب النامي ، الذي انسحق تحت ثقل جسديهما .. وبعيدا .. بعيدا في نقطة كادت أن تتسرب خارج حدود الوعي ، انبجست، على استحياء ، عينا « مصطفى غريب » البريئتان لدرجة لاتطاق، وعادت حشرجته المصحوبة بدفقة دم انفجرت عبر شفتيه ، وهو يحاول أن يعتصر الكلمات ليتمتم بصوت محتضر : « انني .. أموت .. يا بني !.. » عادت لترن في رأسه !

سمع صرير خشب سريرها في الأعلى ففكر :

ـ « أنهت دورتها الصباحية عبر غرفتها وعادت لتضطجع !.»

أدار بوجهه يميناً ، وعبر مستطيل النافذة ، لمح غيمة رمادية داكنة تتحرك ببطء ، تاركة وراءها ندف سحب بيضاء عالية، وكان المطر يتساقط باستمرار وقمم اشجار التوت والكالبتوس والعنّاب قد تهدلت بعدما تشبعت بالماء .

بدأت السحب المقبية تتخلخل متحركة الى الغرب باتجاه النافذة ، فبدت تلك السحب وكأنها زبد سيل كوني هائل يكاد أن ينصبّ باتجاه هوة نافذته المؤطرة من الداخل بعتمة الغبش الكابي ، ولكنه أيقن بأنه سيتمتع بنهار رائع احتجبت شمسه طوال الايام الثلاثة الماضية ، وذلك أقصى مناه ، حيث سيصبح بامكانهما القيام بنزهة عبر الطريق الممتد غربا باتجاه غابات النخيل البعيدة . وانتبه الى السقف .. لا لوقع خطى هذه المرة ، بل لهذا الصمت

المخيم الذي لا يعكره سوى الايقاع المكتوم لقطرات المطر المتساقطة خلف ضلفتي النافذة المواربتين .. انها مضطجعة على سريرها العريض ذي الكرات النحاسية الاربع في الاعلى ، وعيناها الواسعتان بارزتان الى الأمام من أثر الحمل ، وثدياها يكادان أن يندلقا من خلال فتحة الثوب العريضة .. انها لا تغلق عينيها ، ستظل تنظر الى سقف حجرتها ، كما ينظر هو الآن ، وان غفت تظل أجفانها مشقوقة وعيناها تومضان في الداخل . قبل خمسة أشهر ، عندما كانت تضطجع معه في غرفته لتكون قريبة منه عند الضرورة بعدما تورم فخذاه والتهبت جروحهما ، كان يلمح ـ على ضوء عود ثقاب كان يشعله لاذكاء سيكارة بعد امتناع النوم عليه ـ توهج عينيها من خلال أجفانها المشقوقة ، فكان يظن بأنها لم تنم بعد ، ولكنه سرعان ما كان يتذكر بأن تلك هي طريقة نومها !.. نعم !..كان يتذكر طفولتهم البعيدة وليالي الشتاء الباردة عندما كانوا يضطجعون تحت أغطية صوفية مثقلة بروائح زنخة تكاد أن تكتم انفاسهم المنبثقة من أنوفهم المحمرة ، ويتحملون تلك الرائحة المخدرة التي كانت بالتأكيد أفضل من التجمد برداً في حجرة الكوخ الوحيدة في تلك القرية المنتصبة على حدبة أكمة توسطت حقولا شاسعة امتدت على مدى البصر ، والتي هاجرها الفلاحون فتهدمت الاكواخ الخاوية عدا كوخ « زهرة » المعتوهة التي ما شوهدت الا ويدها ملطخة بطين أسود متعفن تطلي به جدران كوخها .. لقد رفضت « زهرة » أن تستظل بسقف غير ذلك السقف الذي ترددت صرخة ولادتها تحته والذي لابد أن تخمد تحته صرخة

نهايتها !! رفضت أن تهاجر رغم مسدس « الملاك » المتدلي من حزامه العريض ، ورغم أصابع قبضته الغليظة والمثقلة بخواتم ذهبية وفضية ، تلك القبضة التي لم يكن أسهل من أن ترتفع لتنسحق على فك فلاح مشاكس ، كما ترتفع لتهش ذبابة !..

كان يتذكر تلك الليالي البعيدة ، ويتذكر تينك العينين المتلامعتين خلف أهداب سوداء معقوفة الاطراف ، فيفكر بأن سبب عدم أنطباق أجفانها سعة عينيها !.. نعم انه لا ينكر بأن لها عينين واسعتين كانتا تتوهجان بنظرة طفولية ماكرة وهم متحلقون حول النار المتأججة في الموقد يستمعون الى احدى حكايات الأب الكثيرة .. وقد تتحدث تلك الحكاية عن ذلك « الأمير » الذي عشق ابنة أحد اجرائه الفقراء ، والتي لم تملك ازاء ثرائه الفاحش سوى عينين واسعتين امتلكتا قلبه ... ومن خلال النار المتراقصة بينهما .. وهما يستمعان الى تلك الحكاية ، كان يلمح عينيها المتوهجتين ولهب النار ينصب فيهما ، فكان يتجاوز وجهها الطفولي الصغير ، ويمد بنظراته عبر الكوة المفتوحة في الجدار ، ناظرا الى سماء الشتاء المعتمة ، متخيلا ذلك « الأمير » على هيأة فارس يعتلي صهوة حصان أسود كالليل ، مردفا ، خلفه ، حبيبته التي اسمها ... اسمها ؟! ولكنها في الحكاية كانت بدون إسم ! فما المانع أن يكون اسمها « جميلة » كاسم ابنة عمه ؟! ثم ما المانع من أن تكون ابنة عمه « جميلة » تضارع حسناء الحكاية جمالا وحسنا ؟.. ما المانع ؟! وكان يعود بنظراته الشاردة عبر الكوة ليجد « جميلة » قابعة هناك خلف اللهب الأصفر المتراقص وعيناها

تترصدان وجه الذاهل .. ترى هل كانت تفكر بذلك «الأمير»؟!
.. ولكنه في تلك الليلة البعيدة ، التي تفصلها عنه الان سنوات عديدة لا تكفي اصابع اليدين لعدها ، استغرب ، بل واستنكر ، في سّره ، أن ينظر اليها بتلك الطريقة الغامضة .. انها « جميلة » ابنة عمه وصديقة طفولته ومساعدته التي لا تضارع عندما يجد الجد ويبدأ الرعي في الربيع .. تلك المهنة القاسية والممتعة في الوقت نفسه .. فما الذي تغير ؟ ولكن لمَ هذا التساؤل ؟ وهل ينسى ذلك اليوم الذي تغيرت فيه نظراتهما لبعضهما ؟

... في ذلك اليوم ! انفردت الذئاب ببقرتهم السمراء ذات الرقبة المتهدلة وكادت أن تجهز عليها لولا كلباهما الرائعان «بوجي» والكلب الآخر المُكنى بـ « الأخرس » ، فعلى ضجة نباحهما وصخب المعركة المحتدمة في تلك الأجمة الواقعة قرب الطرف الغربي للقرية، بمحاذاة غابات النخيل الكثيفة ، انتبه الرجال . وقبل أن تلفظ البقرة ، وكانت حبلى على وشك الوضع ، انفاسها الأخيرة احتزّت سكّينة جارهم « علوان » بلعومها المتهدل ، فتدفق الدم شاخباً من ذلك الجرح الرهيب وامتزج خوار الاحتضار بغصة الألم ، لكنّ اصابع « علوان » الماهرة نجحت ، بعدما تلوثت بالدم في اقتناص عجل كامل البنية من الاحشاء الدافئة للبقرة .. كان عجلا داكن اللون سرعان ما لفه بسترته وحملاه معا .. هو وجميلة ، الى البيت لتذكي أمه نارا كبيرة مددوا العجل اليتيم قربها .

عصـر ذلك اليـوم وبعد ما بيـع لحم البقرة واستوفى الأب ثمنها ، ارتكنوا بمؤخراتهـم المتربة على الدكة الممتـدة

الى يسار باب الكوخ ، وفي مواجهتهم في الطـــرف الآخـــر المواجه للباب اتكأ هـــو الى جذع شجرة التـــوت قاذفـــا « جميلـة » بين فينـــة وأخرى بنظرة متلصصة من طرف عينه ، كاتما ، في الوقت نفسه ، ضحكة كبيرة طال احتباسها في صدره وهو يسمع فحيح « علوان » المصاب بالربو ، لكن تلك الضحكة سرعان ما ذابت عندما قذفه الأب بنظرة تأنيب صارمة أعقبهـــا ببسمة محايدة ارتسمت على شفتيه الشهوانيتين المشعرتين ، وهتف به بصوته المرتفع الرنان :

ـ « لم تعدا صغيرين يا بنيّ ! •• ست أو سبع سنوات وتخضر شفتك العليا •• و « جميلة » وان تكن أصغر منك بعامين، ستجدها خلال الفترة نفسها وقد تبرعم صدرها •• لم تعدا صغيرين لتغفلا عن مراقبة رزقنا ليذهب هدرا •• لولا الكلبان لضاع لحم البقرة وضاع العجل !•• »

وانبرى له عمه مدافعا عنهما ومواسيا أخاه في الوقت نفسه:

ـ « انه الجوع يا « عبدالغفور » هو الذي يدفع بالذئـاب قريباً من القرية • قديما لم نكن نلمح الذئاب الا في البرأري •• والآن ؟ جرب أن تطلّ برأسك بعد انتصاف الليل خارج كوخك !•• ما الذي تراه ؟ ذئاب سائبة تتلصص بين الاكواخ وكلابنا غافيـة وقد دسّت انوفها بين قوائمها !•• »

وواصل عمه « عبدالباري » كلامه بعدما شمل الجميـــع بنظرة استغراب جاحظة من عينيه المتلامعتين تحت حاجبيه الكثين،

وكان وجهه الظامر الجاف قد اختفى خلف ضبابة دخان انسابت من منخريه المشعرين :

ـ « على كل حال لا تحزن فقد استوفيت ثمنها !٠٠»

لكنّ أباه « عبدالغفور » انفجر مقهقهاً بضحكته المجلجلة ، التي يكاد أن يسمع الى الآن صداها وهو يتردد عبر غابات النخيل الممتدة غرب القرية ، وأجاب أخاه بصوت مرح :

ـ « لا يا أخي ٠٠ انا الذي سأواسيك فقد اشتريت تلك البقرة على اسم ابني « حازم » ٠٠ قلت لعلها تمنحه عجلا او اثنين، وسنة تعقب أخرى يجمع مبلغاً يكون مهراً لجميلة !٠٠ »

وسحق عمه « عبدالباري » عقب السيكارة التي لسعت اصبعه المصفر من أثر الدخان بعدما كادت تنفد :

ـ « مهر جميلة ؟! ولكنه ابن عمها !٠٠ لا مهر لها سوى رجولته !٠٠ »

وسمعا كلّ شيء بدهشة وصمت والتقت عيونهما كأنهما يريان بعضهما لاول مرة ٠

وفي يوم آخر ، في كوخ عمه المواجه لغابات النخيل ، التي كانت تملأهما بالرهبة ساعة جنوح الشمس للمغيب ، بسبب تلك الأصوات التي هي مزيج من هديل الفخاتي وزمجرة الذئاب الشرسة وأصوات أخرى كان الغروب يضفي عليها الغموض ٠ في حجرة ذلك الكوخ ، التي كان باستطاعة

« حازم » أن يلمح من خلال كوّة مفتوحة في الجدار ، كتف النهر البعيد وبعض اشجار التوت والعناب والغرب المتناثرة هنا وهناك ، في تلك الحجرة ذات السقف المنخفض ، كانت امرأة عمه تفتح صندوقها الخشبي المرصع بزخارف دقيقة ، تكتنفها رؤوس مسامير بارزة أتى الصدأ على أغلبها ، وحالما يرتفع الغطاء كانت رائحة الهيل والحناء وروائح بعض الثمار المجففة كالتين والعناب ، تضوع بشدّة تجعل الخدر يسري في جسده . وكانت تلك الروائح تمتزج بروائح اخرى كرائحة الصابون « الرقي » والاقمشة القديمة ورائحة الخشب العطن . وهناك في أحد ضلعي الصندوق العلوي يمتد حوض خشبي ضحل يحتوي على حلي امرأة عمه : أساور زجاجية وأخرى من الذهب الكاذب وجلاجل فضية وحجل ذو عقدة كبيرة بمفتاح دقيق ومكحلة ذات مرآة دائرية في الوسط وحلي أخرى كان أغلبها من الفضة ، سوى حلي قليلة كانت من الذهب « الذهب الخالص عيار ٢١ .. » كما كانت تتباهى امرأة عمه . كانت تلك الحلي الذهبية القليلة تتألف من خاتمين ذهبيين ، أحدهما مرصع بحجر عقيق برتقالي مشرّب بعروق بيضاء دقيقة ، والآخر مرصع بحجر شذر أزرق ، وفردة قرط على شكل هلال يلتقي طرفاه على فيروزة زرقاء بلون السماء . كانت أمرأة عمه تكوّر تلك الحلي ملء كفيها ، ومن ثم تجعلها تتساقط في ذلك الحوض الضحل ، مستمتعة بوسوسة المعدن المتساقط ، ثم تمدّ يدها وبالسبابة والابهام تمسك القرط وتغيم عيناها وكأنها تنظر عبر ذلك القرط الى عالم لم يبق منه سوى

ذكريات شاحبة تكاد أن تندثر هي الاخرى في أروقة الذاكرة الصدئة ، وكانت تهمس بصوت حالم :

ـ « انظرا الى هذا القرط !•• والى كل هـذه الحلي !•• لقد ورثت جميعها عن أمي رحمها الله •• »

وكان صوتها يتهدج منذراً بنوبة بكاء وشيكة ، ولكن فرحتها بهما سرعان ما كانت تعيد التوازن الى صوتها ••

ـ « •• كانت تحدثني عن يوم زفافها لأبي وكيف تجملت ووضعت « الديرم » على شفتيها •• كانت زفة رائعة لم تنسها القرى المجاورة لسنين عديدة •• وهذا •• انظرا !•• انه قرط ذهبي وقد ضاعت فردته الثانية وكانت ـ رحمها الله ـ تحدثني عن ذلك اليوم المشهود الذي أضاعت فيه فردة قرطها •• كان يوما ربيعيا والسنابل تصل الى مستوى كتفي رجل •• يومها كان الخير وفيراً ! •• وكالعادة قرر اهل القرية زيارة ضريح « عبـــدالله الصالح » تيمناً ببركته •• واستعد الجميع : رائحة الشواء والطبيخ تعبق ، وأعمدة الدخان تتلوى مرتفعة ، والدجاج يصخب بنقيقه الثاقب والأيدي تتلقف أثقلها وزنا لتحتز السكاكين رؤوسها عن رقابها الهزيلة •• التنانير تلتهب واقراص العجين تتقاذفها الأيدي وتضوع رائحة الخبز العبقة ، والقرب الجلدية تملأ باللبن ••• صباح اليوم التالي أعتلى الرجال صهوات الجياد واعتلت النســوة صهوات الافراس الولودة البعيدة عن الطيش ، ولكن أمي ـ جدة جميلة ـ أبت الا أن تركب صهوة حصان زوجها •• وركبته وأنا بين يديها ، يومها كنت في السنة الاولى أو الثانية من عمري وانا

لا أتذكر ايما شيء عن ذلك اليوم ، ولكن لكثرة ما رددت أمي
تلك الحكاية على سمعي ، بتّ أتصور في بعض المرات بأنني حقا
أتذكر ما جرى في ذلك اليوم المشهود !.. انحدرت القافلة عبر
الحقول والبساتين ، وهناك حيث منظر الحقول اليانعة يبهر الاعين،
والنظرات الكحيلة تلهب الحميّة ، انتشى الرجال ، ومثل يد
واحدة ارتفعت أكفهم وانفجرت بصفقة هائلة وصدحت حناجرهم
بغناء زاعق ، ولم تشعر أمّي الا والحصان يجمح بها والأرض
تنفلت من الأسفل والسماء تهتزّ والتلال والحقول تتقاذف على
الجانبين وسحابة غبار بأربعة جذور تنبع من تحت الحوافر المنخطفة
على الأرض المندفعة الى الخلف .. ولا ترى أمي أي شيء فالسماء
والأرض قد تداخلتا ببعضهما والحصى الناعم يتطاير على جانبيها ..
وأنا عندما أحسستُ - كما أخبرتني - بأن كل شيء بدأ يهتزّ ،
وأن الذراع ، التي احتظنتني ، قد احكمت تطويقها لجسدي ،
مددت يدي وتشبثت بأذن أمي .. الحصان الجامح انخطف
كالبرق عندما أحسّ برخاوة الساقين المشدودتين الى جانبيه ، وأمي
عبثاً تشدّ برجليها ويدي تتكور على القرط ، الحصان يندفع الى
أرض حرثت في الموسم المنصرم فامتلأت بالأخاديد ، ويميل الى
الجانبين ويكاد يفقد توازنه أكثر من مرة .. تترك أمي عنان
اللجام الذي مزق شدقي الحصان دون جدوى وتمسك بعرف
الحصان المتهدل ، ريدي تنغلق تماما على القرط .. الا أن الفرسان
سرعان ما يقتربون ويتناهى لسمعها خبب الجياد من الخلف ، بطرف
عينها ، دون ان تستدير تلمحهم وهم يتقدمون على جانبيها ومن ثم

يسبقونها ويشكلون قوسا قوامه اجساد الخيول المتلاصقة ، فينغلق الطريق الملتهب امام الحصان •• ورويدا رويدا يهدأ ، الى أن يتوقف •• أمي تنزلق عن صهوته منهكة ، ويتحلق الرجال حولها •• كانوا مشدوهين لم يستطعوا ان يصدقوا بأنها استطاعت الثبات على صهوة ذلك الحصان الجامح دون أن تسقط طفلتها رغم انهم رأوها بأعينهم ، فجأة ينتبه أبي الى اذن زوجته المدماة وعندها تتذكر أمي بأنني كنت متشبثة باذنها فلابـــــد أن القرط قد شـــق شحمتها •• »

وكانت امرأة عمه تصمت وتعيد فردة القرط ، التي كانت تقلبها طوال حديثها بين أصابعها ، وكانت تعود الى واقعهـــا كمن عاد من رحلة حقيقية ممتعة ، وآنذاك فقط كان « حازم » ينتبه الى النسيم الندي يهب رخياً عبر الكوة ، حاملا لمنخريه الواسعين روائح العشب والشجر النامي ممتزجة بالروائح الصادرة من جوف الصندوق • وكانت امرأة عمه تمنحهما نظرة حب وحنو لتقـــول لهما بصوتها العذب :

– « ستكون لكِ !•• كلها ستكون لكِ !!•• ستتزينين بهذه الحلي يوم زفافك لابن عمك « حازم » ••

ستكون زفة رائعة لن تنساها القرى لسنين عديدة ، وأنـــا سأتحدى أباك وأشد العباءة الى خصري وأرقص الى أن ينخلع وسطي !!•• »

ولكن المخاض تعسر بها !•• عشرة اشهر مرت وهي حبلى ،

وعندما وضعت جنينها الميت ، امتلأ كوخ عمه برائحته النتنــة ٠٠ كان جسمه قد أزرقّ وتفسخ داخل بطنها ٠٠ بعده بأيام ماتت امرأة عمه ، ولم تمض أيام قليلة وانتقلت « جميلة » ، بعدما هاجر أبوها بعيدا ، الى كوخهم وحملا معاً صندوقها الخشبي المثقــل بتلك الزخارف الدقيقة والمسامير الصدئة ٠٠ مساء اليوم نفسه قال لها :

ـ « جميلة لِمَ لا تفتحين الصندوق ؟! »

ولكنها غصت في نشيج مرير ، ولم يعد يسألها عن ذلــك على الاطلاق ٠٠

صباح كل يوم كان « حازم » يصحو على ضجيج « جميلة » وصخبها المفتعل ، ومساء كل يوم وبعد أن تخمد جمرات الموقد وينسحب الاب ليضطجع هناك خارج الحجرة الوحيدة ، كانت جميلة تنسحب نحو الزاوية القصية للحجرة ، وقريباً منها يضطجع أخوه حميد ، تعقبه الام ، وقرب باب الحجرة يضطجع هو ٠ وحالما تنفخ أمه الفانوس ليختلج اللهب للحظات وينطفيء فيما بعد ، كان حميد يغصّ بضحكة مفاجئة يحاول ، عبثا ، أن يكتمها تحت طية اللحاف ، وكانت الأم تزجره ، ولكن دون جدوى ، فقد تذكر حميد أحد المواقف المضحكة من الحكاية التي قصها عليهم الأب في تلك الامسية ٠٠ وفي ليال أخرى ، وبعد انطفاء الفانوس مباشرة، كان حميد يزحف نحو فراش أمه ليلتصق بها مدعيا أن جميلة تناكده ولا تدعه أن ينام بسلام ٠٠ الا أن صوت جميلة سرعان ما كان ينبع من جوف العتمة لتفضحه ، فكانوا يكتشفون بأن سبب

التصاق حميد بأمه هو تلك الحكاية التي رواها الأب فملأته بالرعب !.. وكان ارعاب حميد من أسهل الامور : يكفي أن تذكر أمامه اسم « الشيخ راضي » ! لتراه يجمد في مكانه وهو يقذف الزوايا المعتمة بنظرة جوفاء وكأنه يتنصت لصوت الرصاصة التي أطلقها الشيخ ونسف بها ظهر أحد فلاحيه طمعا في زوجته الفاتنة !.. وهناك أشياء أخرى كانت تشحذ خيال حميد وتملأه رعبا ! .. منها ما تردد ، في تلك الفترة ، من أن « أكرم عبيد » الهارب من وجه الشرطة قد أتخذ من الغابات القريبة من قريتهم ملجأ له !! ولكن حازم كان مستعدا على تحمل مناكدة جميلة الموهومة ليضطجع قربها ، لا لشيء ، بل ليشعر بأنه قريب منها يسمع صوت تنفسها العذب ويلمح ـ رغم العتمة ـ توهج عينيها الواسعتين وهما تتلامعان خلف أجفانها التي لا تنطبق أهدابها المعقوفة ببعضها كما لابد أن تكون كذلك الآن وهي مضطجعة على سريرها في غرفتها التي تعتلي سقف غرفته ..

... واستفاق من تأملاته وبدا مستطيل النافذة وقد ازداد توهجا ، والعتمة قد شفت وانسحبت بعيداً ، نحو زوايا الغرفة ، والى الأمام لمح حاجز السرير وقد انسحقت لطخة من ضوء الصباح على حديده اللماع ، ومن خلال القضبان المعدنية المتعامدة تحت حاجز السرير لمح الضلع القريب لمنضدة وضعت عليها صحف ومجلات وكتب قديمة منزوعة الاغلفة ومن تحت طبقة الغبار التي اعتلتها ظهرت مستطيلات ومربعات داكنة قد تكون صورا طغى عليها ظل غطاء داكن بدا من خلال تكوره وكأنه يضم تحته هيكل كرسي

أو شيئا من هذا القبيل • وعلى الجدار المواجه كان ضوء الغبش المنسكب من النافذة يطمس معالم صورة حنطت خلف كيـــان الزجاج الشفاف الذي انعكست عليه صورة النافذة والحائط المرتفع خلف رأسه والجدار الجانبي الذي على اليسار حيث البـــاب الموارب • ومثل عنكبوت متفرد يشده الخيط الشفاف بنسيجه السري ، عادت عيناه لتواجها السقف الداكن •• هل كان نائما قبل قليل ؟ لا يستطيع أن يجزم بذلك بل انه لا يستطيع ان يجزم من أنه قد أغمض عينيه على الاطلاق ، فها هو على وضعه السابق أشبه بجذع مقطوع ومقذوف على هذا السرير الحديدي الضيق والسقف الموحش ، الذي لم يعد يئن تحت ثقل الخطوات الخرساء ، يواجهه وعيناه المحمومتان تصران على اختراق طبقة القصب والتراب ولكن السقف كان صامتا !•• نائمة وشفتاها منفرجتان قليـــلا واسنانها الدقيقة تومض في الداخل •

واتنبه الى صوت رعد بعيد بدا وكأنه صادر من عالم آخر •• كانت لطخ زرقاء متباعدة قد انكشفت من السماء البليلة وندف سحب داكنة اشبه بقطن قديم تبدو من خلال زجاجة النافذة الشوهاء بسبب الرذاذ المتساقط بعدما افتقد المطر حدّته السابقة ، ومـــن اهتزاز قمم الاشجار المثقلة بالماء ادرك بأن الريح تهب رخية من جهة الشرق •

تناهى لسمعه صوت اصطفاق باب المنزل وحفيف قدمـــين ترطشان على أرض الممر الممتد امام المنزل والمغطى بطبقة مـــن الحصباء والرمال ••• قد تكون تلك أمّه تغادر المنزل لغرض ما ؟

واستغرب منها أن تخرج في مثل هذا الوقت فقد تتماسك السحب من جديد وينهمر المطر مرة ثانية !

تذكر بأنه لم يتناول وجبة الافطار ، ولكنه لم يشعر بالجوع فقد أصبح من دأبه أن يتناول الافطار في ساعة متأخرة من الصباح .. بل انه وفي مرات كثيرة ، كان يتناول وجبة الغداء مستغنيا عن فطور الصباح الذي اصبح من دأب الام اعداده كل يوم بعد ما تهدل بطن « جميلة » ...

... كان بطنها مسطحا ونحيلا وكأنه جُبل من تربة الارض الرطبة البنية اللون .. والسرة في الوسط أشبه بأثر قطرة مطر ثقيلة ارتسم على طبقة طمي ناعمة .. قالت له بصوتها الطفولي الذي طالما استفزه :

- « لا .. لن تستطيع !.. »

كانت قد كشفت عن بطنها المسطح مستندة على راحتي يديها اللتين غرزتهما في الارض المعشبة . احتد « حازم » وأجابها بصوت غلبه الانفعال الطفولي :

- « بل استطيع !.. »

- « هيا اذن !.. »

افرد النعجة عن القطيع وقال :

- « انتبهي الى الكبش .. اخشى أن ينطحني ! »

أمسكت « جميلة » بالكبش من قرنيه بعدما انزلق ثوبها

الاحمر المزهر الى الاسفل وشمرت بضفيرتها الوحيدة الى الخلف بحركة خاصة كانت أكبر من أن تكون صادرة عن صبية لم تتجاوز الثامنة من عمرها • وتسلل « حازم » بين قوائم النعجة المستكينة ببلادة ، جعل وسطه تحت ضرعها الطافح باللبن ساحبا ثوبه البني اللون ، كاشفا عن بطنه المشابه للون الثوب انداكن ، ولكنه فوجيء بقهقهة مجلجلة وسمعها تهتف بصوت تهشم بين الضحك والصراخ •

- « لن تستطيع •• ها •• ها •• ها ، الم أقل بانك لن تستطيع ؟• انها منبعجة •• سرتك منبعجة الى الخارج مثل ضرع النعجة ! فأين يستقر اللبن ؟!•• »

نهض « حازم » صارخا بغضب وكأنما هي المسؤولة عن انبعاج سرته الشوهاء :

- « وانتِ !!••لن تستطيعي !•• هيا •• حاولي •• »
للمرة الثانية كشفت بطنها المسطح واندست بين قوائم النعجة المستكينة • الا انهما فوجئا بصوت ابيه الذي ولج الاجمة حيث الاغنام ترعى العشب :

- « ما شاء الله •• ما شاء الله !•• اهكذا ترعيان الاغنام ؟!»

وهنا لاحظ الاب ، بدهشة مازجها الغضب ، « جميلة » المستلقية بين قوائم النعجة بوضعية غريبة ، فانفجر صارخا :

- « •• يا للوقاحة !•• جميلة •• الا تخجلين ؟! »

واستوت « جميلة » واقفة بارتباك جعل الدم ينحسر عن وجهها وتمتمت بصوت راجف وهي تعدّل من طيات ثوبها :

ـ « هو الذي .. قال لي أن .. أملأ .. سرتي . بلبن النعجة !.. »

كادت عينا الاب أن تخرجا من محجريهما وهو يلتفت باتجاهه:

ـ « الا تخجل يا ولد ؟.. انها بنت وانت ولد !!.. الا تخجل ؟! »

بنت .. وولد ؟!.. وما شأن ذلك بما كانا يفعلانه ؟ ..

... أحسّ بوطأة الحمى تتضاعف وبالانحلال الكامل يغزو جسده .. انه متعب تعبا قاتلا بدأ يدب في جسده ، دبيب الموت في جسد مشلول ، مذ قذف به على هذا السرير قبل خمسة اشهر خلت .. بل انه بدأ يفكر بجدوى الاستمرار العقيم وهذا الاحساس المرير بكونه شيئا زائدا نسيه الاخرون يملأه باليأس ؟ ولكن الذكريات الجميلة والمريرة في الوقت نفسه والتي اصبحت ملكه لوحده ، سرعان ما تنثال في ذهنه واحدة أثر اخرى لتعيد التوازن الى وجوده كانسان محكوم بالانتظار رغم كل شيء .. ولا ينسى ايمانه المطلق بالمستقبل الذي لولاه لما وجد نفسه أسير هذا السرير الضيق !.. وقذف جدران الغرفة والباب الموارب والسقف والكتلة الداكنة المنتصبة امامه ومجلات وصحف المنضدة المثقلة بالغبار والصورة المعلقة على الحائط المواجه والنافذة المتوهجة ، قذفها جميعها بنظرة شاملة وهز رأسه وكأنه يوافق

وبقوة على ما يفكر به الآن .. نعم لقد كان يتوقع أسوء مما هو عليه الان !.. كان يدرك بأن تلك الارض الملتهبة والمثقلة بسحب الدخان والغبار والهدير الاصم قد تسحبه سفلا لتوحده بأديمها الملتهب . كان الموت يومذاك مسألة اعتيادية لا تحتاج الى فغر الفم ببلاهة مشفوعة بآهة بتراء . كل شيء كان محكوما بقوانين الارض الملغومة بالدمار . بدا الموت اعتياديا مرادفا للشهيق والزفير واعداد السلاح ونزع صمام القنبلة اليدوية والارتماء على الارض عندما تمرق الطائرات المغيرة وانتظار سماع هدير الانفجار الاصم .. ذلك الانفجار الذي قد يصبح الجسد ضمن دائرته الملتهبة ، فتتحول الاعضاء المبتورة والعظام المهشمة الى شظايا تسابق شظايا القنبلة المنفجرة .. وقد تنطلق قطعة عظم حادة لتجرح جنديا قريبا، سيتحسس أثر جرحه الى الابد متذكرا تلك الشظية التي أصابته من قنابل الاعداء !.. يومذاك انسحب من ذهنه المعنى التقليدي للموت واندفع في خضمه بلا تهيّب .. ولكنه لم يمت !! ..

ومرة أخرى شعر بذلك التعب المريض يدب عبر خلاياه المقدّدة .. انه تعب عقيم لا يشابه التعب الذي يعقب العمل .. وهو تعب مقترن بالمرض ، اما التعب الآخر فما أروع اللحظات التي تعقبه : الخدر اللذيذ يسري عبر الدم الساخن وعضلات الجسد تسترخي الا انك رغم استرخائها تشعر بها قوّية .. انه تعب الشجرة التي تنوء تحت ثقل ثمارها الناضجة .. وحازم مارس العمل منذ كان صغيراً يجرجر اذيال ثوبه في الوحل ، فحالما

أصبح بامكانه سحب خروف من أذنيه أصبح العمل مرادفا لطفولته الصاخبة تلك :

... صباح كل يوم يلبس ثوبه الصوفي السميك ويدس ذراعيه في كمي القصلة العسكرية الواسعة التي كانت هدية أحد ابناء عمومته البعيدين فيبدو مثل طائر كبير مهشم الجناحين . ويملأ جيوب القصلة العديدة بحفنات من التمر الجاف وقطع من الخبز البارد السميك .. وصوت أمّه يوشوش اذنيه المزغبتين :

ـ « انه الربيع يا « حازم » فلتبق جسدك دافئا .. احذر أن تدسّ قدميك في الطين لفترة طويلة ، واحذر من أن تعرض رأسك للشمس !.. خذ هذا الغطاء . انظر لقد رقعته لك ابنة عمك « جميلة » فعاد كما كان .. كن حذرا يا كبدي !.. »

يحتذي حذاءه الجلدي الثقيل ، ويشدّ الحزام العريض الى وسطه ، وبشكل طقوسي فخم يتناول خنجره الصغير ذا القراب الجلدي الاحمر المرصع بمسامير معدنية براقة .. يسحب الخنجر من القراب فيطالعه الحديد العكر المطفأ .. يغرزه في الارض الهشة ويحركه بسرعة الى أن يسخن الحديد .. ويتوهج النصل الحاد .. يعيده الى القراب ويعلقه بحزامه .. ومن ثم يتناول عصاه الغليظة ذات الرأس الذي على هيأة رأس ثعبان .. يضعها على كتفيه ويصالب يديه على طرفيها يهش الاغنام قاذفا « جميلة » بنظرة جانبية :

ـ « ترى هل ابدو بعينيها كراع حقيقي ؟! »

و « جميلة » تشد وسطها الدقيق بحزام ابن عمها الصغير

« حميد » ـ انها تشده عادة بعد أن تختفي القرية خلف سحابة الغبار التي تثيرها الاغنام ، خشية ان يراها « حميد » فتقمع الطامة الكبرى ـ ولكنها تأبى أن تغطي رأسها . انها تقول :

ـ « لا يا عمة .. ان شعري الكثيف يكاد أن يكون بمثابة الغطاء لرأسي .. »

وتقذف بضفيرتها الوحيدة الى الخلف بحركة خاصة تبدو أكبر من ان تصدر عن صبية في عامها الثامن . «جميلة» بثوبها ذي اللون البهيج عادة ـ قد يكون أحمر اللون أو أزرقه أو أصفره وبحزامها الدقيق تكاد ان تبدو مثل تلك التي أحبها « الأمير »

ـ « ترى هل أبدو بعينيها مثل ذلك الامير الجميل ؟ » ..

فلا يستطيع أن يمنع نفسه عن الابتسام عندما يفكر :

ـ « أمير بقمصلة عسكرية متهرئة وحذاء .. كحذاء ابي قاسم الطنبوري ؟! »

ويعالج الكبش العجوز بضربة مفاجئة من عصاه والكبش يندفع الى الامام ليعتلي مؤخرة أحدى النعاج فيغرقان في الضحك حتى تدمع عيونهما .

ها هو الربيع يكاد أن يتبدى في أجمل صوره وكأنه ذيل طاووس اسطوري يغطي السهوب الخضراء والوهاد البعيدة ، التي تتصاعد منها ابخرة الضباب الرمادي ، والجبال الحجرية الجرداء الممتدة شرقا . وها هي مستعمرات العشب تكاد ان تغطي السهول

المحدقة بالقرية ، والريح تهب ندية وثغاء الماعز وخوار الابقار ينطلق يرادفه رنين الاجراس النحاسية المعلقة برقاب بعضها ... طيور الدراج السمينة تنبع فجأة من تحت أقدامهما ، من بين العشب النامي ، لتذوب في دغل قريب ، ويسارعان الى ذلك الدغل محاولين العثور على ذلك الطائر الذي ينوء جناحاه القصيران تحت ثقل جسده ، ولكن عبثاً .. وفجأة ينخطف الدراج ليمرق من تحت أنفيهما وليختفي في دغل آخر .

في الربيع يكون الرعي ـ عادة ـ مهنة هينة لا تحتاج الى بذل جهد كبير ، فالمطلوب منه أن يهش الاغنام بعيداً عن الحقول اليانعة ، وأن لا يغفل مراقبتها خوفا عليها من الذئاب التي تمتليء بها غابات النخيل القريبة .. والمراقبة بحد ذاتها ليست مشكلة يصعب حلها ، فاضافة الى عينيه الحادتين وعصاه الغليظة وخنجره ، الذي لم تسنح أمامه الفرصة المناسبة لاستعماله على الاطلاق ، هناك أيضا عينا « جميلة » الواسعتان اللتان لابد أن تريا أكثر من ذئب واحد !! وهناك الكلبان الرائعان: « بوجي » الكلب الابيض المبقع بلطخ بنية ، وهو كلب لا يكف عن النباح أناء الليل وأطراف النهار ، فأي ذئب بليد يقترب من قطيع يحرسه كلب « نبّاح » فيسلم ذيله للاخرين ؟! أما الكلب الاخر فهو كلب ضخم ووقور أسود اللون وبدون اسم . وكان صامتاً لم ينبح ولو لمرة واحدة حتى أنه سمي « بالاخرس » الا أن الأب أكد أكثر من مرة بأنه سمعه اثناء مطاردته للخنازير وهو يزمجر كما تزمجر الذئاب ، فقيل انه قد يكون ثمرة علاقة سرية بين ذئب

وكلبة !•• ولكن لونه الاسود الناحم كان يثبت بأنه « كلب سليل كلب !•• » كان صمت « الاخرس » مشوبا بوقار واضح وباحتقار خفي للكلاب الثرثارة ـ عدا « بوجي » الثرثار الذي كان يبادله الود بحكم الزمالة ـ وكان أن فرض احترامه على أشرس الكلاب التي لم تجرأ على التحرش به احتراما لصمته الوقور وخوفا من حجمه الهائل •• وحتى الذئاب حالما كانت تشم رائحة « الاخرس » كانت تدسّ بأذيالها بين قوائمها وتمنح وجهها للبراري البعيدة •

بانتهاء الربيع يبدأ العشب بالضمور •• الصيف على الابواب والمياه تدفأ والارض تسخن و « حازم » يتخلى عن القمصلة العسكرية ، وبعد فترة يستبدل حذاءه الثقيل بخفّ جلدي • لكنه يظل متشبثاً بحزامه ، انه بدونه كما يقول : « كالعريان الذي لا يستر جسده ثوب ! » الحزام يطوّق خصره والخنجر بقرابه الجلدي معلق به وراحة يده تندى وهي مطبقة على رأس العصى الذي بهيأة ثعبان ، و « جميلة » تستعيض عن حزام « حميد » بحبل جدلته بنفسها ، لقد اكتشف « حميد » اين يختفي حزامه الأثير صباح كل يوم !•• وبدون « حياء ! » كما صرحت الام فيما بعد •• بدون حياء وبهدوء لم يكن مناسبا لسنيه الست ، طوق خصر « جميلة » المستعرة بالضحك ، ومد اصابعه القصيرة اللدنة وبخفة متناهية أخرج رأس المسمار من الثقب فأصبح الحزام في يده ومن ثم طوق به خصره الغليظ الناتيء الى الامام • صرخ بها بصوت اصم :

ـ « لصة ! •• سيكون الجحيم مأواك !•• »

ومن خلال كركرتها الصاخبة اجابته « جميلة » :

ـ « الجحيم أفضل من جنة تكون انت ببطنك المتدلي بين فخذيك احد ساكنيها ••! »

واكتفى « حميد » بأن قال لها من بين اسنانه المطبقة بعدما سحب بطنه الى الداخل فارتخى الحزام وكاد ان يسقط على الارض :

ـ « لصة ! »

وبقى الحزام مشدودا الى وسطه حتى عندما كان ينام !

الصيف يلفح الارض بلهيبه •• العشب الاخضر انكمش على نفسه واكتست وريقاته بخضرة داكنة ، والاوراق الناعمة ، التي كانت تذوب بين اشداق الاغنام ، تصلبت وخشن ملمسها •• ومستعمرات العشب تراجعت بعيدا عن القرية حيث البراري المتموجة ، فازدادت مهنة الرعي صعوبة وهنا تضاعفت أهمية « جميلة » ، لولاها لما استطاع الاستمرار منفردا مع القطيع في ذلك الخلاء الموحش !•• معاً تنقضي ساعات النهار ويعودان بالقطيع ، عندما تجنح الشمس غرباً ، الى القرية في انتظار يوم آخر •• هكذا هما : يطويان المسافات الشاسعة بحثا عن العشب ويرويان حكايات مكرورة سبق وان سمعاها عشرات المرات • ولكن البراري المتموجة والسماء الزرقاء وثغاء الاغنام وظلال الطيور المنخطفة فوق رأسيهما كانت تضفي عليها سمة جديدة تختلف

بالتأكيد عن الصمت المطبق في جوف الكوخ وهم متحلقون حول النار ، والسقف المنخفض وقد اختفى خلف سحب الدخان الرمادية وصوت ابيه الرنان يدوّي بين لحظة وأخرى وهو يقص عليهم القصص نفسها •

وعندما ينضب معينهما يسارعان الى ابتكار العاب طفولية سرعان ما ينغمسان بها تحت زرقة السماء البعيدة : جميلة تدس بجسدها النحيل بين القطيع المذعور وحازم يجدّ بحثا عنها ولكن عبثاً فالقطيع يتألف من اعداد كبيرة من الماعز والاغنام والعجول الصغيرة وجميلة أشبه بطائر الدراج المخادع ، تختفي في نقطة معينة لتظهر في نقطة أخرى ، لم تخطر بذهن حازم بأنها ستظهر منها • انه يدس بجسده بين الاغنام فيمتلىء منخراه الواسعان برائحة الصوف الزنخة المشابهة لرائحة غطاء نومه وتسحق الأغنام بأضلافها الحادة اصابع يديه وقدميه وهو يدب بينها • ولكن جميلة سرعان ما تبرز رأسها الاشعث فوق ظهور القطيع المقببة وتدلق لسانها الوردي الرطب للخارج زاعقة بصرخة الانتصار التي تجعل الاغنام تكف عن قضم العشب لترفع برؤوسها قاذفة الخلاء المحيط بها بنظرات جوفاء • شيء واحد كان يضايقهما أشد المضايقة ، وهو الظمأ وندرة الماء في البرية وحازم ، وهو يتلمض بشفتيه الجافتين ، كان يستذكر بعض الدروس التي استوعبها في مدرسة المدينة في الشتاء المنصرم والتي تذكر أن الماء عديم الطعم واللون والرائحة •• فكان يستغرب !•• كيف ذلك ؟ فالماء القريب من المزارع والحقول له طعم العشب ورائحته ! بل واخضرار لونه !

وماء النهر الجاري يختلف عن الماء الراكد في الغدران والبرك المنتشرة في البرية !

في بعض المرات كانا يحاولان الاستعاضة عن الماء بشربهما لبن النعاج .. ولكن عبثا فحالما يلمحان غديرا أو جدولا كانا يسارعان الى الارتماء على حافته ويدسان رأسيهما في الماء البارد ويعبأن منه عبأ متراخين الاغنام الظامئة وهي تندفع بارتباك معكرة الماء الرائق . وبعدما يرتويان كانا يتراشقان بالماء أو يقذفان بمعزاة جرباء ، كانت موضع تندرهما الدائم في لجّة النهر المدوم بين ضفتيه القريبتين ، فتملأ المعزاة البرية بثغائها الحاد وكأنما قذف بها في نيران الجحيم لا في ماء بارد يخفف من سطوع الشمس الساخنة على جربها المتقيح !..

تتضاعف مهنة الرعي صعوبة في الخريف ، حيث الصيف حول العشب الى هشيم سرعان ما يتفسخ عندما يتندى برطوبة الخريف .

في الشتاء يودع الراعيان الصغيران مهنتهما الشاقة والممتعة في الوقت نفسه في انتظار الربيع القادم . الاغنام تنام في الحظائر لتجتر القش والشعير وفتات الخبز الجاف ، وحازم يتفرغ لدروسه معوضا ما فاته أثناء ادائه لمهامه الشاقة ، ولكنه بعد رجوعه من المدرسة يشارك أباه في اعمال الحقل !

قد تتفرح راحتا الأب ، فيمسك حازم بدفة المحراث ويصرخ في الثور فتتثلم الارض الهشة أمام الحديد الصقيل الحاد .. ومن

ثم يشد كيسه الى كتفيه ويملأه بالحب و.. واحد .. اثنان .. يدس كفه في جوف الكيس ويقذف بحفنة القمح بطريقة خاصـــة تعلمها من أبيه : اليد تتهيأ مسبقا وبلحظة واحدة تنفتح راحة اليد، مدفوعة في الوقت نفسه بقوة دفع الكتف ، فتتطاير حفنة القمح لتتوزع على اكبر مساحة ممكنة و.. واحد .. اثنان .. خطوة .. خطوتان .. وحفنة حب أخرى .

يبدأ السقي ، يرتقي كتف النهر الذي يتفرع منه الجدول ويناول أباه المسحاة .. يندفع الحديد في طين القاع قرب الثقب ، والماء ينز من الجهة الثانية ، والحديد يندفع للمرة الثانية بعد ما يقذف بالطين بعيدا والماء يشخب .. مرة ثالثة .. ويندفع المـاء مدوّما عبر مجرى الجدول الرطب وتمتلىء الشقوق بالماء والهوام والحشرات الدقيقة تنفلت بعيدا عن التيار الحاد .

الحقـــل يخضر ويشـــق عشـــب ناعـــم كالزغب سطح التراب الذي يكتسي باخضرار شفاف سرعان ما يغمـــق ويغلق والعشب يتفجر من الارض ، وحالما تندفع الريح يتماوج الحقـــل الممتد على مدى البصر .. ولكن الخنازير تغرس أنيابها الحادة في الزرع ، فيساعد حازم أباه في الحراسة وينصبان هنا وهناك اعوادا غليظة يعلقان في قممها صفائح معدنية تملأ الحقل بقعقعتها كلمـا هبت الريح ، فتنفر الخنازير .

حازم يشارك أباه في شؤون الحقل وجميلة تبقى في القرية تساعد عمتها في أعمال البيت : حلب الابقار وغسل الاواني في النهر القريب وجلب الحطب والسعف من غابات النخيل الممتدة غرب

القرية ، واذكاء النار في التنور ، وحازم يدرج ، عندما تجنح الشمس غرباً ، عبر طرقات ضيقة تشق الحقول المثقلة بالسنابل الذهبية عائدا بمعيّة والده الى البيت • انهم يقتربون وعلى يمينهم خلف الغابات الرمادية الملفعة بالدخان والضباب والممتدة على شكل قوس يتكور في وسطه ليذوب طرفاه الهشان ، حيث تقل كثافة النخيل ، في أرض السهل ، تدرج الشمس لتغطس خلف الارض المعتمة • والى الامام في وسط الحقول الخضراء المتماوجة ، تنهض أكمة مديدة تنتصب على حدبتها الملطخة بشعاع الشمس الغاربة ، اكواخ القرية الطينية • والاكواخ تتوزع بصورة عشوائية تتخللها حظائر الماشية •

عبر قوس متعرج تتراصف الاكواخ ، بدءاً من الغرب ، قريبا من جدار النخيل الرمادي ، فهناك تبدو جدران كوخ عمه الذي تهدم بعدما هاجر نحو المدن البعيدة، وبعده ينتصب كوخ « شرهان » ذي الذراع الواحدة ، التي بترت في الحرب العظمى عندما جندته « جندرمة » الاتراك كما جندت رجالا كثيرين توزعوا الان في القرى المجاورة ، بعد كوخ « شرهان » تتعاقب اكواخ الفلاحين الطينية بسقوفها المقببة وكواها الدائرية المتروكة باتجاه الحقول • ولكن عيني حازم المطوفتين سرعان ما تتوقفان عند كوخ « زهرة » المعتوهة • انه كوخ يتميّز عن بقية اكواخ القرية بلونه الرمادي المبيضّ • وهذا اللون الغريب جاء بسبب ذلك الطين المتفسخ الذي تصرّ « زهرة » على أن تطلي به جدران كوخها كلما اطل الشتاء برأسه الأشيب ،

متحدية أرادة جيرانها الذين تكاد رائحة ذلك الطين أن تزكم انوفهم لعدة أيام الى أن يجف • و « زهرة » تبرر اصرارها بأنها رأت ، بام عينيها ، العمال والبنائين وهم يطلون جدران «القصور!» هناك في المدينة بالطين الاسود نفسه المشابه لطينها اللهم الا من ناحية التسمية فهناك يسمى « بالاسمنت » فما الفرق اذن ؟! وتكاد عينا حازم أن تختفيا بين طيتي جفنيهما المتغضنين بسبب تكور الوجنتين المؤطرتين لشفتين ارتسمت عليهما ابتسامة عريضة • في الطرف الاخر من الاكمة حيث السهب ينبسط ليدرج شرقاً تتخلله قرى تناثرت عبر الحقول المتوهجة تحت شعاع الشمس الغاربة ، هناك يرتفع سقف كوخهم ، وقريبا منه تبدو حظيرة الماشية واضحة لعينيه ، فوقها تدرج ، بانسياب ، كتل دخان رمادية تلطخ زرقة السماء • الى الاسفل تتوهج نار برتقالية صغيرة على خلفيّة بنفسجية هي التخوم المنخفضة للأفق الشتائي الداكن • وتتكاثف كتل الدخان قريبة من الارض ولكن النار ، التي ألقمت بحزمة من الحطب الجاف ، سرعان ما تنفجر فيتصاعد الدخان عاليا وتخف كثافته وتندلع النار من فوهة التنور أشبه بدم ينفجر من جرح عميق •

حازم يطوّف بجرمه الصغير متقدما الى الامام وظاهر يده يمسّ السنابل الخشنة ، وقرص الشمس الملتهب يكاد يختفي ولطخة من الشعاع البرتقالي تتلامع على حديد بندقية الصيد المتأرجحة على كتف والده الذي يحاول جهد امكانه موازنة خطواته الواسعة مع خطوات فلاح قميء يسير بجانبه • انهما

عائدان الى القرية والاحاديث المشفوعة بالسعال المتقطع والضحكات الجوفاء ودخان السجائر ذي الرائحة النفاذة ، تشابكت عبر نسيج الصمت المخيم . البندقية تتأرجح على الكتف .. ترتفع وتنخفض تبعا لحركات يدي والده التي يحاول عن طريقها تأكيـــد سيل الكلمات المنثال من شفتين شوههما التبغ الرخيص . كانـــت الكلمات ترن في الخلاء الذي لا يعكر صفوه سوى رفيف طيـور تنخطف من امامهم وصرير جنادب تصمت عند اقترابهم منها لتزعق فيما بعد ، وخوار ابقار بعيدة وزعيق نساء يتردد عبر اكواخ قريتهم والقرى المجاورة . وكانت الكلمات تثير انتباه حازم ، رغم انها لكثرة ما ترددت على مسامعه ترسخت في ذهنه ، ولكنها تظل كلمات يرغب المرء في الاستماع اليها ، وتظل جديدة جدة الزرع في كل موسم . انها تتحدث عن الارض والزرع والهموم والخيبات وعن الحصاد القادم وموعد مجيء «الملاّك° وعن تذمـــره الـــذي سيبديه بسبب شحة المحصول ، المحصول الذي لو تضاعف لبقي شحيحا في عينيه اللتين لن يملأهما سوى التراب . وهي كلمـات تشرّبت ببساطتهم وصراحتهم ، فهي تقول للاخضر اخضر وللاحمر أحمر .. ولكنها تقول ذلك بطريقة تجعلك تحس بما تحمله كلمة « الاخضرار » من معنى : الزرع .. النماء .. الربيع .. وهي تجعلك تحس بما تعنيه كلمة « الاحمر » .. الدم .. الغضب .. الدمار . ولكن تلك الكلمات تظل حبلى بالآمال ، فالعيـــون التي ترقبت انبثاق ساق البذرة من الارض ، وانتظرت العشبة وهـي تنمو وتزدهر وتتمايل تحت ثقل السنبلة الذهبية ، من المحال ان

تنظر تلك العيون الى الحياة بغير نظرة خضراء خصبة ، ومن المحال بالتالي أن لا تكون كلماتهم حبلى بالامال .

وفجـــأة تنطلق زقزقـــة غامضـة من تحت العشـب الكثيـــف تثـير انتبـاه حـــازم وينصت بترقـب .. أهو بلبـــل أم عصفـــور أم زرزور أم قبرة ؟! وينصـت بحـــدة بعدما يبطىء من سيره الى أن يتوقف .. يطوّف بنظراته خلال جداري السنابل المرتفعين على جانبيه ، قاذفا الشمس الهابطة بنظرة جوفاء . ولكن عبثـاً وكأن الطائـر قد ذاب . يكور شفتيه ويطلق من خلالهما زقزقة مشابهة لزقزقة الطائر المختفي ويعقف بعينيه نحو الارض وكأنه يتنصت بهما أيضا .

و « بوجي » الذي تقدمهم لمسافة طويلة واختفى في نسيج الحقل المتشابك ، سرعان ما يفتقد صاحبه الصغير فيرجع عائدا نحوه ، متشمما ارض الممر الممتد عبر الحقل الكثيف المتماسك .. ها هو يزمجر بمرح محاولا اثارة انتباه صاحبه الذي يتمعن فيما حوله بترقب ، غير آبه لظهور الكلب المفاجيء ، بل انه يقـــذف نحوه بنظرة جوفاء فيهزّ الكلب ذيله بمرح ، الا ان تلك النظرة سرعان ما تنزلق مهومة فوق السنابل الذهبية ، باحثة عن الطائـر المجهول . « بوجي » يتمعن باهتمام وحذر في شفتي حـــازم المكورتين وتلك الزقزقة الغريبة تنساب من بينهما .. ينصب أذنيه ويخفضهما تبعا لتنوع النغمات القصيرة والحادة . ويتضاعـــف فضول الكلب واندهاشه . وفجأة يجفل بارتعاب عندما تنطلـق زقزقة مماثلة من تحت العشب قريبا منه ، فينصب أذنيه باصرار

وتحفز ويزمجر باستياء ، حازم يلاحظ حيرة « بوجي » فـــلا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك بصخب ، ولكنه سرعـــان ما يمل ّ لعبته وتعود عيناه لتتجها الى الامام ، وتكون النار قـــد خمدت ولكنه يستطيع الان أن يلمح التنور الذي كانت النار تنبثق من فوهته . تلك هي الصبية الصغيرة تنحني نحو فوهة التنور بين لحظة وأخرى . ويشتد ايقاع القدمين المتربتين ، الممر المتعـرج يندفع الى الخلف والكلب يمرق أمامه عاقفا ذنبه الحـــلزوني الى الأعلى . وتواصل البندقية تأرجحها على كتف الأب واصداء الكلمات المدومة ترن عبر غابة النخيل الى اليمين وأكواخ القرية الى الأمام . العشب يخف ويفتقد تماسكه متحولا الى زغب ناعم يتلاشـــى بانسياب لتنتصب حدبة الاكمة المثقلة بالرمل والحصباء .. جميلة تنتظره قرب التنور وقد توردت وجنتاها بعدما لفحهما لهب النار. يبتسمان بصمت وبيدها الملفوفة بخرقة تصل الى نهاية مرفقهـــا ـ لكي لا تلسعها حواف التنور الملتهبة ـ تناوله رغيفه المشبع بالدهن وتمتد اليد الملفوفة الى جوف التنور الملتهب متلقفة الرغيف الاخير ومن ثم تتناول طبق الخوص المثقل بالارغفة الساخنة العابقة برائحة الخبز الزكية ويتلقفهما باب الكوخ المعتم .

انه موسم الحصاد . يقف الاب والام وبعض رجال أنهوا حصادهم قبل أيام . يقفون متراصين أمام الحقل والمناجل المعقوفة تتلامع في اكفهم الخشنة . يتمتمون ببعض الآيات والادعية وينحنون نحو السنابل انحناءة خاشعة تأمل بمحصول وفير . المناجل ترتفع ومن ثم تمرق قريبة من سطح الارض باعثة في الصمت المخيـم

صريرا جافا .. وتتكوم السنابل بين اقدامهم .. حازم وجميلة وحميد والصبية الاخرون سرعان ما يتلقفون حزم السنابل ، وحزمة فوق أخرى ويتكوم البيدر .

تبدأ دراسة البيدر . حبة القمح تنفصل عن قشرتها . وفي يوم آخر تكون الريح فيه رخية ، يمسك الاب بالمذراة ، وعاليا نحو السماء الزرقاء البعيدة تتقاذف حفنات القمح والقش . الحبات الثقيلة تسقط على الارض تحت المذراة ، والقش الخفيف يتطاير بعيدا ساعة .. اثنتان .. القمح يعبأ في الاكياس .

ومن جهة الغرب ، عبر الطريق المتصل بالمدينة ، من خلال غابات النخيل ، يتوهج الحصان الاشهب وفارسه المتأرجح على صهوته بكبرياء ، فوقهما تدرج سحابة غبار صغيرة . انه « الملاّك » صاحب الارض لا صاحب التعب !.. يهبط عن صهوة حصانه بتبلد ونزق . يعطي النزر اليسير لكل فلاح لقاء تعبه ، والاكياس الاخرى تردف على ظهور دواب الفلاحين وترسل باتجاه المدينة . وقبل ان يودعهم « الملاّك » يتذمر كالعادة من رداءة المحصول . يدس يده اللحيمة في جيب قفطانه الصوفي الفاخر فيرتفع ذيل سترته ويبرز المسدس الانكليزي المتدلي من حزامه المرصع بمسامير فضية . يخرج علبة سكائره الافرنجية . وبأصابع غليظة مثقلة بخواتم من الذهب والفضة ينبش في قاع العلبة ليخرج سيكارة ذات عقب اصفر يركنها في زاوية فمه الرمادي ، وقبل ان يدس العلبة في جيبه يعيدها باتجاههم ، ويمررها بانسياب تحت

انوفهم ، فترتفع الاكف شاكرة له كرمه . تخشخش علب الثقاب في أكف أخرى ، ويضوع الجو برائحة الكبريت المحترق . مع اول نفثة دخان تنساب من منخريه المعتمين تعبق رائحة غير مألوفة لا تشابه رائحة سكائرهم اللّف على الاطلاق . وللمرة الثانية يبدي « الملاّك » تذمره لرداءة المحصول . بعد لحظة صمت مشفوعة بنظرة آمرة وصارمة في الوقت نفسه ترتسم في عينيه المختفيتين تحت طيات شحمية بنفسجية اللون ، يفاجئهم بطلبه الغريب :

ـ « حسنا ... لقد شح الماء في النهر والارض بحاجة الى الاستصلاح ، وكما تعلمون فان هذه الاكمة التي تنهض على ظهرها اكواخ القرية تبدو كالعين العوراء في أرضي ، لذا قررت تسويتها بأرض السهل لغرض استغلالها في الزراعة .. وبطبيعة الحال انا لا اطردكم فما بيننا هو الزاد والملح ، لكنني أرجو ان تعذروني لموسم أو موسمين فانني .. لن ازرع هذه الاراضي وسأكتفي بزراعة اراضيّ الجنوبية ، وسأحاول تنظيف النهر وتعميقه .. على كل حال من يرغب في البقاء ليبق .. ولكن ليضع نصب عينيه : لا زراعة خلال الموسمين أو الثلاثة القادمة ! من شاء فليبق فما بيننا هو الزاد والملح !.. »

وتقعقع حوافر الحصان الاشهب ويتلامع لبعض الوقت تحت شعاع الشمس الى أن تتلقفه عتمة الغابات الكثيفة . حقا ان العين لن يملأها سوى التراب !..

اذن ما كان مجرد هاجس اصبح حقيقة لا مفر منها . تباع الماشية والاب يعدّ النقود :

ـ « مائتا دينار !! •• انها ثروة يا ام حازم ! •• الان جاء دور البحث عن الارض •• »

أكواخ عديدة تهجر وتصفر الريح عبر كواها الموحشة •• وتحت انهمار المطر وهبوب الرياح ، تتهدم الاكواخ المهجورة ، الجدار الذي يسقط لن يرتفع مرة أخرى • الفلاحون يتوزعون عبر القرى المجاورة أو يهاجرون نحو المدينة الممتدة خلف غابات النخيل ، والمتمكنون منهم يهاجرون نحو المدن البعيدة • الفلاح الذي كان يكتفي بحفنة هزيلة من القمح والتي هي الخمس لقاء تعبه ، لم يعد بامكانه أن يعتاش عليها ، فالاطفال قد كبروا والرزق قلّ وهناك مصاريف المدرسة ومصروف متواضع يرسل عقب كل موسم الى الابن الكبير الذي يؤدي خدمته العسكرية في المدن البعيدة •• كيف لا يسعفونه بالنقود وتلك هي رسائله تجيئهم حزينة ••• تتحدث عن الغربة والحنين الى الاهل والاصدقاء والماشية والقرية ، واللهفة في الاستماع الى دعاء الوالدة الحنونة فجر كل يوم •• وتختم الرسالة بثقب او اثنين خلفتهما سيكارته الملتهبة كالتهاب قلبه اليهم •• والام (الحنونة) تلطم خديها وتنقنق بحسرة :

ـ « ما العمل يا ابا فلان ؟ •• اليس الولد من لحمك ودمك؟ كيف لا نسعفه بحفنة نقود عساها تبهج فؤاده المكلوم ؟••»

وابو حازم يعد النقود :

ـ « مائة وثمانون •• انها ثروة لا بأس بها يا أم حازم !••»

وبعدما يطوّف بنظراته المتحسرة عبر ارض السهل الجرداء، ينظر الى يديه المتجسأتين ويتمتم بصوت أجـــوف مخاطبا الام والاطفال المتحلقين حوله :

ـ « أشعر براحتي وهما تتآكلانني !•• انه موسم الحراثة •

ولكن ما العمل و «الملاك» قال : لا زراعة لموسمين او ثلاثة !•• هل تتذكرين يا ام حازم كيف نطق بتلك الكلمات ؟! كان وكأنه يقول بأنه سيمتنع عن تدخين سيكارة او اثنتين !•• لكم كانت الكلمات سهلة في فمه الشبيه بفم جثة ؟! »

تكاد القرية تفرغ •• لم يعد يســـمع خوار الابقار أو ثغاء الماعز أو نباح الكلاب الا نادرا • « بوجي » اختفى •• هكذا غاص قرص الشمس خلف غابات النخيل و « بوجي » لم يعد •• اعتلى حازم جدار كوخ متهدم وصرخ بصوت متهدج :

ـ « بوجي !•• بوجي •• بوجي ! »

وبرنة فاجعة رددت غابات النخيل صدى الكلمة اليتيمــة • ولكنه لم يعد •• قالت الام :

ـ « ستجده صباح الغد امام باب الكوخ !•• »

ولكن الاب هز رأسه بأسى وقال :

ـ « لا اظن •• كان كلبا نادرا ولم يكن من عادته الابتعاد عن باب الكوخ ليلا !•• »

وارتسم الاسى ملء عيني حازم ولكنه كذب الحقيقة وقال :

ـ « قد تصدق أمي !•• »

ولكنه لم يعد صباح الغد ولا في أي صباح ••• «شرهان» ذو الذراع الواحدة قال بأنه يظن ان الغجر الذين مروا بالقرية قبل أيام قد اختطفوه ، واضاف بنبرة الخبير المدرك بخفايا الامور :

ـ « كان كلبا نادرا ولا شيء يعادل الكلاب الجيدة عند الغجر !!•• »

حازم تخيل الكلب والطوق المشدود الى رقبته وتخيل أشياء أخرى •• ولكن « بوجى » اختفى وبقي الكلب الاسود « الاخرس » ملازما لباب الكوخ ، محافظاً على صمته الابدي وكأنه شاهد أخرس على كل ما مرّ !•• الا انه حدث تغيير يسير ، فقد اطلق على الكلب الاسود اسم « كافور » ولكنه لم يكن تغييرا حقيقيا ، فحازم يكاد ان يمزق حنجرته وهو يصرخ :

ـ كافور !•• كافور !••

و « الاخرس » يأنف عن رفع بوزه من بين قائمتيه المتلاصقتين على الارض الرطبة !••

فلاحون آخرون يهاجرون •• العربات الخشبية المخلّعة ، ـ المثقلة بامتعتهم البدائية ، والتي تسحبها جياد عجفاء تدأب على هزّ ذيولها بصورة متواصلة لتهش عبثاً الذباب الملتصق بتقرحاتها الصديدية ـ تقعقع على الطريق الممتد عبر غابات النخيل باتجاه المدينة • والفخاتي التي بلون الرماد تواصل هديلها الكئيب ، والاب يحسب النقود :

- « مائة وعشرون !•• لن استطيع شراء تلك الارض •• فصاحبها لا يقبل بأقل من مائة وثمانين ! » ••

تفتح الام صندوق زفافها الخشبي لتضع ، في يد زوجها ، حليّها المتبقية من يوم زفتها • صباح الغد تتحول الحلي الى خمسين دينارا :

- « مائة وسبعون •• نحن بحاجة الى نقود قليلة اخرى ! »

تباع بقرتهم الاخيرة والاثيرة لديهم بثلاثين دينارا :

- « مائتا دينار •• مائة وثمانون لشراء الارض والعشرون الباقية لشراء المستلزمات الضرورية لبناء المنزل ! » •

كانت أرضا مغطاة بدغل كثيف متشابك قوامه اشجار عناب معمرة واشجار توت وكالبتوس وزعرور وثلاث أو اربع نخلات عذراء لم يمس منجل فلاح ، في يوم ما ، هاماتها المغطاة بالكرب من الارض حتى جريدها الاخضر ، والاعشاب والحشائش وسيقان النباتات الشيطانية المزهرة زادت من تماسك الدغل وجعلته أشبه بغابة صغيرة يستحيل على المرء ولوجها دون منجل حاد • وكان الطريق الرئيس القادم من الشمال باتجاه الجنوب يطر من أمام الدغل ليتفرع منه على جهة اليمين طريق يخترق الارض المعشبة باتجاه الغرب حيث غابات النخيل والمدينة • وأمام نقطة تفرع الطريقين في الجهة المقابلة ، انتصبت شجرة سدر معمرة يدرج خلفها ، بموازاة الطريق الرئيس ، نهر يسمع اصطفاق مياهه الحادة في مجرى اخفته سيقان القصب والعليق والحلفاء وشجرات صفصاف

قميئة . كانت أرضا مناسبة رغم ضيق رقعتها . على كل حال لم يكن الاب يرغب باستغلالها لغرض الزراعة ، لانها أضيق من ذلك ، انما كان يرغب في بناء بيت طيني بثلاث أو أربع غرف ذات نوافذ عريضة تطل على فسحة مشجرة . كان يحلم ببيت يبنيه بيديه الاثنتين ويكون لهم لوحدهم فلا يستطيع اي « ملاك » كان ، طردهم متى شاء .

على العموم من الممكن اعتبار الصفقة موفقة الى الطرفين . فبالنسبة اليهم كانت الارض تقع في موقع وسط بين القرى المجاورة اضافة الى الطريق الرئيس المار من امامها . والمدينة قريبة منها . وكانت الصفقة موفقة لصاحب الارض ، الذي لم تشكل تلك الرقعة المهملة شيئا يذكر امام أراضيه الشاسعة . وهي رقعة لم يكن بالامكان استغلالها للزراعة لكونها مغطاة بالادغال الكثيفة . وبسبب قربها من البساتين كانت تعتبر مرتعا خصبا الخنازير التي تغص بها احراش تلك البساتين المهملة . والاراضي البعيدة التي تفصلها مساحات شاسعة عن اوكار الخنازير لم تسلم من اضلافها وأنيابها ، فكيف بهذه الارض التي لو استدارت الخنازير خارجة من أوكارها لوجدت قوائمها الخلفية مغروسة بها ؟! وكانت فرصة نادرة سنحت امام صاحب الارض ، عندما عرض عليه وكيله ، الذى لاتفارق السكائر ذات الاعقاب الصفراء شفتيه ، مسألة بيعها لاحد الفلاحين بمائة وأربعين دينارا !.. وفي مديرية الطابو في المدينة استلم الوكيل المبلغ ووقع على عقد البيع وكاد توقيعه أن يتلوث برماد سيكارته اللعينة .. وعلى كل حال كان

المهم بالنسبة للوكيل هو أن يسارع بدس الاربعين دينارا الزائدة في أحد جيوب سترته ، ولاحظه « حازم » الذي صحب أباه الى دائرة الطابو لينوب عنه في قراءة نصوص عقد البيع ، ونبه أباه فيما بعد وهما عائدان الى القرية الى ذلك الاشكال البسيط الذي جاء في تلك الفقرة الغريبة المكتوبة في العقد والتي تذكر بأن الارض المرقمة كذا مقاطعة كذا بيعت الى (السيد عبدالغفور عريبي غافل) بمبلغ قدره مائة وأربعون دينارا ، في الوقت الذي استلم الوكيل مائة وثمانين !!.. ولكن ذلك المبلغ لم يشكل حاجزا يحول بينهم وبين فرحتهم بامتلاكهم لتلك الارض .

... ولم يستطع حازم ان يمنع نفسه عن الابتسام عندما استفاق من تأملاته ليكتشف بأنه يفكر بـ « تلك الارض » . وكأن هناك مسافات شاسعة تفصلها عنه في الوقت الذي لم تكن « تلك الارض » سوى الارض نفسها التي تستند عليها قوائم سريره الاربع !!..

هكذا هو منذ ملازمته لهذا السرير قبل خمسة أشهر ، يفاجيء نفسه وقد استيقظ من تأملات متلاحقة شدته الى ماض بعيد جعل الحاضر ينحسر ليحل محله بكل ما يحمله من حضور ساحق يجعله يتذكر لحظات فريدة مرت به قبل خمسة عشر عاما أو أقل . وكان يستعيد ما حدث آنذاك بكل دقة ووضوح . والغريب هو أنه كان يعيش تلك اللحظات للمرة الثانية حتى انه ، في بعض المرات ، كان ينتبه الى راحتيه وهما تنقبضان وتنبسطان وكأنهما تؤديان عملا معينا من اعمال الزراعة كان يفكر به في

اللحظة نفسها !•• بل انه وفي احدى الليالي ، وكان متمددا على السرير نفسه ، وجد نفسه ، دون أن يعي ذلك ، ينزلق بتأملاته الى ليلة بعيدة لم يدر كيف خطرت في ذهنه آنذاك !•• كانت ليلة حافلة ، وقد تربع هو وصديقه « خالد » في صدر الخيمة ، والغجريات الفاتنات يكدن ان يمزقن حجب الليل بصهيل غنائهن المبتذل ورقصاتهن الداعرة وقد سال الكحل وامتزج بالاصباغ التي قنّعت وجوههن المنداة بالعرق • وحازم يرى كل ذلك بعينين اثقل الخمر اجفانهما واكسب نظراتهما الذبول والانتشاء ، وكان أن استدار حازم باتجاه النافذة المطلة على عتمة الليل فطالع عينيه وجه تنطق ملامحه بالسكر والابتذال والعربدة • كان وجها غريبا أعاده الى واقعه بلحظة خاطفة فانطفأ صخب الرقص والغناء وتناهى لاذنيه صرير الجنادب الزاعقة في هدأة الليل البهيم ، واكتشف بأن ذلك الوجه لم يكن سوى انعكاس وجهه على زجاجة النافذة وقد حدد المصباح المعلق فوق رأسه ملامحه بوضوح على تلك الزجاجة ـ المرآة !••

لمرات عديدة حاول حازم ، جهد امكانه ، توزيع انتباهه بين الحاضر والماضي ولكنه سرعان ما كان يكتشف بأن توزعه بين قطبين بعيدين يجعله أن يعيش وضعا ذهنيا مشوشا ، وذلك كان أمرا بالغ الصعوبة • وها هو الآن وقد صحا من تأملاته وانحسر الماضي بعيدا يحس احساس الحالم المستيقظ من نومه !••• اين كان ؟ واية احداث بعيدة تمثلت أمام عينيه ؟! انها مجرد تساؤلات سرعان ما يجرفها تيار الزمن المندفع أبدا الى الامام

لتظل تلك التساؤلات بدون اجوبة ، ان لم تحمل هي أجوبتها ضمنا !

وها هو يطوف بعينيه عبر مستطيل النافذة ليمنح السماء الملطخة بسحب لا تزال تواصل انصبابها باتجاه هوة نافذته ، نظرةً قلقة تشي بما يعتمل في اعماقه من رغبة ملحة بأن يرى الشمس تشرق بعدما احتجبت طوال الايام الثلاثة الماضية . وهناك عبر ذلك المزيج المؤطر باطار النافذة والمتكون من سحب متخلخلة ورذاذ متساقط وقمم اشجار متهدلة ، عبر ذلك المزيج المتجانس ببلله المشترك ، كانت عصافير منفوشة الريش تنخطف هنا وهناك وتصدح بزقزقة مكتومة خنقتها ضلفتا النافذة المواربتان . وكان شعاع الشمس ينسكب ، بين لحظة وأخرى ، على قمم الاشجار المتلامعة تحت انهمار الرذاذ ، ليتوارى فيما بعد خلف غيمة عابرة تحجب قرص الشمس .

وفي الداخل ازداد لمعان حاجز السرير الصقيل ووضحت معالم الكتلة المنتصبة تحت ذلك الغطاء الداكن اللون وعلى الصفحة الاولى للمجلة المنبسطة على المنضدة الصغيرة وضحت معالم تلك المستطيلات والمربعات الداكنة التي لم تكن سوى صور تعتليها كتابات وعناوين بخطوط كبيرة ، وكانت فوهة مدفع دبابة تطل عليه من تلك الصفحة مظللة بسحابة غبار ودخان . وكانت الصورة مطبوعة بالاسود والابيض مما أضفى عليها طابع صورة قديمة خلت الحياة منها . والى الامام ، على الجدار المواجه كانت زجاجة الصورة المؤطرة قد ازدادت تألقا

والصور المضببة التي في الخلف بدت غائمة وغامضة وكأنسا تنتمي لزمن آخر تنهض بينه وبين الزمن الحاضر للغرفة زجاجة تعني الكثير .. الكثير بالنسبة لهاتين العينين المطوفتين في هذا الفراغ الموحش !.. والى اليسار كان الباب على وضعه السابق مغلقا بصورة متماسكة ، حتى أن حازم لم يصدق بأنه قد فتح في يوم ما ، بل بدا وكأنه صبّ صبّاً في ذلك الجدار العاري ذي اللون البنيّ الباهت . وكاد ان يستشف ، رغم الطبقة الخارجية الرقيقة للجدار ، هيأة اللبنات المتراصة فوق بعضها في الداخل !.. كيف لا ويداه الاثنتان رصّتا العشرات منها ؟ شهران كاملان استنزفا جهودهم باستمرار . عشر ايدي عملت معا لتحقق حلمها المشترك : الاب والام وهو وجميلة وحميد .. عشر أيدي حفرت الارض واضرمت النار في الدغل وحفرت الاسس وجبلت الطين ووضعت لبنة فوق أخرى ليرتفع سقف يستظلون به ..

... كان الاب هو البادىء ، قال :

ـ من هنا ...

واشار بسبابته السوداء السميكة الى الدغل ، واكمل :

ـ .. نبدأ ..

كان الدغل المتماسك يواجههم اشبه بجدار عشبي هائل ليس في المستطاع النفاذ منه ، ولكن الاب انحنى وأطبق براحة يده اليسرى الخشنة على قبضة من سيقان الحلفاء والعليق والسوس ، وبحركة افقية سريعة ومتقنة من يده اليمنى الممسكة بمنجل تلامع

شعاع شمس الصباح على نصله الحاد ، ثلم ذلك الجدار الاخضر قريبا من سطح الارض، فتكومت حزمة عشب غليظة بين قدميه .. ضربات سريعة أخرى وتوغلت الثلمة داخل الدغل وقريبـــا مـن سطح الارض بدت بقايا الاعشاب المقصوصة خشنة وناتئة ، وعلى الجانبين ارتفع جداران متماسكان قوامهما نباتات وحشائش الدغل ولكم ودّ حازم أن يخترق تماسك ذلك الجدار العشبي ليتوغل في الاعماق الخضراء حيث الحيوات السرية تتناسل وتندثر بـين الجذور الشاحبة البيضاء التي لم تمسسها الشمس بضوئها في يوم ما ، وبين الاغصان الملتفة على بعضها ، وفي الفجوات الداكنة الفاغرة أشداقها في الجذوع الرمادية المتشققة او الجذوع الصفراء التي تساقط لحاؤها فسالت عصارتهـــا الصمغية الكثيفة عبر عـروق سطحها الاملس . وعلى الطين الازرق المتفسخ . ولكن يديـــه الصغيرتين كانتا منشغلتين بتجميع حزم العشب المتساقط ليلقيها بعيدا في الارض العراء خارج الدغل .

بعـــد فترة تقـــارب الساعتين أطـــلّ الاب برأســـه من الجهة الثانية للدغل وبذلك يكون قد حفر ممرا يقسم الدغل الى قسمين . بطرف المنجل المخضب بدم العشب الاخضر أشار الاب الى القسم الغربي للدغل والذي لا يعادل سوى ثلثه تقريبا ، وهتف بصوت أمضه التعب :

- هنا سنبني البيت !..

وبيده الثانية التي ادمتها سيقان العليق والحلفاء أشار الى القسم الاخر من الدغل ، وقال :

ـ وهنا ستكون الحديقة ..

كان وجه الاب العريض ، بملامحه الخشنة التي تركت أصابع الزمن بصماتها عبر التعرجات المتشابكة كما تخدد الريح الصخور ، ينضح عرقاً ، وكان الثوب عند الكتفين واسفل الابطين وفوق الحزام وتحته قد تبلل بالعرق . ارتكن بعجيزته المتربة على كومة عشب لم ترفع بعد ووضع المنجل ، الذي أطفأت عصارة العشب اللزجة توهج حديده اللماع ، على الارض . سحب كيس تبغه الأحمر ، المزدان بزهور صفراء دقيقة ، من تحت طية حزامه ، وبيدين ثابتتين لف سيجارتين ، ناول احداهما للام . كانوا قد تحلقوا حوله : الام تواجهه ، لصقها أقعى حميد ، على يمينه جلس هو وبجانبه جميلة .. ومن وضعه ذاك ، عبر الفسحة المثلثة المحصورة بين ساقي الاب المثنيتين ، لمح حازم الارض التي حلقها المنجل ، وفوق ركبة الاب المكورة لمح سرب طيور متجهة الى الجنوب ففكر :

ـ « طيور مهاجرة !.. »

وتذكر وجوه أصحابه الصغار الذين هاجروا مع آبائهم الفلاحين نحو المدن البعيدة ، وكانت شمس الضحى تضرب باشعتها في كبد السماء التي بدت زرقاء لدرجة لاتصدق .

بعد لحظات نفث الاب الدخان المحتبس في صدره مصحوبا بآهة ارتياح ، قال :

ـ أمامنا عمل كثير •• وها هي الظهيرة تكاد أن تزف لتصلينا الشمس بشواظها !•• هيا يا حازم اجلب المسحاة ••

كان ظل الدغل يغطي أرض الممر ، ولكنه كان ينحسر بالتدريج مع ارتفاع قرص الشمس • نهض حازم وأعقبته جميلة وقبل أن يخترقا الممر لينحرفا باتجاه شجرة السدر الضخمة هتف الاب :

ـ جميلة اجلبي معك الفؤوس ••

تحت شجرة السدر وجدا المسحاة والفؤوس • المسحاة مركونة الى جذع الشجرة الرمادي المتشقق ، والفؤوس الثلاثة تحت العباءة الصوفية المرقعة ، والتي كان الاب يملأها بكومة هائلة من العشب للاغنام التي بيعت قبل اشهر ••

ـ جميلة !••

جاءهما الصوت من وسط الدغل فأدارا بوجهيهما الى هناك وبعيدا خلف الدغل بدت غابات النخيل الزرقاء كأنها ملفعة بسحب ضباب خفيف ، وكانت تمتد على شكل قوس هش يحيط بالمدينة الرابضة خلف بحر النخيل الازرق :

ـ جميلة •• تأكدي من النار !••

انه صوت الأم ، وتذكرا قدر الطعام ، وكان خلف الشجرة وضع على قضيبين حديديين يسندهما من الاسفل حجران لفحتهما النار بهبابها الاسود •• النار خامدة وجمرات قليلة تتوهج خلال

الرماد . رفعت جميلة غطاء القدر فتصاعد بخار ساخن لفح وجهها المنحني الى الاسفل ، وكانت كتل لحم داكنة تطفو على سطح ذلك السائل الاصفر المبقع بلطخات دهنية دائرية تلامع الضوء عليها . أعادت الغطاء ، وكمن تخاطب نفسها تمتمت :

- لم ينضج الاكل بعد ..

تناولت غصنا جافا امسكت به من طرفيه وأسندته من وسطه على ركبتها الناتئة وسحبته الى الخلف ، فقرقع صوت جاف ، تخيله حازم وكأنه صوت تهشم رضفتها .. دستهما تحت القدر وأضافت اليهما أغصانا جافة أخرى وقطع سعف وليف ، فتكاثف دخان أزرق تحت القدر . كورت جميلة خديها ونفخت سحابة الدخان ، ولكن عبثا فقد تطاير رذاذ الرماد وتوزع في تموجات شعرها المشدود الى الخلف بشريط افتقد لونه الاصلي ، وتكاثف الدخان اكثر من السابق ونفخت مرة ثانية وثالثة .. انحنى حازم وقرب بوجهه من وجهها ، نفخا معاً وشعر ببشرة وجهه تلامس خدها فأحس بنغزة عميقة ارجفت لحم وجهه . وانبثقت كتلة نار صغيرة من وسط الدخان ، بدت أشبه بوردة صفراء تنمو بسرعة خارقة لتتراقص ألسنتها العديدة تحت القدر .. عندما رفعت جميلة الغطاء للمرة الثانية ، كان السائل الاصفر يبقبق ، وكتل اللحم تتراقص ، فتحلّب فم حازم واحس بالجوع ..

- هيا .. اسرعا !..

كان ذلك صوت الاب ، تناول حازم المسحاة من عمودها

الخشبي الصقيل ،وتناولت جميلة الفؤوس الثلاثة ، وأقفـــلا عائدين واصطفاق ماء النهر الممتد خلف الشجرة يملأ سمعيهما • تساءلت الام وهي تشدّ وسطها بخرقة برمت على شكل حبل :

ـ اشعلت النار ؟

ـ نعم •• الاكل لم ينضج بعد ••

ومسح حميد برأسه الاشعث على جنب أمه وماء بصـــوت بـــاك :

ـ جائع !

فأطلق الاب ، بعدما تناول المسحاة وقذف ببصقة عريضـة في كفيه ، قهقهة رنانة بدت وكأنها احتبست في صدره لفترة طويلة، امسك بحميد من شعره قائلا بصوت مرح :

ـ يالك من طفل بكّاء !•• الظهيرة لم تأزف بعد والاكل لم ينضج وأنت أصغر مما كنت أتصور !•• هيا تناول فأســـا وكن كأخيك حازم أو كأبنة عمك جميلة ••

استدار الأب عائدا الى بداية الممر الممتد عبر الدغل • كان العرق قد جف على ثوبه مخلفا بقعا بيضاء مستديرة وخطوطـــا متعرجة عبر طيات الثوب الرمادي الحائل • قال :

ـ يجب ان نحرق الدغل اليوم •• وبعد يوم او اثنين نحفر أساسات البيت ••

اعترضت الام ، وكانت قد عقفت كوعيها عاليا لتعيد شدّ عصابتها على رأسها بصورة أفضل :

– قد تمتد النار الى الدغل الاخر !..

أجاب الاب وهو يغرز حديد مسحاته في الارض

– ولِمَ حفرنا اذن هذا الممر ؟.. ثم اننا سنشق جدولا نوصله بالنهر فيمتد فاصل مائي بين القسمين و ..

رفع اصبعه المبلل بعدما دسه في فمه وأكمل :

– و .. لاحظي .. الريح ساكنة ! فكيف اذن ستنتقل النار؟ ونحن كذلك سنكون متأهبين وبأيدينا جريد النخل لترويض النار .. ان تعدت حدودها !..

الفؤوس الثلاثة ترتفع ، وفي تلك اللحظة الخاطفة التي تجمد خلالها راحتا اليدين المطبقتان على مقبض الفأس الخشبي ، في تلك اللحظة حيث الارض المزغبة ببقايا الحشائش تميد أمام العينين المجهدتين والشمس تنخطف على حديد الفأس اللماع في الاعلى ، تضخ الكتفان المتوترتان بقوة مضاعفة عبر الذراعين، فتهوي الفأس باندفاع لا يردّ ثالمة ، بحديدها الصقيل ، الارض الهشة حيث التراب المفتت يكشف عن أحشائه الرطبة التي تشابكت خلالها بقايا الجذور الدقيقة والاوراق المتفسخة والحصى الناعم . الأرض المثلومة تفوح برائحتها الطرية ، والفؤوس الثلاثة تتابع صعودها وهبوطها ، ومن الخلف يتناهى لاسماعهم صوت ارتطام المسحاة بكتل التراب ، المسحاة المستقرة بين راحتى الاب تعمق

الجدول وتقذف بحفنات من التراب بعيدا فيسمع لوقوعها على العشب خشخشة مكتومة ، وبين لحظة واخرى تلتقط أذنا حازم صوت ارتطام المسحاة بحجر يصدر عنه صوت معدني جارح ، والفأس التي عرقت راحتاه على مقبضها تصطدم بقطع حصى متوحدة بلحمة الارض ، فيتطاير ، أمام عينيه المجهدتين ، شرر خاطف ، ويعيد الكرة .. الا أن اباه يزجره بصوت مجهد :

ـ ملعون !.. دعك من احتطاب الاحجار وواصل عملك ..

جميلة أمامه تضرب الارض بفأسها وقد أحنت بقامتها اسفلا.. والثوب انحسر عن ساقيها المتربتين وخيط دم داكن تلوى على أحدى ساقيها ، ومن الامام يصله لهاث الام ودقات فأسها على التراب الصلب ، وحميد يدب قريبا منها متشكيا بصوت خافت من أنه جائع .. وعندما لم يأل جهده لنتيجة ، افترش كومة العشب وسرعان ما غط في النوم .. والجدول يمتد ومن ثم يتدفق الماء ببطء في البداية ، حتى اذا ما تشبعت الارض به جرى بسرعة .. ومن الطرف الاخر يتسرب الماء ليتوغل في أرض حرثت قديما فامتلأت بالاخاديد .. وينتظرون الى أن يطفح الماء على حافتي الجدول .. شمس الظهيرة تتعامد فوق رؤوسهم لاسعة مؤخرة رقابهم ومنحدرة الى الاسفل لتحدد على الارض ، بين اقدامهم المتربة .. ظلالهم الاربعة التي بدت وكأنها انكمشت على نفسها لشدة القيظ . ومثلما يتنكب الجندي سلاحه قذف الاب بمسحاته على كتفه وهتف بهم :

ـ هيا .. لنتغدَ الان ومن ثم نحرق الدغل !..

وكان لكلمة « تتغدى » وقعها السحري فقد دبت وشوشة مكتومة في كومة العشب التي تمدد حميد فوقها ، ولم تغفل أذنا الاب عن تلك الوشوشة فناداه بصوت مرح :

ـ هيا أيها البكّاء لقد ازف موعد الاكل !..

ودبت الحياة في الدغل ايضا ، فقد بدأت سيقان القصب والحلفاء تتراقص ، فاستداروا برؤوسهم .. فاذا بالدغل ينشق عن كلبهم « كافور » وكانوا قد نسوا وجوده منذ الصباح . نظر الكلب اليهم بوقار ـ بدا مناسبا لحجمه الضخم ـ واقترب منهم متشمما الهواء ، ولكن سرعان ما تجاهلهم واندلق لسانه الوردي خارج فكه الرطب وبدأ يهتز مثل بندول الساعة .

قدح الشاي الساخن خير ما يعقب وجبة غذاء جعلت الخدر يسري في الجسد الذي أجهده العمل الشاق . ولا أروع من تدخين سيكارة فيما بعد : حيث الورقة تستقر بين السبابة والابهام ، وبأطراف اصابع اليد الثانية يؤخذ قليل من التبغ الاشقر ذي الرائحة الحادة النفاذة ، يوضع داخل تقعيرة الورقة ، بطرف اللسان الوردي الرطب الذي لا يزال محتفظا بنكهة الطعام ، تبلل حافة الورقة ، وبحركة سريعة ومتقنة من السبابة والابهام تنطبق حافتا الورقة . تغرس بين الشفتين ، وقطع الحطب الملتهبة الاطراف كثيرة في الموقد .. السيكارة توقد والرئتان المجهدتان تمتلئان بكمية كبيرة من الدخان . لحظات .. ويتدفق الدخان من المنخرين والفم ..

عندها يكون كل شيء في موضعه الصحيح : ظل شجرة السدر الطري رغم حرارة الظهيرة ، والدغل الممتد امامهم حيث البيت المنتظر سيرتفع في أحد قسميه قريبا فيصبح مستقرهم آمنا والى الابد ، والزوجة المجدّة التي تشاركه في تحمل أعباء العمل ، والاطفال الرائعون المتحلقون حوله وأعينهم البراقة تنطق بالدهاء والبراءة معا . هكذا هجس حازم بما يدور في ذهن ابيه وهو يتنقل عبر وجوههم الصغيرة بعينين ثاقبتين هبط حاجباهما ساتجاههما بسبب وهج الظهيرة . وها هو الاب ينظر باتجاهه ، وبعينين وهميتين استعارتهما الذاكرة ، حدّق حازم بوجهه هو : فطالعته عيناه الضيقتان المرتكنتان تحت جبهة عريضة ، وطالعه أنفه الكبير ، المشابه لانف الام ، والمتدلي بين شفتيه المكتنزتين المشابهتين لشفتي الاب .. حسناً انه وجه يبعث على الرضى بكل تأكيد !.. وبعيني الاب أنتقل حازم الى وجه حميد فطالعه الخدان المتدليان وارنبة الانف الصاعدة الى السماء وشفتان لم تغسلا جيدا فها هي بقعة دهنية صفراء تمتد عبر زاويتيهما . وانتقل الى وجه جميلة الذي تكاد العينان الواسعتان ان تقاسما نصفه .. اذن كل شيء في موضعه الصحيح . ولكن لا فها هو الاب يتساءل بعدما انتبه الى هذه النظرة الملحة والمرتسمة في اعينهم الست :

– حسنا يا أولاد ! .. أرى انكم تبيّتون امرا !!

هيا أوضحوا ..

وانبرى حميد صارخا بعدما نفد صبره !

ـ نسبح !•• نريد ان نسبح في النهر !•••

الام لم تعترض وكذلك الاب ، ولكنه أبدى تحفظه في أن تشاركهما جميلة في السباحة ، قال :

ـ وان تكن صبيّة في عامها التاسع ولكنني لا أرغب في أن اراها وهي تسبح عارية !••

كحل وسط تقرر ان تسبح جميلة دون ان تنزع ثوبها الاصفر ••

كان حازم أول من نضا الثوب عن جسده ، وارتقى حافة النهر المثقلة بسيقان قصب وحلفاء تخللتها شجيرات صفصاف قميئة ، بدت بلونها الاخضر المزرق ، أشبه بلطخ تتنافر مع ذلك النسيج النباتي الذهبي اللون الممتد مع امتداد حافتي النهر المتعرجتين ، وكان الماء في الأسفل يجري سريعا وأشنات خضراء تتماوج على السطح الازرق القريب من الحافة ، وأشعة الشمس تتفتت الى شرائح زجاجية تتلامع عبر طيات التيار الحاد •

احتوت جسده برودة الماء الجاري وأحس بالقاع لزجاً في الاسفل • عندما غمر حازم رأسه تحت الماء طفق التيار يجرفه سفلا •• وبنترة سريعة أخرج رأسه نافضاً الماء من شعره • وتمسك بكثة من الحشائش المتدلية • كان حازم هناك في الاسفل محاطا بحافتي النهر •• وعاليا بدت قبة السماء الزرقاء بعيدة بعدا سحيقا ، وللمرة الثانية لمح سرب طيور

تهاجر جنوباً فارتسم امام عينيه المخضلتين بالماء وجه ابيه وامه وفكـــر :

ـ « ولكن لا !•• تلك هي أرضنا •• وايام معدودة ويرتفع فوقها منزلنا الذي سنشيده بأيدينا •• وتلك •• تلك مجرد طيور مهاجرة ! •• »

وعادت كلمات ابيه عن الارض والعمل والانسان توشوش اذنيه المزغبتين •• ولكن قهقهات جميلة وصرخات حميد سرعـــان ما قطعت عليه تأملاته ، وعندما اشرأب بعنقه فوق كتف النهر ، أغرق في ضحكة مجلجلة ، جعلت شتائم ولعنات حميد ترتفع الى عنان السماء ، وكان حميد عاريا كما ولدته أمه فبدا ببطنه الناتيء واليتيه المسطوطتين أشبه بكتلة شوهاء لا تحتاج الا لضربة خفيفة لتتدحرج اسفلا باتجاه الدغل • وجميلة التي تنفجر في الضحك لاتفه سبب ، لم تستطع كبح جماح ضحكتها الصاخبة وهي ترى امامها تلـك الكتلة الزاعقة تكاد ان تنفجر غيظاً تحت وهج شمس الظهـيرة ، وجاءت ضحكة حازم لتزيد من الطين بلّة مما أسقط في يده ولم يجد حميد بدأ من أن يجابههما بطريقة عملية ، وهكذا ترك الحياء جانباً واستقام بجسده ـ وكان قد تكوَّر على نفسه ساترا وسطه من نظرات جميلة الوقحة وتعليقاتها البذيئة ـ ودفع بوسطه الى الامام منذرا اياهما بانه « سيبول ! » عليهما ان لم يدعاه وشأنه ، ورضخا لتهديده ، ولكنهما لم يستطعا كتم الضحكات الكظيمة التي كانت تنتابهما بين لحظة وأخرى •• وببطء وحذر انحدر حميد نحو الماء •• ولكن القاع العميق سرعان ما جذبه ، ومثل حجر ثقيل يهوي

من علو شاهق ، غاص في لجة التيار وبصعوبة استطاع اخراج رأسه فوق الماء .. الا انه لم يستطع منع فمه أن يشرق بالماء المحبتس في حلقه ، مما جعل عدوّيه اللدودين ينفجران في الضحك للمرة الثانية، وحالما تنشّق الهواء قذف في وجهيهما بشتائمه التقليدية التي تردد صداها بين حافتي النهر وفوق التيار الحاد .

جميلة انحدرت نحو النهر أيضا .. الثوب الاصفر القديم المضمّخ بالعرق والغبار تشرب بالماء فالتصق بالجسد النحيل الناتيء .. ها هي وقد انتصبت امامه حيث التيار ينحدر باتجاهه حاملا لعريه رائحة جسدها ... انها تقف منفرجة الساقين والماء يبقبق حولها بصخب ويتشرب القماش الاصفر بالماء فيدكن لونه ويلتصق باللحم الساخن وتتوضح معالم البطن المستديرة ويبرز الفراغ الدائري عند السّرة تحت الثوب . ومن الخلف تنطلق صرخات حميد الزاعقة .. انه يصرخ ويتشبث باغصان الصفصاف المتدلية . ويصرخ كرة أخرى مدعيا بان السمك يقضم اصابعه ، وجميلة تنبري له هاتفة من خلال ضحكتها المهشمة :

ـ أخشى أن يقضم السمك أشياء أخرى من جسدك !..

انها تغوص والماء يصل الآن الى الكتفين وقد استندت على راحتيها في القاع اللزج . وتبرز رمانتا كتفيها ويتوتر عظما الترقوة تحت الجلد الاسمر المبتل الظاهر من خلال فتحة الثوب العريضة. تقذف برأسها الى الخلف وتمنح وجهها للسماء ومؤخرة الرأس تغوص ... حازم يلمح اسفل الذقن والمنخرين المعتمين ..

لحظات ويختفي الوجه •• تاركاً فوق سطح الماء دوّامة صغيرة سرعان ماتتمزق عندما يبرز الانف فالذقن فالوجه بأجمعه •• الشعر تراجع الى الخلف والتصق بالجبين والصدغين وانحدر مع انحدار الرقبة •• انه صقيل وكأن جنيـــات الماء الخفيات قد مشطنه بامشاطهن السرية :

ـ انظر !•• ان شعري صقيل كشعر عروسة !••

وينبري حميد صارخاً :

ـ عروسة !•• عروسة !•• سأخبر أبي !••

الماء ينفلت من أسر النهر والكرات البلورية تتوهج في ضــوء الشمس لترتد للاسفل •• ويسمع صوت تقصف اغصان يابسة •• فيتوقف الصبية الثلاثة عن الصخب وتجتذب السماء الزرقاء انتباههم •• دخان كثيف يزحف جنوباً •• حازم يهتف :

ـ انها النار •• اضرم أبي النار في الدغل !••

جميلة تنفلت أولا ، تنشقّ سيقان القصب والحلفاء عن قامتها المشربة بالماء لتنحدر للاسفل ، الثوب الملتصق بجسدها يرسل حفيفاً حادا وحافة النهر تتبلل وخيط ماء متعرج يتبع خط سير جميلة راسما على التراب أثرا رطبا يتصاعد منه البخار •

النار تقعقع زافرة بضراوة خلال اشجار الدغل • الام والاب يقفان في طرفي الممر المائي وبيد كل منهما جريد أخضر • ودون ان يغفل الاب مراقبة النار المستعرة ، يهتف بحازم بصوت منفعل :

ـ هيا يا حازم تحوّل الى الجهة الثانية وشارك أمك في مراقبة النار !•• وانت يا جميلة تعالي هنا •• حسنا •• خذي هذا الجريد ، وحالما يتلقف أيما غصن من القسم الاخر النار اضربيه بالجريد فتخمد النار ! •• وانت يا حميد أبتعد !•• فقط أريدك أن تبتعد عن النار !••

النيران تجأر وهي تسري عبر الهشيم سريان الريح في صحراء مفتوحة • الهواء يتخلخل وسحب الدخان البيضاء المزرقة تتصاعد على هيأة كتل منفوشة سرعان ما تفقد تماسكها كلما أمعنت في الصعود عاليا • و « كافور » يقف مبهوراً واللهب المتراقص يلتمع في عينيه المشدوهتين ولكنه سرعان ما يقفز خلف كتلة بيضاء تنفلت من بين الدغل الملتهب • يصرخ فيه حازم :

ـ أرنب !•• هيا صده يا كافور !••

ويرجع الكلب والخيبة تثقل عينيه ، النار تزحف بسرعة لا تصدق وكأنها تنبع من جسد الدغل • دقائق وتكتمل حلقة النار !•• انها تحيط بالدغل احاطة السوار بالمعصم •• كتلة متماسكة بألف لسان تندلع هنا وهناك وكثافة الدخان تقل مفتقدة تماسكها السابق والنار تتراجع بهدوء ويفتقد اللهب البرتقالي حدته والشمس تغطس خلف قوس النخيل المعتم ، وهياكل الاشجار المتفحمة تنتصب وسط الرماد الملتهب الاحشاء ليتساقط بعضهما بخنوع ، وليصمد البعض الاخر بكل تحد •• الشمس تغيب تماما ولا يتبقى منها سوى لطخة برتقالية تنتصب كخلفية مناسبة لغابات النخيل المدلهمة • العتمة تزحف من جهة الشرق والسماء تهبط نحو الارض

وتبقى الوجوه الخمسة تتوهج على لهب النار الخامدة : وجه الاب الذي ضاعف الاجهاد من حدة ملامحه ، ووجه الام الرمادي الممطوط والمحاط بالفوطة السوداء ووجهه هو « حازم » الذي لا يعلم على أية هيأة يتبدى في عيني جميلة الناظرتين اليه وقد تشربت وجنتاها باحمرار خفيف • ووجه حميد الصغير ولهب النار يتلامع على خديه المستديرين وعلى أرنبة انفه الصاعد نحو سماء خلت من أسراب طيور مهاجرة •

••• وفي الخارج ، خلف مستطيل النافذة ، كانت السماء زرقاء مبقعة بندف سحب منخفضة لم يستطع أن يتأكد من مدى انحدارها نحو الارض بسبب اضطجاعه على السرير وارتفاع الحافة السفلية للنافذة عن مستوى رأسه ، ولكنه هجس بأن تلك السحب لا تزال تغطي مساحة واسعة من السماء ، فالشمس ان سكبت بالنزر اليسير من شعاعها للحظات ، عادت لتحتجب من جديد • وكانت العصافير قد صعدت من حمى اعتراكها بين قمم الاشجار المتمايلة بانسياب •• وعصافير أخرى مستوحشة هزمت في معركتها بين الاشجار ، تنفلت بقفزة واحدة وباجنحة مفتوحة لا تطرف لتحط على قضبان النافذة وتتشبث هناك دون ان تلمح ذلك الجسد المضطجع في عتمة الغرفة ، وحازم يحتبس انفاسه في صدره رغم تأكده من عدم احساس العصافير بوجوده على الاطلاق •• العصافير المذعورة تفغر مناقيرها القصيرة الوردية بانشداه ، والسنتها الدقيقة تهتز بعصبية والزغب البني يخفق تحت حناجرها ، وأجفانها البرتقالية الشفافة تنسدل وترتفع بسرعة خاطفة • تستدير العصافير برؤوسها

هنا وهناك لترسل ، بين لحظة وأخرى ، زقزقة ثاقبة فشل زجاج النافذة في خنقها ، ومن ثم تتنصت بانتباه وكأنها تنتظر ان تنطلق زقزقة مماثلة من بين الاشجار التي طردت منها •

ان اغلب العصافير المهزومة من الذكور ذوي الظهور البنيّة الغامقة المرقطة ولابد انها افتقدت اناثها في ذلك الصراع المحتدم بين الاغصان ، فها هي تتنادى عليها دون ان تحظى بجواب ولكنها لن تيأس •• وسرعان ما تنخطف فجأة بقفزة واحدة وجناحين مفتوحين فتبتلعها خضرة الاشجار وترتفع الضجة اكثر •

حازم يعود بعينيه الى الداخل متلمسا بكفه السطح الخشن للجدار البارد •• انه الجدار نفسه الذي استنزف جهودهم طوال ذينك الشهرين البعيدين حتى كاد التعب يتسرب الى لب عظامهم •• ولكنه كان تعبا رائعا لا يقارن على الاطلاق بما يشعر به الان وهو منغمر تحت سيل الهواء الراكد في قاع هذه الغرفة • لشدّ ما يرغب في أن يدفع بجسده عاليا لتطول يده ضلفة النافذة فيشرعها ويغترف الهواء النقي الرطب بملء فمه ومنخريه الواسعين ، ولكن الحمى اللعينة والتبلد الذي يعقب الاستيقاظ من نوم محموم وصعوبة دفع جسده عاليا ، كل تلك الاسباب مجتمعة اجبرته على الاستغراق في خدر اضطجاعه من جديد •

هكذا يظل يجابه ، من على سريره ، وحش الزمن الخرافي • الثواني تنطفيء وكذلك الدقائق والساعات •• والايام تمر ! ولكن قد تستحيل دقائق الزمن الآخر ـ الزمن الذي في الرأس ـ الى سنين مديدة لن تتمكن الساعات النابضة

بغباء وآلية من استيعابها !•• ورغم ذلك يظل الزمن الحاضر البوابة المؤدية الى الزمن الاخر والمطلة على الزمن القادم !•• ووجد سؤالا مفاجئا يومض في ذهنه •

ـ « كم تكون الساعة الآن ؟! »

لولا الغيوم لاستطاع الاستدلال على الوقت عن طريق اشعة الشمس الساقطة عبر النافذة على الجدار المقابل : فهناك على زجاجة الصورة المعلقة ، تنعكس البقعة الضوئية ، وعندما يكون الوقت بين الثامنة والتاسعة فان تلك البقعة تنعكس قريبة من الزاوية العلوية المجانبة للجدار الايسر ، وكلما انصرم الوقت وارتفع قرص الشمس هبطت البقعة عبر زجاجة الصورة الى أن تغادرها نهائيا بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف حيث الشمس تكون قد تعامدت على الارض • هناك في القرية القديمة ـ التي لم يبق منها سوى بقايا جدران بعدما هجرها الفلاحون وماتت « زهرة » المعتوهة ـ هناك كانت امه تستدل على الوقت بالطريقة نفسها •

••• كانت الكوة القريبة من أرض الحجرة الضيقة المسقوفة بأعواد القصب ، تنفتح نحو الشرق • وحالما تطل الشمس برأسها الذهبي من خلف التلال المضببة لينصب شعاعها عبر ارض السهب الداخنة محددا على الارض ظلال الاشياء التي تعترض سبيله ، كانت بقعة ضوء ترتسم على الجدار المقابل للكوة وكأنها شمس صغيرة اقتنصتها عتمة الحجرة • وكانت تلك البقعة المتوهجة تهبط ببطء مع ارتفاع قرص الشمس فتندلق على سترة داكنة اللون معلقة

باستمرار على الحائط ، مخددة الطيات المستقيمة للسترة التي كان لونها الداكن يمتص سطوع البقعة المضيئة فيعتكر توهج جوف الحجرة لبعض الوقت ، الا أن الازرار الدائرية العريضة كانت تلتمع تحت حدّة الضوء المنسكب فيشع الوهج على هيأة دوائر ملونة اشبه بأقواس قزح تحيط بتلك الازرار . والبقعة الضوئية سرعان ما تنحدر أكثر مخلفة السترة لتبتلعها العتمة من جديد ، والوهج ينسكب على الحائط الطيني العاري بحدّة فتتوضح الشقوق المتعرجة المنتشرة فوقه وتلتمع تنف القش الملتصقة بلحمة الجدار الذي كان حازم يكتشف فيه القواقع ووسائد الثعابين ، واشعة الشمس تمعن في كشفها لخفايا الجدار مظهرة قطع زجاج ملون ، بل انها كشفت لعيني حازم ، في أحدى المرات قطعة نقدية ، بادر الى انتزاعها ، وبعد محاولات شتى عن طريق الملح والحوامض تمكن من انتزاع طبقة الصدأ عن تلك القطعة النقدية ، ففوجيء بأن النقوش والكتابات المنتشرة على وجهيها تخالف نقوش وكتابات النقود المتداولة التي تحمل على احد وجهيها صورة « الملك » وعلى الوجه الآخر قيمة القطعة النقدية . على كل حال مما لاشك فيه أن تلك القطعة النقدية هي قطعة نقدية فعلا وتلك مسألة لايختلف فيها انسان، أما لماذا تختلف عن النقود المتداولة ؟ فهذا لم يكتشفه الا في المدرسة حيث ان تلك القطعة المنبوذة كادت توقعه في مشكلة كان في غنى عنها ، فقد اشترى من بائع الباقلاء ـ الذي هو فرّاش المدرسة في الوقت نفسه ـ صحن باقلاء ودفع له تلك القطعة مؤملا نفسه ان يمنحه الباقي ، وكادت ان تنسلّ داخل كيس نقوده ، لولا انه

انتبه اليها في اللحظة الاخيرة ، ودون ان يضيّع وقته أطبق براحة يده عليها واطبق باليد الاخرى على كتف حازم ساحبا اياه نحو غرفة « المدير » . وهناك وبعد محاضرة مطولة عن « جريمة ! » غش الآخرين اكتشف حازم بدهشة ، حسبها المدير دهشة مصطنعة ، بأن تلك القطعة هي من النقود « التركية » الملغاة ولولا صغر سنه لعوقب بشدة ...

وكانت البقعة الضوئية تواصل انحدارها مع ارتفاع الشمس لتزحف على أرضية الحجرة وقد ازدادت استطالة ، وتنساب على حصير عمل من جريد النخيل ، ومن ثم ترتقي سجادة بهتت ألوانها ، وتقترب بالتدريج من فوهة الكوة التي تنبثق منها الى الداخل ، وتتحول الى نصف دائرة ، والنصف الاخر يندلق على حافة الكوة نفسها ، الى ان تذوب بالتدريج وتختزل على هيأة شريحة مقوسة تنسكب على الارض قرب الكوّة ، من ثم تختفي مخلفة وراءها ضوءاً هلاميا لا تحده حدود واضحة .. عندها يكون جوف الغرفة مضاء بدرجة شديدة ، فشمس الظهيرة قد تعامدت على الارض ، والكوة تتلقف انعكاس الضوء المتوهج .

الساعات تمر والشمس تنحدر الى الجهة الثانية للقرية لتتلقفها غابات النخيل الملفعة بالضباب ، والضوء يعتكر عبر الكوة المطلة على سماء تكاثفت زرقتها ، والشمس تغيب تماما والاشياء تفتقد تماسكها السابق . الليل يدلهم وحازم ، وهو متمدد على فراشه مع الاخرين ، يستطيع أن يهجس موضع الكوة بما يلمح من عناقيد نجوم متناثرة في السماء السوداء ..

فجر كل يوم تكون الام أول من تصحو ، ومن خلال الكوة تشف السماء وتكتسي بلون رمادي عميق تنبض فيه نجوم متفرقة سرعان ما تنطفيء واحدة عقب اخرى . الام تنسل من تحت الفراش الدافيء وحازم يحس بجنبه الملاصق لها وقد ابترد . في جوف الكوخ تستعر النار في الموقد وامامها يتربع الأب متنحنحا باحتراس وهو ينظف حنجرته . نادرا ما ينام الاب معهم في الكوخ فأعمال الحقل وحراسته تستدعي منه أن يكون قريبا منه ، فينام هناك في جوف كوخ مخروطي صغير عمله من السعف والقش ، له باب من الصفيح يصر ويقعقع كلما هبت الريح . أول ما يبادر الاب الى عمله بعد استيقاظه هو لف سيجارة يوقدها من النار التي يصطلي على لهبها ، وحازم يسمع رشفاته الصاخبة من قدح شايه ، تلك الرشفات المصحوبة بضبابة دخان تنبثق من فمه ومنخريه المشعرين ، تتلوى صاعدة لتمتزج عند السقف الاسود بدخان الموقد .

في الصيف ينام حازم مع ابيه وحميد في الفسحة الممتدة امام باب الكوخ والمحصورة بين الدكة الطينية ، التي على يسار الباب ، والدكة المواجهة لها ، والتي تنتصب قربها شجرة توت ، خلفها ينحدر سفح الاكمة بتقوس بطيء ليلتقي بارض السهل الممهدة على مدى البصر والتي لا يعكر انسيابها سوى خط التلال الجنوبية الرمادية اللون . وجميلة تنام مع عمتها في جوف الكوخ صيفا وشتاءا .

ان حازم يضطجع عادة تحت شجرة التوت ولن يرضى عن موضعه ذاك بديلا . ولو سئل عن سبب تشبثه بذلك الموضع ، لما

استطاع ايجاد الجواب المناسب . قد يقول بأن تفضيله لذلك الموضع يعود الى الشجرة . ولو قيل له : وما الذى تعنيه شجرة ينام المرء تحتها ؟! اعط للمرء فراشا وثيرا ولينم تحت شجرة أو صخرة ! فما الفرق ؟ فالنوم يظل واحدا في الحالتين ؟.. ولكن حازم لن ينام الا تحت شجرة التوت الاثيرة لديه ، فمذ تفتحت عيناه على الدنيا وجد الشجرة تقف بشموخ امام باب الكوخ . وعندما استقام بقامته الصغيرة واقفا على قدميه الطريتين لاول مرة ليستشرف آفاقا أبعد ، وجد الجذع المكين قريباً منه يستند اليه ، ومنذ ذلك الوقت ، كلما لفح الصيف الارض بلهيبه ، يفرش حازم ، فوق الاوراق الصفراء المتساقطة ، فراش نومه ووسادته المتخمة بالريش ، ويضطجع بهدوء متسمعا لاصوات الليل الغامضة ولصرير الجنادب وخفق الاجنحة المكتوم . وما أكثر الليالي التي غفا خلالها على هدهدة اصوات الرجال المتحلقين على الدكتين المقابلتين ، مستمعا لاحاديثهم الشجية عن الحروب التي خاضوا غمارها وعن جرائم الاقطاع والشيوخ . وما أكثر ما تناهت لاذنيه ، وهو بين اليقظة والنوم ، كلمات غامضة استغلقت على فهمه آنذاك كـ « الملك » و «الانكليز» و « الثورة » واستمع ايضا للحكايات التي تتحدث عن تاريخ العرب القدماء الحافل بالامجاد والبطولات ... و « فلسطين » كانت أيضا ضمن الابجدية التي لقن بها من تحت الشجرة .

مع انبلاج الغبش الرمادي وانفتاح السماء من جهة الشرق على أول خيط ضوء ، يستيقظ حازم وكأنه والشمس على موعد ، ولكنه يظل مضطجعا على فراشه وضجة العصافير المتخاصمة على

الشجرة تنصب في أذنيه • وبعينين مثقلتين بنعاس لا يرد يتطلع الى السقف الاخضر المرتفع فوق رأسه • غصن يعلو غصنا ، وورقة فوق أخرى تتشابك ببعضها مفتقدة الحدود الفاصلة بينها ، وفجوات دائرية تنفتح خلالها تطلّ منها سماء زرقاء لا تشوبها شائبة • والريح تنساب بهدوء فتتلاطم جزئيات السقف الاخضر، والفجوات الزرقاء تبادل مواقعها بانسياب ، فتبدو السماء كأنها تسيل لتتشرب الاوراق المستديرة ذات الحواف المتعرجة بدمها الازرق ، والسقف المرتج يرتفع ويعلو متلفعا بضبابة كثيفة ، وتغيم حدود الرؤية ، والسكون المطبق يكتنفه بالتدريج مثل شرنقة لدنة • ولكنه سكون لا يستمر طويلا ، فها هو شيء ما يدب قربه وصوت غامض يرتج في تجويف أذنيه ، وها هي دفقة الم مفاجئة تلسع جلدة رأسه •• والشرنقة المطبقة على جسده تختض وتختض ، فيفتح عينيه بارتعاب ودهشة ، وسحب الضباب تتبدد •• ها هي الغصون المورقة للشجرة تعتلي وجهه ، وبجانبه جميلة وقد غرست ركبتيها في جنبه حتى كادت أن تكتم انفاسه ، وهي تكركر بضحكتها المعهودة ساحبة اياه من شعره تارة ومن أنفه اخرى وهازة جسده في مرة ثالثة ، في النهاية يستيقظ على مضض وجميلة تنفلت لتتلقفها عتمة جوف الكوخ حيث انها تصبح بحماية عمتها ان حاول حازم ايذاءها بعدما نغصت عليه نومه• وكان خوار الابقار وثغاء الماعز والاغنام ونحنحة ابيه المعهودة ، وهو ينظف حنجرته ، وشخير حميد ، كانت تلك الاصوات المتنافرة مع بعضها سرعان ما تلغي النوم عن عينيه نهائيا ، فيحملق بانبهار الى الشجرة والسماء الزرقاء ، ومن ثم يستوي واقفا على قدميه ،

مستنشقا الهواء العذب ومستشرفا سنابل القمح المتمايلة بانسياب تحت شمس الصباح •

ولكنه تنازل عن مضجعه الاثير لـ « أكرم عبيد » المطارد من قبل رجال الشرطة ، والذي كان مجرد ذكر اسمه يجعل الدم ينحسر رعبا من وجه حميد ، فتسعفه الام بكوب ماء محلى بالسكر ليعود الى حالته الطبيعية !!••

لقد سبقت قدوم اكرم الى القرية حكايات كثيرة بولغ في العديد منها ، ولكنها كانت تتفق باجمعها بان اكرم عبيد أتى بعمل خارق ، وذلك بتحديه للسلطة والتجائه الى الاحراش •• وفي الحقيقة فانها لم تكن المرة الاولى التي تتخذ غابات النخيل ملجأ للهاربين ، فقد كانت الادغال والاحراش التي تكتنفها ، مكانا نموذجيا للهاربين من الخدمة العسكرية واللصوص المحترفين والمطالبين بالثأر ، أما أن يتحصن بها انسان تمرد على السلطة « الملكية » فذلك ما لم يحدث قبل اكرم عبيد !!

لم تكن تلك الحكايات جميعها من نسج الخيال ، فحازم واثق من أن ما ذكره ابوه عن أكرم صادق بدون شك ، لان الاب بحكم ما كان يقوم به من أعمال لقاء أجور معينة في تلك البساتين ، كالتكريب والتلقيح وتقليب الارض وتنظيف الانهار التي تطمس السيول المتعاقبة مجاريها بالدهلة والغرين ، لم يكن غريبا ان يصادف ويلتقي بأكرم عبيد بل انه زوده ـ خفية ـ بالتبغ والزاد وارغفة الخبز والتمر وما شاكل ذلك أكثر من مرة ! وعلى كل حال فقد بدت

تلك الحكايات في نظر حازم وكأنها تتحدث عن انسان اسطوري ، الى أن حلّت تلك الليلة التي لن تغيب عن ذهن حازم على الاطلاق.

كان الشتاء على وشك الانقضاء ، الا ان البرد لا يزال يلفحهم بسياطه ، فلم يكن غريبا على حازم أن يشعر بقشعريرة مفاجئة تهز جسده عندما صحا من نومه على ذلك اللغط الغريب .. ولكنه كان واثقا من أن تلك القشعريرة لم تكن بسبب البرد ، بل كانت بسبب ذلك الوضع الغامض الذي فاجأه واطار النعاس عن عينيه . عبر الظلام المخيم في جوف الكوخ ، سمع أمه تعد ، باحتراس وارتباك، فراشا في قعر الكوخ وسمع أباه ، الواقف أمام الباب المشرع على سماء داكنة تنبض في قاعها النجوم بصمت ووحشة ، سمعه وهو يلهث ، وتخيل حازم بأن حدبة غريبة نمت على ظهر أبيه . كانت حدبة كبيرة امتدت من رقبته الى ركبتيه . وعندما أمعن النظر ، بعدما تعودت عيناه على الظلام ، اكتشف بأن تلك الحدبة ليست سوى كتلة ضخمة تعتلي ظهر أبيه .

وسمعت خشخشة سعف وحطب أعقبهما صوت احتكاك عود ثقاب . على ضوء النار المستعرة في الموقد برز هيكل الاب المحنى وجثة رجل تعتلي ظهره وخلفهما امتد ظلهما المزدوج باتجاه الباب المشرع ليتوحد بالظلام المنداح في الخارج . برفق وحذر مدد الاب الجثة على الفراش ، وعندها فقط لاحظ حازم بأن بندقية الصيد كانت معلقة على كتف ابيه الذي اسقطها بحركة سريعة من على كتفه فاستقر حزامها في يده ، وعلقها على الحائط دون أن تفارق عيناه الجسد المسجى قرب النار .

بدا ذلك الجسد المستكين وكأنما قد أقحم على الكوخ المتآلف مع محتوياته البسيطة : حب الماء الراشح بانسياب في زاويتـــه القصية ، وكيس القمح وبجانبه خصاصيف التمر الموضوعة واحدة فوق الاخرى وعصارتها اللزجة قد لطخت الارض القريبة منها ، وكومة الحطب الموضوعة في احدى الزوايا ، ورأس غزال محنط بقرنين معقوفين معلق على الحائط والصور الدينية ذات الالوان الباهتة واشياء أخرى أضفى عليها الظلام مسحة غموض • كانت البندقية المعلقة على الحائط هي أقرب الاشياء انتماء الى ذلك الجسد • بل ان حازم شعر ، في لحظة انبهار مفاجيء ، بأن لهب النار المنداح عبر الجدران يوحد ذينك الكائنين المغلفين بالاسرار والغموض : أكرم عبيد الاسطورة التي لم يتصور حازم بأنها ستتجسد في يوم ما أمام عينيه بهيأة جسد مستكين ، والبندقية التي لم يرها الا وتذكر صوت الرصاص الاصم واصداؤه المدوية تتردد عبر غابات النخيـل للحظات مديدة •

سمع أمه وهي تتساءل بصوت راجف :

ـ مات ؟!

وكان الاب جاثيا قرب الجسد وقد وضع اذنه على الجهـــة اليسرى لصدره ، استدار بوجهه باتجاههما محدقا في عيني حـازم قبل أن يجيبها :

ـ « لا!•• لقد أصابته الرصاصة في الكتف ولو لم التق به مصادفة لنزف كل دمه ومات !•• »

واستدار بوجهه نحو الجسد المسجى على الفراش وقال :

ـ كان يئن تحت الدغل القريب من المطحنة القديمة ويداه قد تجمدتا على أخمص بندقيته « البرنو » التي أخفيتها في موضعها •• انه لرجل محظوظ لولا ذهابي هذه الليلة لصيد الخنازير التي عاثت في حقلي فسادا ، لمات في مكانه دون ان يحس به انسان !•• ناوليني يا أم حازم ملقطا وقماشا نظيفا •• اسمعي •• سـخني ماء •• وحاذري أن توقظي جميلة أو حميد !•• وانت يا حازم هيا تقدم وساعدني •• انظر ! •• انه صاحبنا اكرم عبيد •• لقد اصيـب برصاصة نسفت كتفه اليمنى !•• قد يكون هاشم ابو الخيل هو الذي اقتنصه ببندقيته التي لا تخطيء !•• اسمع سوف لن تخبر أي أمريء بمقدم ضيفنا صباح الغد ؟ اني اعتمد عليك يا بني ••!

وبحرص وحذر قلب الرجل الجريح على بطنه فانفلتت ، من فم اكرم عبيد ، أنّة خافتة كانت اشبه بأنين محتضر ، وكان الثوب عند الظهر متشربا بدم جعل القماش يتصلب بعدما جف •

ما انصرمت سوى أيام قليلة والقرية باجمعها عرفت بقصـة أكرم عبيد ، ولكنهم أحبوه وشعروا وكأنهم حماته بعد ما استنجد بهم فكتموا سره عن رجال شرطة السلطة • تطلب شفاء الجرح فترة طويلة قاربت الشهرين وكانت فترة كافية لان تربط أكرم عبيـد بصداقات وثيقة برجال وشباب القرية والقرى المجاورة ، وعـرف الجميع بأن عريف الشرطة « هاشم ابو الخيل » الذي أذاق القوى الوطنية المناهضة للسلطة الملكية الامرين ، هو الذي أصابه ، ولكنه

استطاع أن يتخلص منه بأعجوبة ليختفي تحت الادغال • ولكن سرعان ما القي القبض على اكرم عبيد ورجع حازم ليضطجع في موضعه الاثير تحت شجرة التوت، وكان الصيف قد انتصف • الا انه لم يعد يهنأ بموضعه ذاك ، فعلى الارض المغطاة بالاوراق المتساقطة كان يشعر بأثر ذلك الجسد الذي أقتيد الى السجون المظلمة • كان من الواضح بأن أكرم عبيد قد بذر في أعماقهم بذاره الذي سيينع في يوم ما • وكأنه مثل شجرة التوت ، ضرب بجذوره الراسخة في أرض القرية • وترسخت صورته في ذهن حازم كرمز للتحدي والثورة •• كما ترسخت لديه صورة « هاشم » ـ تلك الصورة الغامضة التي لم تتجسد بهيأة معينة لانه لم ير وجه هاشم في يوم ما ـ ترسخت في ذهنه كرمز للظلم والطغيان • ولكن الايام تمر والزمن كفيل ببرء الجروح التي لم تندمل ، وحازم ينام كل مساء تحت شجرته ليستيقظ مع انبلاج أول خيط ضوء كأنه والشمس على موعد ، وبعينين خدرهما الكرى يتطلع الى السقف المرتفع فوق وجهه ليغط في نومه من جديد • وكالعادة يصحو للمرة الثانية على كركرات جميلة الصاخبة وهي تشده من شعره تارة ومن انفه الكبير تارة اخرى الى ان يستوي جالسا والغضب يكاد يعصف به ، وكالعادة أيضا تنفلت جميلة نحو باب الكوخ حيث عمتها المتسلحة بمكنسة ذاق حازم ضرباتها الموجعة أكثر من مرة •

يقذف باب الكوخ ، الذي يتناهى من خلاله لاذنيه صخب أشياء معدنية تتصادم ببعضها ونقيق دجاجات مذعورة تحاصر في الداخل ، يقذفه بنظرة غاضبة ، غير ان نسيم الصباح العذب القادم

من جهة الشرق حيث الجبال الحجرية البعيدة ، سرعان ما يطفيء احتدام غضبه الطارىء ، وبنظرة تنطق بالتحدي والحزن في الوقت نفسه ينظر الى أرض الحقول الجرداء التي امتنع « الملاك » عن زراعتها ، ولكن حبات القمح المتخلفة من حصاد الموسم المنصرم لم تأبه باوامره فها هي وقد اينعت وتفجرت سنابلها الذهبية في بقع متناثرة هنا وهناك ، يرفع بعينيه نحو شجرته الراسخة ومن ثم يستدير متطلعا الى الشرق البعيد حيث الشمس الابدية تمور بلهيبها الوضاء . ويستدير بوجهه غربا فتنتصب امام عينيه اكواخ القرية المتراصة باستكانة واستسلام ، لقد فرغ العديد منها وهاجر الكثيرون وتوزعوا عبر المدن البعيدة ، ولم يبق الان سوى حفنة من الرجال والنساء والاطفال والبهائم ستهاجر بدورها ، وطالعت عينيه قامة « زهرة » وهي تتنقل بين باب كوخها الرمادي وقن دجاجها الذي كان من اللون نفسه ، فتذكر اخر تصريحاتها المثيرة التي فجرت عاصفة من الضحك عند البعض وفجرت الدموع في عيون البعض الاخر ، أجابت ، عندما سئلت عن جدوى اصرارها على لبخ جدران كوخها بالطين ، اجابت :

ـ حسناً .. ليتأكد رجال القرية بأنني اشك من انهم يملكون بين أفخاذهم ...

وبيدها الملطخة بالطين الاسود العفن قامت بحركة بذيئة وأكملت تصريحها الخطير :

ـ .. ولكنني أنا زهرة سأظل متشبثة بكوخي وقريتي وسأخصي أي رجل يحاول تهجيري !..

وينظر حازم الى الامام باتجاه باب كوخهم المشرع مستغربا لاستمرار تلك الضجة الصاخبة المتوزعة بين قعقعة أوان وأوعية معدنية ونقيق دجاجات مذعورة وكأنّ هناك من يحاول الامساك بها ، واصوات أخرى مجهولة المصدر ، ما الذي حدث ؟ هل انقلب جوف الكوخ رأسا على عقب ؟! ومن جانب الكوخ يطل عليه الاب ساحباً وراءه حبلا يطوّق رقبة بغلة بنية اللون عرف بأنها ترجع لاحد اصدقاء ابيه من فلاحي القرية ، وكانت البغلة تحرن وتشخر بانزعاج عاقفة خطمها المبتل الملطخ بنثار القش . وبصوته الرنان يهتف الأب به :

ـ ما هذا يا ابا الحوازم ؟!.. دع عنك الكسل وشد وسطك وتهيأ لنقل الاثاث على ظهر هذه البغلة المشاكسة الى بيتنا الجديد !

ـ « بيتنا الجديد ؟! » اللعنة ! .. كاد ينسى بأنهم قد انتهوا من بناء البيت قبل ثلاثة أيام . ولم يبق الان سوى عمل قليل مثل لبخ بعض الجدران وتثبيت الشبابيك الخشبية والابواب للغرف الاربع ، اضافة الى عمل باب من الصفيح للغرفة الصغيرة المنزوية في الطرف الخلفي للمنزل والتي ستكون بمثابة حجرة المؤونة والمخزن للبيت !.. نعم كاد حازم ينسى رغم أن راحتيه لا تزالان متقرحتين والجلد قد انسلخ في مواضع عديدة منهما !.. والحقيقة انه لولا سهره مساء البارحة لما بعد منتصف الليل لاستيقظ صباح اليوم في وقت مبكر دون أن يغيب عن ذهنه ما ينتظره من عمل كثير خلال هذا اليوم الذي سيخلد في الذاكرة الى الابد !..

ولكن ما العمل والحكايات والاحاديث التي تبادلها الرجال مساء البارحة هشت طائر النعاس عن عينيه ؟!

على الدكتين المواجهتين لبعضهما تحلق الرجال عقب صلاة العشاء • انهم الحفنة الاخيرة ممن تبقوا في القرية مؤقتا بسبب ضيق ذات اليد أو لاسباب أخرى قد لا تكون مبررة أمام السبب الحقيقي الذي جعلهم يؤجلون هجرتهم ولو لبعض الوقت ، الا وهو التشبث بالارض التي منها نما لحم اكتافهم وعليها سفحوا عرق جهدهم وتعبهم • ولكن الرجال يبقون رجالا ، فها هم يضحكون ويصخبون مرتشفين بتلذذ اقداح الشاي الاسود ومدخنين السكائر بنهم لا يوصف وكأن الهموم لم تطرق ابواب اكواخهم المشرعة أمام الريح والمطر والموت ، في يوم ما !•• لهم الحق ، كل الحق في ذلك ـ فكر حازم ـ فالحزن لا يغير من حقيقة ما ينتظرهم سوى أن يزيدها قتامة وجهامة ، وعلى كل حال سيبقى الامل شجرة راسخة الجذور طالما بقيت القلوب نابضة في الصدور القوية التي تسع أشياء كثيرة قد لا تكون الهموم سوى بعضها ! ••

على الارض ، بين الدكتين ، فرشت حصيرة مثلمة الاطراف تربعت فوقها « زهرة » المعتوهة وقد صالبت ساقيها المستديرتين كالقصبة ، ولفت زنديها ـ اللذين طوقت معصم احدهما خرقة خضراء جاءت بها من قماش البيرق المنصوب في ضريح « عبدالله الصالح » تيمنا ببركته التي قد تشفيها من داء (الشقيقة) الذي يكاد يفلق رأسها من حين لآخر ـ لفت ساعديها حول ركبتيها الناتئتين وسيكارة لف نصف محترقة تتدلى من طرف فمها الرمادي •

ان زهرة تبدو وكأنها ندّ لكل هؤلاء الرجال تحدثهم بافتخار - رجولي ! - عن ايام صباها وعن الشباب الذين اوقعتهم - لسوء حظهم - في شباكها ، والرجال يكركرون بضحكات صاخبة تجعل مآقيهم تخضلّ بالدموع .

امتدت الاحاديث لساعة متأخرة من الليل حتى انه اصبح بامكان حازم رؤية (درب التبان) بوضوح عبر صفحة السماء المثقلة بملايين النجوم ، والى الشمال ، فوق سقف حظيرة الغنم الخاوية لاحظ حازم (بنات نعش) واختهم العرجاء تدبّ في المؤخرة لتلحق بأخواتها الست ، بل أن احد الديكة صدح بصياح ثاقب متوهماً بأن الفجر آذن بالانتشار . وكانت الام تعد الشاي في الداخل وجميلة تحمل الصينية التي توزعت الاقداح المدخنة بالبخار فيها بانتظام ، وعند باب الكوخ يستلم حازم صينية الشاي قاذفا ابنة عمه بنظرة جانبية مرحة ومن ثم يستدير عبر حلقة الرجال مطوفا بالصينية امام وجوههم بانسياب ، بادئا بكبار السن فالاصغر ، والقدح الأخير يكون من نصيب « زهرة » التي تسارع بصب السائل الاسود في حلقها دون أن تذيب السكر فيه مؤكدة أن مخدومها ، الذي كانت تعمل لديه لقاء لقمة الزاد ، كان يشرب الشاي بتلك الطريقة ، ولكنها سرعان ما تعقب طريقة مخدومها السابق بطريقتها الخاصة ، فتتناول بالملعقة السكر المتبقي في قعر القدح متلمظة بشفتيها بانتشاء لا يوصف .

الاحاديث تتشعب وحازم يقبع قرب شجرته متكئا بظهره الى جذعها وخدر النعاس يسري في جفنيه الساخنين والكلمات تخفت

بانسياب موشوشة أذنيه المزغبتين وكأنها صدى انحدار السيل عبر حافتي الوادي الممتد شمالي القرية بمسافة بعيدة ، ها هو حازم يرى نفسه معلقا على ذروة عالية ملفعة بضباب ازرق لا يبان من خلاله سوى مياه مزبدة ومتلامعة بغموض تحت ضوء شمس بـــاردة لا تراها العين ، وهدير السيل يأتيه من الاسفل والخلف •• انـــه هدير أصم لا يُردّ ، وفجأة يشعر بنفسه وهو يسقط من حالق فيفتح عينيه على مرأى الرجال المتحلقين على الدكتين ، وهم يواصلون احاديثهم • ويكون حازم قد مال وسقط جانبا بعيدا عن جذع الشجرة ولكن حافة الدكة تسنده من السقوط على الارض • السيل يواصل هديره الاصم من جديد ، ومن خلال الضباب الذي يكتنفه ، وهو محاط بسيل مزبد لا يرى بوضوح ، يسمع نداء غامضا يأتيه من كل مكان عبر الضباب والمياه • وها هو ذلك النداء الغـامض يقترب ليتردد بوضوح فوق التيار الحاد •• انه اسم أكرم عبيد !•• ينطلق من حنجرة بشرية لتردد صخور الحافتين وغابات النخيل الســـوداء البليلة والسماء التي لا ترى ، اصداءه بهدير هائل •• اكرم عبيد •• اكر •• م •• عبـ •• يـ •• د•• والى الامام قريبا منه يرى الشيخ « راضي » وكسرته الانكليزية التي قتل بها ذلك الفلاح المسكين ، الذي كانت كل جريرته أن له زوجة جميلة ، كسرته تلك مستقرة بين يديه وفوهتها تستدير ببطء قاتل باتجاه مصدر انبثاق ذلك الاسم الذي لم يتجسد على هيأة معينة بل بقي مجرد اسم اكتنف السيل والضباب والاحجار والنخيل !•• وعلى صوت الرصاصة التي تنطلق يصحو حازم من حلمه ليكتشف بذهول ـ من خلال احاديـــث

الرجال ـ بأن ذلك الفلاح القتيل لم يكن سوى « عبيد الديوان » والد صاحبه القديم « **أكرم عبيد** » !٠٠

٠٠ نعم ٠٠ لولا سهرة البارحة لما بعد منتصف الليل لصحا باكـــرا ٠

استوى واقفا على قدميه ، بعدما لفّ فراشه وأمسك بـــه تحت ابطه ٠ ولج باب الكوخ فطالعته صرر الثياب والسلال المتخمة بأشياء عديدة ، والصناديق الخشبية والسجاجيد القديمة الملتفة على بعضها ، وأشياء أخرى لا تعد ولا تحصى !٠٠ الى اليسار طالعـــه القفص الكبير وكان غاصا بدجاجات فزعات والديك الكبـــير ذو العرف المتدلي ينقر بغضب رؤوس أقرب الدجاجات اليه وكأنهـن المسؤولات عن حبسه في ذلك القفص الكريه ٠ والى امام في قعر الكوخ كان « كافور » متمددا على الارض الرطبة التي رفع عنهـا حبّ الماء ، وكأنه أدرك بغريزته الحيوانية التي لا تخطىء بأنـــه يحق له التمدد ـ في آخر يوم يغادرون به الكوخ ـ أنى يشاء !

بعدما تناول حازم افطاره بسرعة خاطفة ، دفع بالبغلة المحملة بالامتعة أمامه سابقا الاخرين ، وتهادت البغلة نحو أرض السهل الأجرد المتعطش للزرع والماء ٠٠ ان وجهة حازم هي الشمال حيث الطريق الضيق المتعرج المنساب عبر الارض الجرداء وعبر الحقول المثقلة بسنابل القمح الذهبية وعبر القرى سرعان ما سينتهي أمام منزلهم الجديد ٠

مـــدت البغلـــة بخطمها الدافيء المبتــــل الى الجانـــب

قاضمة حفنة سنابل نبتت في البقع التي كومت عليها البيادر في الموسم المنصرم ، فعالجها حازم بضربة خاطفة من عصاه جعلتها تضاعف سرعتها والاواني المعدنية الموضوعة بين الامتعة بدأت تقعقع بصخب، وجاءه صوت جميلة من الخلف ، انها تناديه باسمه، فأدار بوجهه نحو القرية مثبتا الطرف المتآكل المترب لعصاه التي رأسها على هيأة رأس ثعبان ، فوق اصابع قدميه المحشوتين في خف جلدي قديم . كانت جميلة بثوبها الاحمر المزهر تنحدر عبر سفح الاكمة نحو أرض السهل، وصرة كبيرة استقرت فوق رأسها ويداها ، المثقلتان بمعاضد زجاجية ومعدنية رخيصة تلامعت تحت شعاع شمس الصباح ، ممسكتان بالصّرة من طرفيها . وبعينين لا تطرفان شمل حازم القرية الممتدة فوق حدبة الاكمة ، بنظرة تأمل طويلة .. الى الشرق ، فوق سقف كوخهم وسقف الحظيرة المحدبين ، بدت قمة شجرة التوت الخضراء تتمايل بانسياب مع هبوب الرياح الشرقية الجافة . كانت الشجرة تومىء الى الغرب الى حيث تنحدر الشمس كل يوم وتتصاعد أرواح البشر كل لحظة .. بدت وكأنها تومىء لحازم بتحية الوداع الاخيرة ، ولاول مرة شعر بحزن ساحق يكتنفه على حين غرّة هاصرا أحشاءه ، صاعدا عبر جسده ليغص به حلقه مثل حسرة طال احتباسها في الصدر ، ولاول مرة فاجأ نفسه وهو يتساءل بدهشة : كيف نبتت شجرة التوت تلك على حدبة أكمة لا يصلها الماء ؟!.. أية ريح حملت بذرتها ؟! وأية أمطار سقتها ؟ واية شمس حبتها بدفئها ؟! وبصوت متهدج غلبه الانفعال وجد نفسه يهتف ، وسط استغراب جميلة التي حاذته :

ـ اصمدي .. اصمدي .. للريح والمطـــر والشمس !.. واصمدي لوحشة الهجر والنسيان .. ووداعا يا شجرة طفولتـــي الخضراء !..

وبعينين غائمتين مخضلتين بالدموع لا تكادان تريان الطريق ، استدار حازم بوجهه شمالا حيث البغلة كانت قد توغلت الى الأمام لمسافة طويلة فأصبح بامكانها قضم السنابل كيفما تشـاء . والى جانبه تصاعد لهاث جميلة وهي تنوء تحت ثقل صـّرتها الغامضة ولم يجد حازم بدا من ان يتناولها من رأسها فانقذفت يده بشدة نحو الارض فهتف من بين اسنانه بصوت غاضب .

ـ اللعنة !.. كادت تخلع كتفي !.. ما الذي تحويه هذه الصـّرة اللعينة ؟.. رصاصا ؟!

ـ .. لا .. انما تضم حجرا !..

وأغرقت جميلة بضحكة لاهثة نفضت بها غبار الحزن الـذي كاد يكتم انفاسها طوال دقائق الصمت ، وبيد وسوست المُعاضد في زندها ، بدأت تحرك الهواء أمام وجهها المخضل بالعرق ، وبصوت ثاقب صادر عن حنجرة احتبس بها الهواء بسبب الصرة التي امالت جسده باتجاهها ، قطع حازم ضحكتها :

ـ كفى !.. أتستهزئين بي ؟!

ـ كلا .. كلا !.. انها تضمّ حجري الرحى !!..

واختلجت شفتاها بضحكة كظيمة جعلت كركرة حازم تنطلق رغما عنه !..

تلقفت اقدامهما الطريـــق ، الذي حفت بـــه السنابل • بعدما تجاوز ارض السهل الاجرد ليدرج عبر حقول القمح العائدة لـ «مـُلاّك» آخرين ، وطفقت البغلة تواصل هرولتها وقعقعة حملها تفزع طيور الدّرّاج والزرازير والعصافير فتنخطف على هيـــأة سحابة يسمع منها اصطفاق أجنحة تمرق على ارتفاع منخفض لتحط بين السنابل الكثيفة من جديد ، الريح تهب رخية من جهة الشرق حاملة لهما اصواتا متناثرة ترتفع هنا وهناك على امتداد القرى الشرقية الملفعة بنثار غبار رمادي شفيف ، ورائحة العشب ومياه البـــرك الخضراء المنتشرة على هيأة مخاضات موحلة يكتنفها طنين الهــوام والحشرات الدقيقة ، ترغى بكثافة مخدرة ، وعلى امتداد الحقول المتراصة بتماسك لا ينفصم ، كان اللون الذهبي هو الغالب ، سوى لطخات متناثرة ذات لون أخضر مزرق لسنابل قمح لم تنضج بعد كانت سماء الصيف تمتد فوق رأسيهما بانسياب لتنطبق هنـــاك أمامهما على الارض ، واشجار يتيمة ، تناثرت عبر الحقول ، تتعامد تحت امتدادها الازرق العميق •

ها هي أقدامهمـــا الاربـــع تصـــك الارض باستمرار والكلاب السائبة تمرق امامهما لتنزوي مختفية بـــين السنابل ، وحالما يقتربان من قرية ما تسارع الكلاب بتطويقهما ، فاغرة اشداقها الوردية المؤطرة باسنان بيضاء قاطعة ، في وجهيهما المرتعبين ، ونباحها الصاخب يكاد ان يصم سمعيهما • لكنها وبعد مسافة قصيرة تنقلب عائدة نحو القرية متوقفة بين لحظة وأخـرى لتنبح خلف ظهريهما متشممة الارض ، ورافعة افخاذها لتبلل العشب

المغبرّ . جميلة تتنفس الصعداء وتعود وجنتاها لتتوردا من جديد ، ولكنها سرعان ما تفاجأ بنباح ثاقب يكاد يأخذ بلبها ، فتستدير جانباً لتكتشف بأن حازم هو الذي يحاول أرعابها هذه المرة ، ان يدي حازم تتناوبان بحمل الصّرة .. تتعب احداهما فيحولها الى الثانية .. وهكذا ..

ها هي الارض تندفـــع عاليا لتنتهي بحافـــــة نهـــر مرتفعة تكتنفها سيقان قصب وحلفاء وشجيرات صفصاف قميئة . ان حافتي النهر تنهضان أمامهما على شكل جدار معشب يبدأ من الشمال باتجاه الجنوب ، والطريق الضيّق يطر الارض البنيـــة الكالحة ليدرج امامهما بانسياب معتليا صهوة قنطرة تتألف من جذوع نخيل متراصة مغطاة بطبقة تراب صلدة تمتد عبر حافتي النهر ، البغلة تصعد عاليا مخفضة رأسها لتوازن صعودها الحاد ، وحازم يهجس وكأن البغلة ستقذف بحملها ، ولكن ها هي البغلة وقد استوت فوق القنطرة لتنحدر بصخب نحو الطرف الاخر. حازم يهتف عندما يرتقيان القنطرة الممتدة فوق المياه المدومة والمزبـدة في الاسفل :

ـ وصلنا !..

الى الامام ، خلف اشجار توت وعناب وكالبتوس وثلاث أو أربع نخلات مبعثرة خلال ارض معشبة ، ترتفع واجهة بيت طيني تنفتح فيها أربعة مستطيلات لم تثبت الشبابيك فيها بعد ، وقريبا من اليمين ، وعقب مستطيل النافذة الاولى يواجههما باب أشرعت ضلفتاه وكأنهما ذراعا انسان فتحهما على الآخر في انتظار العناق

عريض مهدته عجلات الشاحنات الثقيلة فاستحال ترابه الى مسحوق ابيض يرتفع على شكل سحابة غبار مع أول هبة ريح ، ان الطريق يمتد باستقامة من الشمال باتجاه الجنوب ، والى يسار المنزل ، في طرفه الجنوبي ، يتفرع من الطريق الرئيس طريق آخر فرعي يتجه غربا نحو المدينة الرابضة هناك خلف قوس النخيـــل الازرق • الحميم الذي لا فكاك بعده !•• امام الفسحة المشجرة يدرج طريق امام النقطة التي يتعامد فيها الطريقان • وقرب النهر ، تنتصـــب شجرة سدر ضخمة ذات أوراق داكنة الخضرة وجذع رمادي متشقق•

على الممر المغطى بالحصباء والممتد عبر الفسحة المعشبة ليلتقي بالباب المشرع ، وقف الاثنان • وبعينين مبهورتين ، بسبب انعكاس اشعة الشمس المنصبة بوميض فسفوري ، تطلع حازم الى البقع الداكنة المنتشرة في الجدار والتي لم يجف طينها بعد • ان النوافذ الثلاث السفلية تتوزع على أبعاد متساوية : النافذةالاولى الى اليمين، تعقبها الثانية وفي منتصف المسافة الفاصلة بينهما ينتصب الباب المُشرع • النافذة الثالثة في اقصى اليسار حيث الجـــدار الامامي يلتقي ، بزاوية قائمة ، بالجانبي • والنافذة الرابعة تعتلي النافـذة الثالثة بالضبط • انها نافذة وحيدة تتوسط جدار الغرفة العلويـة المنفردة ، واليها أشار حازم قائلا بصوت مرح :

ـ تلك الغرفة العلوية ستكون لك ، والتي تحتها لي •• ما رأيك ؟!

اجابته جميلة وهي تخوض بعينيها الواسعتين باتجاه البغلـة

التي اختفت بحملها بين الاشجار قاضمة بنهم لا يوصف العشب الناعم المتوفر بكثافة :

ـ رأيي أن تلحق بالبغلة قبل أن تسقط حملها !..

وبدل أن يسارع حازم نحو البغلة وجد نفسه يفكر وعيناه تطوفان عبر الواجهة المتوهجة :

ـ « شهران من العمل والجهد والنتيجة : ها هو البيت أخيرا يرتفع امامي بكل كبرياء ! »

ونظر الى راحتي يديه الخشنتين اللتين انسلخ الجلد عنهما في أكثر من موضع !...

... ولكنهما ناعمتان !.. يدان ضخمتان تكادان تكونان ثلاثة أضعاف اليدين القديمتين اللتين وضعتا مئات اللبنات فوق بعضهما ، ولكنهما الآن ناعمتان ، بل ومتوردتان بعض الشيء وقد توزعت الخطوط المقوسة عبر باطنيهما . شعر حازم وكأن هاتين اليدين المترفتين بعض الشيء لا تنتميان الى جسده الذي نحتت كلّ عضلة فيه مسارها الخاص : عضلتا الكتف المكورتان والمتماسكتان، كان للتحطيب والامساك بدقة المحراث ، الأثر الفعال في نموهما المفرط . عضلة العضد النافرة بصلابة ، كان للتكريب القسط الأوفر في تلك الصلابة . والصدر الواسع العريض والظهر الذي على هيأة مثلث ، تماسكا واندغمت عضلاتهما ببعضها تحت ثقل خصاصيف التمر واكياس القمح ، والفخذان المكوران ؟ بمسحاته الحادة قلب مساحات واسعة من أرض البساتين المتماسكة بسبب

شبكة الجذور الدقيقة التي اكتنفت لحمتها ، فكان أن نما الفخذان بهذا الشكل •

وبعينيه المحمومتين تخطى حازم جسده المكور تحت الغطاء الازرق ، ومن بين القضبان المتعامدة تحت حاجز السرير البعيد طالعه ذلك الغطاء الداكن ، وامامه لمح المنضدة وفوقها المجلات القديمة المنزوعة الاغلفة ، ومن خلال طبقة الغبار التي اعتلتها تطلع حازم الى صورة الدبابة وفوهة مدفعها المتجه الى الامام وقد ظللتها سحابة غبار كثيفة ، وعادت عينا « مصطفى غريب » لتومضا عبر حياد الصورة المطبوعة بالاسود والابيض • شعر بهما تومضان بضراوة جعلت سحابة غبار الصورة تنتشر عبر جوف الغرفة ، بل انه استطاع أن يشم رائحة لحم محترق • انه غبار قاتل تكتنفه الشظايا وفتات الصخور واللحم البشري الممزق والعظام المهشمة • وعادت حشرجة « مصطفى غريب » تلك الحشرجة المصحوبة بدفقة دم انسابت عبر شفتيه ، عادت لترن في رأسه : انني •• اموت •• يابني !•• ايّ موت •• ايّ موت كان ؟! بيديه هاتين قلب الجثة على ظهرها فطالعته الاحشاء الزرقاء المندلقة الى الخارج ، وبخار خفيف يتصاعد منها • بيديه هاتين أيضا ألصق حافتي ذلك الجرح الرهيب ببعضهما ، وبدأ بخياطته !•• وكأن الجثة ترفض أن تستقبله ببطن مفغور الاحشاء !! كانت الابرة تنغرس في اللحم المطوط لتخرج من الجهة الثانية ، وكان الخيط الابيض يتشرب بالدم بعدما يخترق اللحم الميت • والجثة تُعلب في صندوق خشبي وترسل الى تلك القرية البعيدة المحاطة بمخاضات مياه تغص بأسماك

لم يجرّب معها « مصطفى غريب » طريقته الجديدة في الصيد !..
وحازم يعود الى الخندق ليمارس ، بِوله صوفي ، طقوس الانتظار المرير تحت لهيب شمس حزيران التي تلبست شموس الشهور الاثنى عشر !.. ذلك الانتظار الذي أفقد « مصطفى غريب » صبره !..

كانت السماء الزرقاء تتوهج عبر مستطيل النافذة وكأن الامطار التي انهمرت طوال الايام الثلاثة الماضية قد غسلتها من صدئها القديم ، وكان شعاع شمس مقرورة ينفذ من خلال اغصان الاشجار مخترقا النافذة ليسقط على جدار الغرفة الايسر ، وهناك ، على زجاجة الصورة التي بدت وكأنها صورة جندي حنطتها الكاميرا في لحظة فرح مباغت ، هناك كانت بقعة الشمس قد انحدرت كثيرا متجاوزة منتصف الزاوية بمسافة لا بأس بها ، فأيقن حازم بأن الوقت يقارب الحادية عشرة ولم يبق سوى القليل لتتعامد الشمس فوق الارض .

كل شيء ساكن الان : الريح هدأت بعدما دفعت بالغيوم الحبلى بالمياه ، بعيدا والبيت أيضا ساكن ، وكذلك السقف !.. وتطلع الى الجذوع الممتدة عاليا .. لابد انها نائمة !.. هكذا هي ومنذ شهرها الثالث : أما مضطجعة على سريرها في غرفتها العلوية ، أو شاحطة بقدميها فوق السقف وامام الغرف . ولكن أين هي أمه ؟! ولم لا يسمع ضجيج مطبخها ؟ لابد أنها غادرت المنزل في الصباح الباكر ، فحازم لايزال يتذكر اصطفاق قدميها على أرض الممر المبلول وحميد ؟ انه بالتأكيد في العمل الذي سينتهي مع غروب الشمس .
واستغرب حازم لكونه لم يصح من نومه صباح هذا اليوم على

هدير محرك الشاحنة التي تقف امام المنزل ليقلها حميد متوجهاً الى الجنوب حيث شركة الشحن ! ولكن استغرابه سرعان ما تلاشى عندما ادرك بأن الحمى التي لازمته مساء البارحة هي السبب في عدم استيقاظه ، وكذلك لابد أن صوت انهمار المطر قد طغى على هدير الشاحنة !..

انه يجابه وحش الزمن بصمت ، ها هي الدقائق تنصرم بانسياب وهدوء رغم ما يعتمل في أعماقه من صراع مرير بين ماضٍ ملفّع بسحب ضباب ودخان ، صحا منه فجأة ليرى نفسه مقذوفاً على هذا السرير ، وبين حاضر واضح وضوحا قد يكون فيه شيء من القسوة في بعض المرات ! ولكن المهم هو انه بعيد عن الابهام والغموض . وحازم ان توكأ ، في بعض المرات ، على عكّازة الماضي ، فهذا مما لابد منه لأن الماضي كان حاضرا في يوم ما كما أن الحاضر سيصبح ماضياً في الغد ، المهم أن يبقى الايمان بالمستقبل رغم كل شيء .

وكايقاع لحن قديم ألفته الذاكرة ، عادت الخطوات لتتردد فوق السقف من جديد ، وبدأ السقف يئن تحت ثقل الخطوات المصحوبة بغبار خفيف هوّم بانسياب نحو الاسفل . ان الخطوات تتجه هذه المرة الى اليسار حيث باب الغرفة العلوية الذي سمع الان - من خلال السقف - صوت اصطفاقه المكتوم ولم يعد يسمع أيما صوت .. انها الان فوق سطح الدار ، تنحرف يسارا فتطالعها شجرة السدر في الاسفل ، وخلفها ينساب النهر المختفي بين حافتيه المثقلتين بالقصب والحلفاء والصفصاف . قد تكون الان ولجت فوهة السلم .. وانتظر .. واحد .. أثنان .. ثلاثة . عشرة ، وانتظر

أيضا .. ومن ثم سمع قدميها تشحطان الارض .. واعتكر الخط المضيء الممتد أسفل الباب الذي انشقّ بارتداد مرتج بسبب الرطوبة التي تشبع بها الخشب .. تقدمها البطن المتكور أولا ثم أطلّ عليه وجه تتألق فيه عينان واسعتان اضفت عليهما الامومة المرتقبة مسحة دافئة ، الشعر الاسود السبط مشدود الى الخلف بضفيرة واحدة بدت وكأنها تشير الى ذلك الماضي البعيد عندما كانت تلك الضفيرة تنقذف الى الخلف بحركة خاصة طالما احبها حازم .

وقفت في الباب المُشرع وخلفها انسكب ضوء الشمس بحدّة على الارض المعشبة المحاصرة بسياج طيني منخفض . كان ضوء النافذة ينصبّ على وجهها وعلى جسدها المتماسك تحت ثوب اصفر فاقع انتفخت طيتاه الواسعتان فوق الثديين الثقيلين ، وتكوّر بعدما اندفع الى الامام ليتماسك ، في ذروة اندفاعه ، فوق قمة البطن الناتيء ، ومن ثم انسدل الثوب الى الاسفل بأستقامة ليمسّ الارض .

اشرعت الباب على آخره وولجت الغرفة قائلة بصوت ممروض لم يبارحه خدر النوم :

ـ لقد غلبني النعاس !.. صحوت مبكرة ورتبت غرفتي ، الا أن النعاس سرعان ما غلبني .. لم يدعني انام الا في ساعة متأخرة من مساء البارحة .

واشارت الى بطنها ، ومن ثم أشرقت ببسمة مرتبكة سرعان ما

اختفت لتتساءل بدهشة عندما لم تجد قدح الشاي وصحون الافطار الفارغة :

ـ ألم تتناول افطارك بعد ؟!

ـ لا •• لا أرغب !•• اين أمي ؟

سحبت الغطاء الداكن المتكور خلف حاجز السرير ، فلمح حازم وهو على وضعه السابق ، المسند الخلفي للكرسي الذي كان تحت الغطاء ، وكانت المنضدة المنخفضة التي أمامه ، تمنع عينيه أن تبصرا أكثر من ذلك • وأجابته وهي تطوي الغطاء :

ـ خرجت في الصباح الباكر •• لمحتها وانا متمددة على سريري قرب النافذة • أتساءل : لم خرجت في مثل ذلك الجو الممطر ؟!

ـ جميلة ، هل تعتقدين بان الطريق سينشف عصر هذا اليوم؟ لشدّ ما أرغب بأن تأخذيني لنقوم بنزهة عبر الطريق الممتد باتجاه المدينة ، مراقبين الشمس وهي تختفي خلف غابات النخيل !••

ـ حسناً !•• ولكن عينيك محتقنتان ! هل انت مريض ؟!

واحس حازم بحديد السرير بـــاردا تحت دفء راحتــه الممسكة به :

ـ لا •• ابدا ، انها حمّى بسيطة ستزول ••

وقذفت جميلة بالغطاء المطوي الذي امسكت به لفترة طويلة، على مسند الكرسي ، فاندفع قليلا الى الخلف باتجاه السرير وتناهى لسمع حازم صرير العجلات الثلاث التي لم تزيت منذ فترة طويلة ،

ففكر بضرورة تزيينهما في أقرب فرصة • ولكنه عندما حاول ان يخبر جميلة بفكرته تلك وجد فكرة اخرى تنبثق في رأسه :

ـ جميلة •• هل زينّي قفل الصندوق ؟ لقد طلبت منك ذلك مساء البارحة ، سأستطيع فتحه بواسطة سلك معدني ••

كانت جميلة تنظر اليه وهي واقفة بين الكرسي والمنضدةالمثقلة بمجلات وكتب منزوعة الاغلفة مغطاة بطبقة غبار :

ـ ما الذي ذكّرك بذلك الصندوق ؟ خمس عشرة سنة مرت على اليوم الذي طلبت مني فتحه فنشجتُ باكية !•• ما الذي ذكرك بــــه ؟ ••

ولم تبكِ هذه المرة ،بل اشرقت ببسمة كورت وجنتيها فبرزت غمازتان على كل جانب • وكان لجملة « خمس عشرة سنة » صداها الذي تردد في رأسه مثل نداء بعيد غامض انطلق من جوف كوخ تطلّ كوّته علىأرض تبعثرتخلالها اشجار التوتوالعناب والغَرَب تحت سماء بنفسجية تميل الى العتمة ببطء وانسياب • انه نداء خافت ولكنه يتغلغل في الصميم مثل رذاذ مطر ناعم يتوغل في اعماق الارض ليرعش الجذور المنسية في القاع المعتم • خمس عشرة سنة ! أيام وشهور وسنون مرت والصندوق هناك ـ بعد انتقالهم من القرية ـ في حجرة المؤونة ذات الباب الصفيحي • لولا أمه لما تذكر صندوق جميلة المرصع • لقد ذكّرته به صباح البارحة بعدما رفعت كمية كبيرة من الحطب الجاف لتلقم به نار موقدها فوجدته تحت الحطب • انه الصندوق الذي حالما كانت عمته ـ أم جميلة ـ ترفع

غطاءه ، كانت رائحة الهيل والحناء والثمار المجففة تضوع برائحتها الخدرة حتى تكاد تكتم انفاسهم !.. وحتى الخشب القديم كانت له رائحته الخاصة وكذلك الاقمشة التي لابدّ انها اهترأت الان ؟! اهترأت ؟! وهل تتهرأ الذكريات الجميلة التي لولاها لاستحال العمر الى خراب ؟ .. لا !.. ابدا ان تلك الرائحة الحميمة ستظل تضوع وتضوع عبر انسياب الزمن وستظل الاشياء التي احتواها الصندوق صدى لماضٍ عزيز على قلبه !...

ـ لا .. من الافضل ان يظل الصندوق مقفلا ! جميلة ..

ولكن لا تدعى العثّ يتأكل خشبه .. انه صندوق رائع !

ـ حسنا .. سأفعل .. يا لهذا الغبار المتراكم !..

ونفضت الغبار عن كتب ومجلات المنضدة فارتفع على شكل سحابة غبار توزعت في اجزاء بعيدة من الغرفة .

ـ انه بسببك أنت !.. كلما تحركت في حجرتك تساقط الغبار من سقف غرفتي !

وأنهت جميلة تنظيفها للمنضدة وكان بطنها الناتيء يندلق الى الامام وثدياها الثقيلان يترجرجان مع ابسط حركة تقوم بها .. اقتربت من سريره بعدما امسكت بيدها احدى الصحف القديمة ، وبعدما منحته ابتسامة خاطفة ، بدت وكأنها تعتذر بها عما ستقوم به ، انحنت ، عبر السرير ، نحو النافذة لتمسح بالصحيفة التي في يدها ، الزجاج المندّى بعض الشيء فانسحق جنب حازم تحت ثقل بطنها الذي انغرس فيه وبدأ يتحرك تبعا لتحرك يدها على زجاج النافذة،

ووجد حازم نفسه يستعيد ، بلحظة خاطفة ، تلك الظهيرة ، عندما انسحق العشب تحت ثقل جسديهما وانخطف شعاع شمس تشرين في عينيها المشدوهتين وعلى بياض جسدها الناصع ، فهتف بصوت حالم :

ـ جميلة ، هل تتذكرين تلك الظهيرة التي سبقت رحيلي الى الجبهة ؟

وتجمدت يدها الممسكة بالورقة الرطبة المكورة ، فبـــدت وكأنها تستعيد أمرا استغلق على ذهنها ، ولكن وجهها سرعان ما أشرق وعادت يدها تمسح الزجاج وتمتمت من بين اسنانها :

ـ يالك من خبيث !! اخشى ان تعدي هذا اللعين ، الــذي يسحق جنبك ، ببعض خبثك !.. كيف لا وهو ثمرة تلك الظهيرة التشرينية ؟!

واعتدلت بقامتها بعدما انهت تنظيف الزجاج ، فتطلع حازم اليها ، وسمعها تقول بعدما استدارت بوجهها يسارا :

ـ لولا هذا الجنين المشاكس لارتقيت المنضدة ونظفت زجاجة صورتك ..

وعادت بوجهها باتجاهه متطلعة في عينيه وقالت :

ـ هل تعلم يا حازم ان عمر الصورة بعمر هذا الجنين ؟!

وكيف ينسى ذلك اليوم الذي سبق رحيله الى الجبهــة ؟.. كان حازم في ذروة حماسه واخبار العبور الكبير والزحف نحـو

المرتفعات المحتلة ، تنثال من المذياع فكان من الضروري جدا آن يخلّد تلك اللحظات الاثيرة بطريقة ما ، فسارع بعد ما ارتدى ملابسه العسكرية للمرة الثانية لاداء خدمة الاحتياط ، سارع بالتقاط صورة كبيرة قال بأنه سيحتفظ بها الى الابد ، واستفاق من تأملاته على صوت جميلة :

ـ ها هي عمتي تظهر أخيرا !.. يا لهذا الطين الذي لطخها الى مستوى منكبيها !! انها تحمل كيسا منتفخا !.. هل أعدّ افطارك ؟ ..

ـ لا .. افتحي احدى ضلفتي النافذة ..

وصر خشب الاطار المتماسك واندفع هواء الخارج الرطب ووصلهما صوت اصطفاق قدمي الأم على أرض الممر ، بوضوح وتناهى لسمعهما صوتها وهي تقول :

ـ هل .. نومه ؟.. فطر ..

ولكونه مضطجعا وبسبب بعد المسافة لم يستطع استيعاب جميع الكلمات التي ضاع بعضها في الفراغ .

ـ ما الذي قالته أمي ؟!

ـ اعتقد انها جلبت كمية من الفطر البري ... ثلاثة أيام والرعد يدوي عبر السماء الغائمة !.. يقال : انه كلما دوى الرعد بشدّة انبثق الفطر من تحت الارض !

ـ هراء ، انما هو بسبب المطر ..

ووصلهما خفق قدميها من داخل المنزل ، بعد لحظات انشق الباب عن وجهها المخدد بالتجاعيد والمحاط بفوطة سوداء ، وولجت الغرفة بعدما تركت حذاءها الموحل أمام العتبة • كانت تحمل باحدى يديها كيسا ممتلئا الى اخره •

ـ أنظر !!•• سنحصل على وجبة شهية !•• هل أفطرت يا حازم ؟••

ـ سأتغدى بفطرك يا اماه !•• لقد اثرت شهيتي للأكل رغم هذه الحمى اللعينة ••

وناولت الام كيسها لجميلة ووضعت راحة يدها الباردة على جبينه الساخن :

ـ انك محموم !••

انحنت نحو ضلفة النافذة وواربتها :

ـ سيؤذيك الهواء البارد !••

ارتكنت بعجيزتها العجفاء على طرف السرير وكان وجهها قد ازداد استطالة وتدلى انفها بين شفتيها بحدّة ، والتجاعيد العميقة غزت ملامحها ، ولكن عينيها الحادتين بقيتا محتفظتين بوميضهما القديم ••

ـ كأن التلال قد استحمت بمياه المطر ، والفطر بعدد الحصى! لولا ضيق الوقت لجمعت الكثير منه • ترى كم تكون الساعة ؟

رفع حازم وجهه نحو الصورة التي كان ضوء الظهيرة قد

اكتسحها ، فلمح البقعة الضوئية المنعكسة على الزجاجة تكاد تغادر الاطار الفضي :

ـ انها بعد الحادية عشرة بدقائق !..

وهتفت الام بعدما استوت واقفة فصّر السرير من تحتها:

ـ يا للهول ! لقد سرقنا الوقت وانا لم أهيء طعام الغذاء بعد ! .. هيا يا جميلة ساعديني بتنظيف الفطر من الرمل .

وانفلتت الام بخفة خارج الغرفة وتبعتها جميلة بطيئة وثقيلة فبدت في عيني حازم وكأنها تمور بالحياة والخصب ، وخفق ذيل ثوبها الاصفر من خلال فتحة الباب الذي وارىته خلفها .

ومرة أخرى اصبح حازم وحيدا .. وهدأ كل شيء من حوله .. أمسك بحافتي السرير ودفع بجسده الى الخلف فارتفع نصفه العلوي بصعوبة ، وانزلقت مؤخرة رأسه على سطح الجدار الخلفي، وبكوع يده اليسرى دفع الوسادة الى الخلف ، فاستقرت وراء ظهره ، وبذلك شعر بالراحة .. استطاع ، من وضعه الجديد ، أن يستشرف على مساحة واسعة تحددت عبر مستطيل النافذة ، فالى الامام ظهرت لعينيه اللتين اكتسحهما وهج الظهيرة ، أرض الحديقة المعشبة ، وكان شعاع الشمس يتلامع اسفل العشب حيث مياه المطر ركدت بعدما تشبعت الارض بها وهنا وهناك ، وبصورة غير منتظمة ، توزعت أشجار عديدة تنتهي برؤوس هائلة تناطح السماء. وهناك ، خلف الارض المعشبة ، يرتفع سياج طبيعي خفيض قوامه سيقان القصب والسيسبان يمتد بحذاء الطريق الممهد القادم من

الشمال باتجاه الجنوب . وفي اقصى يسار النافذة ، لمح ممرا مفروشا بالحصباء يطرّ الارض المعشبة ليلتقى أحد طرفيه ، غير الظاهر لعيني حازم ، بباب المنزل ، وليلتقي الطرف الاخر ، بعدما يجتاز سياج النباتات الخفيض ، بالطريق . خلف الممر المفروش بالحصباء تظهر أرض معشبة أيضا سرعان ما تنتهي بالسياج . من خلال الاشجار ، خلف السياج العشبي ، تطلع حازم الى كتفي النهر المشجرين والمتدين بموازاة الطريق الرئيس ، وبعيدا حيث السماء اللازوردية تنطبق بانسياب على الافق ، لمح قمما متناثرة لتلال بدت صفراء تحت ضوء الشمس الحاد .

عاد بعينيه الى الداخل وتطلع مليا الى صورته المواجهة له . أنها صورة التقطت باللونين الاسود والابيض ، فبدت نظيفة بصورة لا تصدق بعدما رتشتها اصابع المصور ، ولكنه يشك ان الوجه المحنط خلف الزجاجة يشبه وجهه الحي المنصوب على رقبته . ذلك الوجه يعود لانسان آخر كان يتصور بأن طلقة مدفع واحدة ستعيد الاشياء الى مواقعها الصحيحة !! وارتقت ابتسامة متهكمة شفتيه المزغبتين ، ارتفعت يداه وحطت الراحتان الساختنان على وجنتيه الخشنتين : لقد غاب عن ذهن الآخر ـ عن ذلك الوجه المحنط تحت الزجاج ـ بأنّ طلقة المدفع تلك قد تكون ايذانا بالتراجع .. قد تكون تبريرا لخيانات ترتكب باسم القضية .. قد تكون تمويها لادوار تؤدى في الخفاء !!.. اما هذا الوجه ـ وضغط على وجنتيه، فأحس بأثر الجرح ، الذي يعود لستة اشهر خلت ، صلبا يتكور تحت باطن يده اليمنى ـ اما وجهه الحقيقي هذا فقد اكتشف اشياء

كثيرة : اكتشف بأن هناك مسافة طويلة تفصل الحلم عن الواقع ٠ وهناك آمال عديدة قد يحبط البعض منها ٠٠ وكذلك هناك الدم والموت !٠٠ وبالمقابل هناك ايضا الحقيقة والامل : الحقيقة التي لا مرد لها والتي لابد لها أن تتجسد في يوم ما على أرض الواقع الصلبة ، منبثقة من فوهة بندقية تمسك بها يدان لا تهتزان ، تعرفان كيف تصوّبان الى الهدف الحقيقي !!٠٠ ويبقى الامل ذلك الشمس الخضراء التي قد لا تشرق الا بعد أن تعمد بالدم !٠٠

ـ « وعلى كل حال ـ فكر حازم ـ فانني قد اديت واجبي على قدر طاقتي !٠٠»

وعلى امتداد السرير طالعه جسده المتكور تحت الغطاء الصوفي الازرق وفكر ، بعدما منح الصورة نظرة خاطفة :

ـ « انظر !٠٠ هذا هو انا الحقيقي الذي قد لا يرفضك انت ـ رغم كل احلامك الساذجة ـ ولكنه ، بالتأكيد ، سيتجاوزك وان يكن أسير سرير ضيق ، لانه يؤمن بأنك انت كذلك اسير اطار وزجاجة تنبئه بمرور الزمن فقط !!٠٠ انظر !٠٠ انه وجهي الذي لم ترتشه اصابع مصوّر !٠٠ واية اصابع تتمكن من ازالة هذه الندبة الممتدة على وجنتي اليمنى ؟! ٠٠ »

وكمن يعتلي ظهر ربوة مستشرفاً الوديان المحيطة به ، طوف حازم بنظرة بطيئة عبر جسده الممتد امامه ، بدأا من الكتفين المكورين تحت نسيج القماش السميك ، واللذين ينحدر منهما ـ كما ينحدر النهر من قمة جبل ـ ذراعان مديدتان تنتهيان بقبضتين

ضخمتين ، والصدر الواسع الذي يلتقي بالبطن المندس تحت الغطاء الازرق ، وانتهاء بالفخذين المكورين اللذين ينحدر ، بعدهما ، الغطاء على الفراغ ليمس سطح السرير .

الظهيرة

قد تكون الشمس المنخطفة ، بوميض فسفوري ، على العشب، وعلى اغصان الاشجار المتهدلة ، بعدما تشبعت بالمطر ، هي السبب! أو قد تكون الحمى المستعرة في عيني المحتقنتين وفي رأسي المحموم •• أو قد يكون هذا السرير الذي مضت ، على ملازمتي ايـــاه ، خمسة شهور كاملة !•• من يدري ؟! قد تكون تلك الاشياء مجتمعة هي السبب الحقيقي في اضفاء هذا الهاجس الفاجع المرير على كياني كلما انتصف النهار وتلامعت الارض والسماء •

في البداية كان الالم واليأس يطغيان على كل ما عداهمـــا ،

فأصبح فخذاي المتورمان محور اهتمامي . ولكن حالما تخفف الألم، بعض الشيء ، والتأمت الجروح ، اكتشفت بأن ذلك الهاجس الفاجع بدأ يلازمني لفترات طويلة . انه يبدأ هكذا : وأنا أنظر عبر النافذة، اكتشف فجأة انَّ منظر الاشجار المتعامدة على الارض المعشبة المحاصرة بين سياج السيسبان والقصب ، وبين الواجهة الامامية للمنزل ، الذي أقبع خلف نافذة غرفته القصية ، منظر يتسم بالجمود .. بل وبشيء من البلادة !.. أشجار ثابتة ، تهب الريح فتتقاذف جذوعها هنا وهناك ، والغصون تنساب مع التيار الجارف. الريح تهدأ والاشجار تسكن باستسلام لتهتز غصونها ، بين لحظة واخرى ، بغموض وكأنها تتنفس بطريقة ما . المطر يهطل والاوراق تتلامع تحت انسكاب الرذاذ المتواصل ، والسحب تتبدد لتعود السماء زرقاء كما كانت ، وآلاف العصافير تعود لتتخاصم بصخب بين الاغصان المتشابكة . والتلال المتراصة الى الشرق ، خلف الفسحات الظاهرة من خلال جذوع الاشجار وخلف السياج الخفيض المنتصب بمحاذاة الطريق ، تبقى هناك في مواقعها مجرد تلال جرداء ، تلهبها الشمس بوميضها الحاد صيفا ، ويكسيها الربيع بزغب عشب ناعم سرعان ما يجفّ عندما تتشرّب الرمال الندى . والطريق القادم من الشمال باتجاه الجنوب ، والذي مهدته عجلات الشاحنات الثقيلة فانخفض عن مستوى الارض الهشة المحدقة به ، نادراً ما يتبدد سكونه على هدير شاحنة عابرة ـ وهذا ما يحدث عادة مرتين كل يوم ، عدا « الجمعة » : الاولى في الصباح الباكر قبل بزوغ الشمس ، حيث الشاحنة الخاصة بالعمل والمتجهة جنوبا تركز

بمقدمتها العارية الجانبين أمام المنزل ، فأستطيع من مكاني هنا ، خلف النافذة رؤية « الراديتر » المدخن باستمرار • انها تركن خلف فتحة السياج مقعقعة بصخب في انتظار أخي « حميد » الذي يسارع ، وهو ببدلة العمل الزرقاء ، بارتقائها مشفوعا بصخب صحابه العمال ، ذلك الصخب الذي يهش طائر النوم عن عيني نهائيا ، والذي يبدو أنّ صوت المطر والحمى قد طغيا عليه صباح هذا اليوم فلم أصح من نومي ، والمرة الثانية هي بعد غروب الشمس ، حيث الشاحنة نفسها والمتجهة شمالا تركن بمؤخرتها امام فتحة السياج ليهبط منها « حميد » ببدلته الزرقاء المبقعة بلطخ العرق والزيت ، مشفوعا بتحيات الوداع المقتضبة من صحابه العمال الذين نال التعب منهم مبتغاه ـ انها أشياء ثابتة تتسم بالجمود، وهي لحظات متشابهة تتسم بالرتابة • ولو أردت الدقة في التعبير لقلت بأنها حالة غريبة ـ قد اسميها مع نفسي ، في بعض المرات « حالة شاذة ! » ـ تناقض ، وبشكل صارخ ، وضعي الذي سبق ادائي للخدمة العسكرية ولخدمة الاحتياط فيما بعد ، وهو وضع أقل ما يقال عنه انه بعيد عن الجمود والرتابة •

كانت قدماي تذللان أطول مسافة تفصل منزلنا عن القرى الكثيرة المحدّقة به شمالا وشرقاً وجنوباً ، والأقارب وأقارب الاقارب كثيرون ، توزعوا بعدما تكررت الهجرات من أرض لأرض كما تتوزع حفنة رمل تذرها الريح • وهكذا قبل بزوغ الشمس تجدني وحيدا منفردا تتقاذفني السفوح والوهاد أو تقتنصني ادغال كثيفة مكتنفها الغموض والتوجس ، أو تنحدر بي ضفاف أنهار مدومة

بين حواف مرتفعة اختفت تحت نسيج نباتي متماسك قوامه حشائش ونباتات شيطانية مجهولة الاسماء تقاتلت مع بعضها بشراسة لتضرب بجذورها في الارض الرطبة الموغلة في القدم والنسيان . وما ان يتلقف الجريد الاخضر اول شعاع لشمس الصباح حتى تجدني مفترشاً حصيرا باليا في جوف كوخ ما ، والاصدقاء والاقارب ، رجالا ونساء محدقون بي ، يسألون عن صحة الوالد والوالدة والاخ . وأخيرا عن صحة الخطيبة « جميلة » زوجتي المنتظرة ، وأنا لا أكاد افتح شفتي لأرد على سؤال انبثق من فم ادرد لعجوز تشدّها بنا قرابة بعيدة أوهى من خيوط العنكبوت ، حتى أفاجأ بسؤال آخر عن « الخطيبة ! » ، سؤال ماكر ينطلق من شفتين كرزتين يحيط بهما خدان متكوران على غمازتين لم تطلهما الشمس بضوئها في يوم ما !.. والرحلات عبر القرى والادغال والوهاد تتكرر ، ولا اسهل من ايجاد الحجج لأجل القيام بها : وزنة من القمح اردفها على ظهر دابة ... و ... « ديخ ! ».. ويلسع الغصن الطري مؤخرة الدابة فتنطلق نحو المطحنة سابقة الريح ... يمرّ صديقي الحميم « سلمان » قريباً من المنزل ، ودون ان يطرق الباب ، بل وحتى دون أن يقف، ينادي بصوته المبحوح ـ الذي أورثته اياه رطوبة الانهار والمخاضات العامرة بالاسماك ـ مواصلا طريقه الى الامام :

ـ حازم .. حازم ..

قد أكون في المنزل فأردّ عليه ، أو قد لا اكون ـ وهذا ما كان يحصل غالباً ـ فيبلغ امي أو جميلة ان التحق بهم فجر الغد

ومعي عدّة « الشغل » وفجر الغد استيقظ مع صياح الديـــك واتوجه نحو المطحنة حاملا معي شباك الصيد والمسائل الضرورية الاخرى ، أو قد يخبرهما أن انتظرهم مساء الغد عند القنطـــرة الشمالية قرب دغل « الخندق » فأردف خلف ظهـري « كسرّية » ابي ، مالئاً جيوب سترتي بطلقات « الصجم » واتوجه الى هنـاك لاشاركهم في اقتناص الخنازير التي عاثت في حقول القمح فساداً. او قد يمرّ بالمنزل صديقي الآخر « خالد » وبعد أن يغـــرق أمي وجميلة بسيل طرائفه ونكاته التي لا تنقطع حتى تخضل أعينهمـا بالدموع وتكاد انفاسهما تتقطع وقد أمسكت كل واحدة منهمـا بجنبها بعدما بدأ بطنها يؤلمها بسبب الضحك المتواصل ، يحدثهما ، بصوته الناعم ذي النبرات المتناغمة ، عن آخر اخبار « النهوة » والقتل والخطف ، وفي النهاية وقبل أن يغادر المنزل ـ الذي ترددت الضحكات الصاخبة تحت سقفه طوال مكوثه ـ يخبرهما ، وكأنـه تذكر أمراً غاب عن ذهنه ، أن انتظره مساء الغد في المقبرة القديمة. ونلتقي هناك في الموعد المحدد ، ومن ثم ننحدر نحـــو مضارب الغجر !..

وليس هذا كل شيء !.. فقد كان أبي فلاحاً ، والفـــلاح الحقيقي لا يشعر بكونه كذلك الا ان توفر لديه شيئان لا ثالث لهما : أرض يزرعها كل موسم لقاء حفنة قمح ـ وابي لم يتخل عن الزراعة في يوم ما وأراضي الآخرين التي بحاجة الى الفلاحة كانت كثيرة ـ وعدد من الماشية ترعى الكلأ النامي والمتوفر في كل مكان فتمنح العائلة حليبها وصوفها ، وعند الضرورة ، لحمها ـ وابي

استطاع أن يشتري بعض الماشية بعد هجرتنا لقريتنا القديمة ـ ولأن ابي كان فلاحا فقد تعددت اعمال الحقل ، كما اتخذ الاعتناء بالماشية وجوها عديدة كالرعي وجزّ الصوف والاعتنـــاء بصغار الماشية وجرش الشعير وتمليحه في بعض المرات ، وهنـاك اشياء أخرى ، فقد يبادرني ابي في احدى الليالي :

ـ « البقرة الشقراء تخور كثيرا يا حازم •• انه الربيع كمـا تعلم ، وهو موسم السفاد ! •• »

واجيب أبي :

ـ « حسناً يا أبتاه •• لـ « عوّيد » ثور هائل سيمنح بقرتنا عجلا رائعاً !•• ما تقول يا ابي ؟! »

ويوم الغد ادفع بالبقرة امامي متجها نحو الخط الرمـــادي للتلال الجنوبية حيث قرية « عوّيد » •

انها حياة ابعد ما تكون عن الجمود والرتابة ، ولكنها حياة اعتيادية أيضا قد لا تختلف كثيراً عن حياة كثيرين من البشــــر ما زالوا يدبون بأقدام قوية على سطح هذه الارض الفسيحة ، ولكنني أراها ، الآن ، وكأنها تلبست لبوسا آخر أكثر سحرا وجمالا ، وهذا ما يعيد الى ذاكرتي ما نطق به أبي في تلك الليلة التي اعقبت تسريحي من الجيش • قال أبي :

– « •• الاشياء الجميلة لا تستطيع ان تراها على جمالهـــا الحقيقي الاّ وأنت بعيد عنها !•• »

وأبي ما سمعته يوما يطلق بأحكامه جزافا ، فقد كان من عادته قبل أن يتكلم في مثل هذه المسائل التي هي بحاجة ـ كما يقال ـ الى هرش الرأس ، كان من عادته أن يخوص بعينيه أولا ، مضيقاً اجفانهما المجعدة وكأنه يصوب بندقيته نحو هـدف بعيد يحتاج الى تركيز شديد ، وبعدما يسحب نفساً او نفسين متعاقبين من سيكارته اللف ، تهتز تفاحة رقبته الناتئة بانسياب لتنبثق من فمه الكلمات واضحة ، غير ممضوغة ، مصحوبة بضبابة دخان • انّ ابي ، ذلك الصامت الوقور الصلب بقسوة ـ عند الضرورة ـ كان نتيجة حتمية لحياة قاسية صهرت فتوته وشبابه وكهولته • لـقد جرّب مرارة الغربة ليحارب ـ مرغما ـ مع « الجندرمة الانراك » ووجدانه مشدود الى كوخ قميء مشاع أمام الرياح الهابة مـن الجهات الاربع ، ضمّ هيكل ابيه المحدودب وأمه الضريرة • لـذا كان ابي يتكلم في بعض المرات النادرة بتلك الطريقة التي تجعل المرء لا يستطيع أن يصدق بأنه امام فلاح أمي ، كل مجده في الدنيا هو انه اشترى قطعة أرض صغيرة رفع فوقها سقف منزله المكين !

حينما اعود لتلك الليلة التي اعقبت تسريحي من الجيش ، اجدها ماثلة في ذهني بكل وضوح وكأنها كانت مساء البارحـة لا قبل ست أو سبع سنوات !•• وتعود كلمات ابي لترن في رأسي من جديد ، أبي الذي لم يبق منه الان سـوى قبر ترابي قميء نظلله سدرة عجفاء ارتكنت احدى زوايا تلك المقبرة القديمة التي نوسطت غابات النخيل •

كانت ليلة شتائية غائمة اعقبت نهارا عاصفا ، هبت الريـح

خلاله من جهة الشرق ، مما حتم عليّ أن أسرع بالسفر خشية هطول الامطار • ورغم الحاح اصدقائي الجنود بالبقاء احتفاء بالمناسبة ، ذلك الالحاح الذي انقلب الى ضجيج صاخب لابد انهم عوقبوا بسببه فيما بعد ، فانني شددت حقيبتي الجلدية دون ان أعي ما كانت تقوم به يداي المرتجفتان ، فقد كان هاجس السفر يلح عليّ بصورة غريبة ، وكأن حياتي كانت ستنتهي لو انني أجلت سفرتي تلك ليوم آخر !••

لم تمض سوى ساعتين على غروب الشمس ووصلت المدينة التي تقع القرى وبيوت الفلاحين ـ وبضمنها بيت ابي ـ في ظاهرها الشرقي ، حيث السهوب الخصبة تبدأ بمحاذاة الغابات ، فتنداح الى الامام بانسياب لتنتهي بعيدا عند تخوم التلال الشرقية الملفعة بضبابة رمادية • وحالما صفقت خلفي باب السيارة ، التي تقاذفت اجسادنا فوق مقاعدها الخشبية القاسية لفترة طويلة ، اخترقت المدينة من اقصر ازقتها المؤدية الى غابات النخيل مباشرة ، فولجت احد الممرات الكثيرة والمتشابكة عبر تماسك الادغال المدلهمة ، متوجها الى المنزل ، حاملا لابي وللاخرين وللحقول والنخيل شوق ثلاث سنوات كافرة استهلكتها الغربة من عمري ، وليتها كانت الغربة لوحدها ، فهناك كان عار الهزيمة الذي كنا نتجرع مرارته كل يوم ونحن متراصفون في جوف خنادق رطبة امتدت تحت سماء مفتوحة أمام طائرات العدو الغادر • وكانت شمس « حزيران » التي تلبست شموس الشهور الاثني عشر ،

تتلامع عــلى حديد خوذاتنا المنسدلة عــلى عيون تومض بالسخط والغضب •

في تلك الليلة ، ولم يزل وعثاء السفر وتعب الايام المريرة ، يثقل كاهلي ، تحلقنا حول النار الكبيرة المستعرة في موقد طيني توسط – ولا يزال – أرض الغرفة الصغيرة الممتدة على يمين بـاب المنزل ، والتي كانت بمثابة مطبخ البيت نهارا ، وغرفة نوم والديّ ليلا ، فأبي كان يرفض ان ينام – نوم الملوك – على الأسرة المغطاة بالافرشة القطنية الناعمة !•• فهناك ، أمام الجمرات المتوهجة تحت الرماد ، كان يضطجع ساحبا ، فوق جسده ، عباءته الصوفية الثقيلة• مع رشفات الشاي ، وعقب أحاديث متشابكة تنقلت بنا من اطلال قريتنا القديمة الرابضة على حدبة اكمة – بدت « كالعين العوراء » كما قال « الملاّك » الذي رغب في تسويتها بأرض السهل ، ولكنها بقيت شاهدا على عجزه المطبق – الى حكاياتي عن الجبهة وعن الانتظار المرير عقب حرب خاطفة ما استهلكت سوى ستة ايام من ذلــك الصيف الحزيراني القاسي !•• وكان لحكاية صديقي « مصطفى غريب » وقعها الصاعق المؤلم عليهم ، حتى إن أمي ذرفت عليــه دموعا سخينة • مع رشفات الشاي تنقلت عيناي المتعطشتان لتلك الملامح المألوفة لدي ، عبر وجوههم : وأول ما طالعني ، كان وجه ابي المجعد بأنفه المندفع الى الامام وبشفتيه المكتنزتين ، اللتــين شوههما الرماد ، والمطبقتين على سيكارة « لف » عملها من حفنة تبغ كنت قد دسستها في جيبه حال انتهائنا من العناق ومن تبــادل القبلات الرنانة ، ومن استغرابه المشوب بالاعجاب والاعتزاز لكوني

قد كبرت ، وتأكيدي المتواصل ، وأنا أربت على ظهره المحدودب بعض الشيء ، بأنه قد استعاد شبابه القديم ـ وهذا ما كان يناقض الحقيقة ، وكان من باب المجاملة ، فقد أيقنت ، تلك الليلة ، بـأنّ أبي يقترب من نهايته ، وعلى كل حال كانت نعمة لم نكفر بها لكونه قد تخطى السابعة والستين رغم التعب المستمر ورطوبة الحقول التي أورثت مفاصله الروماتيزم المزمن ـ كان ابي يواجهني ، ووجهه القديم يتدانى ويبتعد من خلال ألسنة النار المتراقصة في الموقد ، ويداه الخشنتان المتجسأتان اللتان بلون لحاء الشجر القديـــم ، متشابكتان حول ركبتيه • على يمينه كان وجه أمي الممطوط والمؤطر بالفوطة السوداء ، يطالعني بلهفة وترقب كاد يجعلني أظن بـأنّ هناك خيوطا خفية تربط وجهينا ، فمع كل استدارة اقوم بها كان وجهها يستدير للاتجاه نفسه متحولا بأجمعـه الى عيون مترصدة مستعدة لتلبية أدنى اشارة مني •

بجانبهـــا ، على يســـاري ، ارتكنت جميلـــة أمـــام الموقد ، وعيناها الواسعتان منصبتـــان ، باســـتغراق لذيذ ، على النار ، وقد تلامع خداها بسبب اللهب المستعر وبسبب توهـج فرحتها التي هصرت احشاءها • على يميني ، فوق الموقد ، قبـــع حميد وأرنبة انفه المرتفعة تلامعت حتى كادت تقطر زيتا يكفي لقلي بيضة !•• وكان قد غرس ركبته اليسرى في جنبي ، والثانية في جنب أبي الذي كاد يلطمه على وجهه أكثر مـن مرة بسـبب تلك الركبة اللعينة التي نغصت عليه استغراقه اللذيذ وهو يدخـن سيكارته اللف •

عقب لحظة صمت طارئة سمعتني اتكلم وكأن لساني نطق قبل أن يستشير رأسي :

ـ وانا هناك ، حيث الاراضي المتموجة تدرج غربا ، منغلقة على جيوب صخرية ، تختفي ، بين طياتها ،مدافع الاعداء المتربصة بنا ، نحن الذين كادت اجسادنا تتعفن في خنادقنا الرطبة ، وكادت رؤوسنا تلتهب تحت وميض الشمس المنصبّ على خوذاتنا . وأنا هناك ، كنت وكأنني اراكم من خلف زجاج مندى بالرذاذ : كل شيء قريب وواضح ، ولكنه في الوقت نفسه ، غريب بصورة لا واقعية كما يحدث في الحلم . كل وجه وكل نخلة وشجرة رأيتها وقد اكتسبت سحرا غامضا . جذوع النخل والاشجار الخشنة الناتئة كنت أتلمسها في خيالي ولكنها لم تكن كذلك . الطرق والممرات السرية المتشابكة عبر الادغال والاحراش ، والتي اخترقتها عشرات المرات متنكبا بندقية الصيد أو اعزل الا من جسارتي وتهوري ، لشدّ ما شعرت بالندم لكوني لم اقف مترصدا تعرجاتها ومراقبا الاشجار التي تحفّ بها غصنا غصنا . كنت اتذكر الخلاء المحيط بالمنزل وشجرة السدر والنهر الذي طالما ابتردنا ، أنا وجميلة وحميد ، في مياهه السريعة ، والسهوب المطوفة باستواء حاد شرقا لتنتهي بمحاذاة التخوم الصخرية للتلال التي يخترقها ، بعيدا في أقصى اليسار ، وادي النهر الكبير حيث المخاضات وعيون الماء المنبجسة من الارض الهشة ، وحيث الجداول والانهار المدومة تتفرع من هناك . كنت أرى نفسي تحت عتمة الادغال الزرقاء المدلهمة ، والشمس لا تستطيع النفاذ الى الارض المعشبة العامرة

بالهوام والحشرات الهشة الدقيقة التي تولد وتكبر وتتزاوج وتموت خلال اليوم الواحد . متربا مثقلا بالغبار كابن عرس ، اتقدم عبر التلال وثوبي ملطخ بالاتربة ونسيج العنكبوت ، والاوراق الجافة ملتصقة بشعري الملبد وانا اتوغل في جوف الاكواخ المهجـــورة والجرذان والصراصر والجنادب الخضراء الممتلئة بعصارة العشب تتقافز أمامي لتختفي تحت بقايا القش والعشب اليابس . أصحـو لارى نفسي مقذوفا خلف كوة مفتوحة على الخلاء . اشم الهـواء الطري أو اتشمم الروائح العطنة المبثوثة في الاماكن القديمـة المهجورة ، والروائح الزنخة في الاسطبلات التي غادرتها الخيـول مخلفة على الارض المثقلة بالقش وبقايا الروث ، رائحة بولها الحادة. أدبّ بحذر قرب القرى المحاطة بأسيجة السيسبان والصفصـاف والحلفاء والعناب ، واسراب كلاب تفغر اشداقها الرطبة الوردية في وجهي . أتطلع ملياً الى الجداول حيث العين تنفذ خلال الماء الضحل مترصدة الحصباء الملونة واسماك دقيقة بحجم اصبع الباميا ، تتلامع خلال التيار ، والقرويات المرحات ينحدرن نحو الماء البـــارد كاشفات ، بجسارة وتحد ، عن سيقان مكتنزة راسخة ، تشـي بالرغاب السرية المكبوتة تحت لفائف القماش المتسخ المثقل برائحة العرق الانثوي ، وتحت المآزر الملتفة على اللحم الساخن ..

واستمر لساني يتقافز في فمي والكلمات تنثال من بـين شفتي حتى هجست بأنني سأغص بكلماتي واختنــق ، لكنني استطعت في النهاية أن أكبح جماح لساني بتساؤل حاولت أن اختصر فيه كل ما اعتلج في صدري :

ـ أبي ، لماذا تكون الاشياء أكثر جمالا عندما يبتعد المـــرء عنهـــا ؟

فأجابني بهدوء ، نافثا دخان سيجارته من فمه ومنخريه المشعرين مخوصاً عينيه بتركيز حاد وكأنه يصوب الى هدف معين :

ـ لأن ذكرى الشيء أجمل من حقيقته !..

وأبي وان كان فلاحا أمياً ، ولكن لو تهيأت له حفنة تبـــغ مناسبة وقدح شاي ونار بصطلي علىوهجها مدفئاً عظامه المعطوبة، لتكلم بطريقة غريبة طالما أثارت حفيظة اصدقائه الفلاحين السذج ، وطالما ملأتني بالدهشة والاستغراب ، بل وبشيء من الفخر .

ـ لم أفهم يا أبي !..

فقال :

ـ حسبت أن سنوات ثلاثاً سلختها الحياة العسكرية مـــن عمرك الذي تجاوز الحادية والعشرين ، كفيلة بأن تعلمك اشـــياء كثيرة !..

وتطلع باتجاهي ملياً ، ومن ثم عقف بعينيه نحو النـــار واستغرق في تفكير عميق ، خلت وكأنه قد نسينا جميعا ، ولكـــن تفاحة رقبته الناتئة سرعان ما تحركت ، وانداح صوته الواضح النبرات عبر النار المتراقصة بيننا :

ـ أنت تذكر ما رويته لك عن « الحرب العظمى » التي خضت غمارها مرغماً ككثيرين ؟! يومها كانت البغال وسائط نقلنا الوحيدة،

فعلى صهواتها كنا نجتاز الصحارى الملتهبة او نغوص بقوائمها الراجفة، بسبب البرد والجوع ، في الاوحال الكثيفة كالصمغ ، فتكاد تفشل في اخراج قوائمها من ذلك الوحل الذي كان يصل ، في بعض المرات ، الى مستوى بطونها ، كان الجوع المزمن عدونا اللدود ، فكنا نبيع ، للصوص وقطاع الطرق ، ملابسنا وقبعاتنا - التي كنا بأمس الحاجة لها - لقاء وجبة طعام هزيلة . وهناك كانت الامراض أيضا ، أمراض فتاكة ذات اسماء غريبة كالحمى الصفراء أو الحمراء والطاعون والجذام .. وكانت تحصدنا حصدا فلم يكن غريبا أن ترى جثث البغال النافقة بسيقانها المتصلبة بتشنج وبطونها المنتفخة المغطاة بغطاء اسود غريب سرعان ما كان يتمزق على شكل خرق لم تكن سوى عشرات من الغربان الناعقة بشؤم ، وببطء وغموض كانت تلك الغربان تصفق بأجنحتها لتحطّ على اشجار عارية ، لم نصدق بأنها أورقت في يوم ما . ولم يكن غريبا أن ترى قرب جثث البغال جثث رجال هزيلي الأفخاذ منتفخي البطون ، مقذوفين بوضعيات غريبة وقد انكشفت اجزاء من اجسادهم كان يجب أن لا تكشف !.. كنا وكأننا نراهم في حلم كابوسي لا يطاق لابد لك أن تفكر خلاله باصرار : انه حلم .. انه حلم !.. لحظة واصحو .. سيهز احدهم كتفي فأتخلص من هذا الحلم الكريه !.. ولكنه لم يكن حلما !!.. تصور يا بني كنا نراهم ولا نواريهم التراب .. أقصد الوحل - لانه لم يكن هناك أيما تراب ! - فلو تأخرنا قليلا للحقنا بهم وأصبحنا طعاما سائغا للغربان . في البداية ، وعندما ابصرت أول جثة ، ناشدت رفاقي القريبين مني في ذلك الرتل المديد

الذي لا أول له ولا آخر ، والذي قوامه بغال متراصة واحدا ، أثر الآخر ، يعتليها رجال صامتون مبقعون بالوحل من رؤوسهم الى ركابهم المغروسة في جنوب البغال . ناشدتهم أن يساعدوني في أن نواري تلك الجثة الوحل !.. ولكنهم اولوني آذانا صماء ، فانحرفت عن الرتل باتجاه الجثة ، وعندما أمسكت بيدها محاولا أن أقلبها على ظهرها . لم أر الا وتلك اليد المتصلبة تنفصل ، بصورة فجائية أرعبتني ، عن الجثة لتستقر في يدي وسائل أزرق كثيف هو مزيج من القيح والوحل الذي تشرب به اللحم النتن ، يقطر منها ، ووسط دوامة قهقهات صاخبة انفجرت تحت تلك السماء الصماء النائية شعرت بالغثيان يتصاعد عبر حلقي، وتقيأت كل ما في جوفي الخاوي ، بل كدت اتقيأ معدتي السقيمة . بعدها لم اقترب من أيما جثة . كنت أوليها ظهري متمتماً بخشوع ، على أرواحها المعذبة ، سورة « الفاتحة » .. وذلك كان اضعف الايمان !..

ومن عقب سيكارته التي كادت تنفد اشعل سيكارة أخرى لفها بأصابعه الماهرة اثناء روايته لتلك الحادثة الفريدة ، يوم سيق مع « الجندرمة » ليشارك في الحرب « العظمى » مع الاتراك . وبعدما انساب من فمه ومنخريه دخان بلون الضباب واصل كلامه :

ـ قد يصلح ما رويته الان لان يكون حكاية ممتعة !... ولكن تأكد يا بني بأنه .. لم يكن كذلك !.. ابدا .. لقد كان

الموت بأبشع صوره !•• وهكذا فانك قد ترى وجهك في المرآة أجمل من وجهك الحقيقي !•

ـ ولكنني لا أرى وجهي الا في المرآة فما أدراني انه اجمل من وجهي الحقيقي ؟!

ومرة أخرى استغرق أبي في تفكير عميق متطلعا ، بعينين غائمتين ، لنقطة خلف رأسي ، وكأنه يخترق الزمن بطريقة ما عائدا خمسين سنة الى الوراء ، الى أيام فتوته البعيدة التي نضب ماؤها • تلك الفتوة الصاخبة المتوزعة بين حياة عسكرية مريرة ـ كانت اشبه بحكم الاعدام ـ وبين هرب والتجاء الى غابات النخيل لبعض الوقت ، وعودة ثانية الى الحياة العسكرية ، عودة مصحوبة بصفعات « الجندرمة » • وهرب آخر •• وهكذا طوال عشرة أعوام كاملة •

واستفاق ابي من تأملاته مخوّصا بعينيه نحوي ، قائلا :

ـ وكذلك الاشياء القريبة ، لا تستطيع أن تراها على جمالها الحقيقي الا وأنت بعيد عنها !

ولكنني تساءلت باصرار بعدما اعجبني قوله ذاك عن الوجه والمرآة :

ـ ولكن أيّ بعد بين وجهي والمرآة ؟!

فأجابني بنبرة متهكمة جعلتني اظن ، للحظات ، بأنني لا أزال ذلك الصبي الذي يجرجر أذيال ثوبه في الوحل :

ـ •• المرآة •• أبعد من وجهك المنصوب على رقبتك !••

لم يجانب أبي الصواب فيما قال فها أنذا الان ووهج الظهيرة المندفع من النافذة ، يكاد يلهب عيني المحتقنتين ، اعود لاتذكر بقعة ما مغطاة بشجيرات السوس وانا اخترقها بتوجس خشية أن يداهمني خنزير بري يخفيه الدغل المتماسك ، ولكن ذلك التوجس ينقلب ، الان ، الى ترقب مليء بالانفعال ، ولو حدث وان هاجمني وجرحني الخنزير ، في ذلك اليوم البعيد ، لا كتسبت تلك الذكرى سحرا وجمالا اكثر توهجا !

عندما عاهدت أبي بأن انفذ « وصيته » لم اكن اتصور بأنني ملزم بعهدي ، غاب عن ذهني حديثنا في تلك الليلة التي اعقبت تسريحي من الجيش • ولكن لشدّ ما كنت مخطئاً ؟•• فما أن اسلم أبي روحه وواريناه التراب ، حتى اكتشفت بان ذلك العهد قد تحوّل الى دَين لابد لي من ادائه !•• لقد اكتسب صفة القدسية ، ويا ويلي من ضميري ان لم انفذه فيما بعد !!•• وهكذا حالما كنت أحاول أن احيد عن عهدي ذاك ، كانت عينا أبي تعودان ، رغم الغياب الرهيب ، لتتطلعا في عينيّ باصرار ولترن كلماته في رأسي :

ـ « أوصيك بجميلة •• »

منذ طفولتي ولدي تصور ما ـ قد يكون مبهماً بعض الشيء ـ عن الموت • انه تصوّر لم يتحول الى قناعة متأصلة ثابتة، والا لخرج عن غموضه وابهامه • ولكنني على كل حال بتّ اؤمن بأنَ القناعات ليست وحدها القابلة للتغيير ، فلكل منا قناعاته التي قد لا تكون كذلك لدى الاخرين ، فالحياة بذاتها تحتمل التغيير ،

ولكن يظل هناك ، في نقطة ما من الوعي ، اشياء معينة تتكرر بطريقة ما وعلى فترات زمنية قد تطول أو تقصر ، لا يملك المرء ازاءهـــا تفسيرا واضحاً •

انه تصور مبهم لم استطع تجسيده بهيأة معينة في ذهني • هل أقول بأنني اتصور الموت على شكل انسان او حيوان او شيء من هذا القبيل ؟•• لا ابدا !•• اذن فلاقل بأنني اتخيله ـ مجرد تخيل ـ على هيأة غمامة غامضة ذات أريج خدر تهبط بطريقـــة ما لتنسج خيوطها الوهمية بشكل شرنقة تكتنف المحتضر !•• وفي لحظة غامضة خارج الزمن ـ لحظة سرية ـ يتوحد الاثنان ببعضهما: المحتضر والغمامة ، عندها يكون الموت قد أعلن عن نفسه بقسوة مذهلـــة •

في ذلك اليوم كانت تلك الغمامة تطوّف باصرار فوق سماء منزلنا المسالم • ولكن احتضار أبي طال !•• كان خداه المجعدان قد انخسفا الى الداخل ، ووجهه استطال بصورة غريبة ، وعينـــاه بدتا وكأنهما من زجاج ، وكان ابي ينظر بهما الينا ، نحن الاربعة المطلين عليه بوجوهنا على شكل حلقة احاطت به ، وكأنما من قاع بئر عميقة فبدا وكأنه لا يرانا بوضوح ، ولكنه كان يميزنا بحدسه ، ذلك الحدس الحاد الذي لم يفارقهوهو في آخر لحظاتاحتضاره ، كان يتنفس بطريقة غريبة ومؤلمة وكأن صدره المتشنج على وشـك الانهيار مع كل زفير صافر ينطلق منه • ورغم كونه لم يزل حيـاً • الا انه بدا وكأنه لا ينتمي لعالمنا الذي كنت احسه من خلال دمي المندفع في جسدي بضراوة • قال لي ، بصوت مبحوح غريب صادر

من قاع الحنجرة ، فبدا صوتا لا انسانيا لا استطيع نسيانه الى الابد، قال لي ، بصوته ذاك الذي كاد يطغي عليه بكـــاء أمي ونشيج جميلة ونهنهة حميد :

ـ أوصيك .. بجميلة ..

ووجدتني افكر مع نفسي :

ـ « ولِمَ جميلة بالذات ؟! »

وكأنه قرأ ما دار بخاطري ، فذلك الاحتضار المرير لـــم يستطع اطفاء قوة حدسه الجبار :

ـ انها عهدة في رقبتك !.. لقد اتفقنا .. أنـــا واخي « عبدالباري » ...

وتوقفت للحظات ، ولم ادر هل توقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ، أم توقف بسبب تلك الغصة التي عصرت حنجرته عندمـــا تذكر أخاه « عبدالباري » الذي ذهب بعيدا وانقطعت عنا أخباره ؟ انها لحظات عذاب شجي تذكر المرء بجميع الاشياء العزيزة التي لايملك ازاءها سوى الحسرات :

ـ لقد أتفقنا انا وعمك .. على أن تكونا لبعضكما !... تزوجها يا بني ..

وكما تسقط حزمة من ضياء الشمس من خلال فتحة ضيقة في السحب المتماسكة لتنصبّ على بقعة ما من الارض فتتوهج تلك البقعة بصورة غريبة وسط الخلاء الداكن اللون ، وجدت ذلـــك

اليوم البعيد يتجسد أمامي بوضوح : ها هو ابي وذاك عمي جالسان على الدكة الممتدة على يسار باب الكوخ ، وهناك آخرون قد لا اتذكرهم الان ولكنني اتذكر من بينهم « علوان » الذي ذبح البقرة المحتضرة ، وها انذا متكيء بظهري الى جذع شجرة التوت اقذف جميلة ، بين لحظة واخرى ، بنظرات خاطفة وانا اكتم ضحكة كبيرة احتبستها في صدري بسبب فحيح « علوان » المصاب بالربو • نعم تذكرت ذلك اليوم وكيف انقذنا البقرة ذات الرقبة المتهدلة ، وهي في الرمق الاخير ، من بين براثن الذئاب ، وكيف ذبحناها واقتنصنا العجل من احشائها الدافئة • وكيف سمعنا ، أنا وجميلة ولاول مرة ، من اننا سنكون لبعضنا !••

قلت لابي بصوت غلبه النشيج :

ـ هديء من روعك يا أبتاه •• سأتزوجها !••

ولكنني فكرت ، مع نفسي ، بأنني غير ملزم بذلك !•• فقد كان بيني وبين « الزواج » ـ وبيني وبين اشياء عديدة أخرى ـ خنادق رطبة وخوذ تتلامع عليها شمس « حزيران » ، وعينا « مصطفى غريب » البريئتان لدرجة لا تطاق !•• وان فكرت بالزواج فجميلة هي آخر من افكر بها •• ألا تكاد جميلة تكون امتدادا لخيبتي ؟ ثم ألا تكاد تكون بمثابة أخت لي ؟!

ولكن ابي ثبت عينيه المحتضرتين في عيني المخضلتين بالدموع •• ولم يغمضهما !•• ثبتهما في عيني باصرار •• بل وبقسوة بدت اكبر من طاقتي ، أنا القابل للانكسار مثل زجاج مصدوع

بعدما تشرب دمي بمرارة الخيبة ،•• لم يغمضهما •• ابدا •• ابدا انه لم يغمضهما •• وكان صدره المتهدم يختضّ بفوضى محمومة وكأنه يتشبث بآخر نشقة من هواء العالم المشاع للآخرين ! •• كان يتنفس بايقاع مؤلم وشفتاه اللتان بلون الرماد تنفرجـــان وتنطبقان وفكه يستطيل •• ويستطيل ليسقط أخيرا على صـــدره وفمه الذي تحلبّ لعاباً باردا يفغر بدهشة واستسلام •• واختطفت الغمامة الغامضة أبي ، ولم يبق بيننا سوى جسده البارد المديد • ولكن وميض عينيه المنبثق من خلال اجفانهما المشقوقة ، سقط على عينيّ واخترقهما كسيف من نار •• أوصيك بجميلة •• أوصيك بجميلة •• أوصيك !!

ومثلما التقت عيوننا ، في ذلك اليوم البعيد عندما سمعنا ، لاول مرة ، من أننا سنكون لبعضنا ، التقت عيناي بعيني جميلة ووجدتني افكر :

ـ « أهو قدرنا يا جميلة ان نكون لبعضنا ؟ ام انها ارادة الآخرين ؟!•• »

ولكن •• لا •• وجدت نفسي ارفض وبأصرار أن اكون انا من يقتحم سور ذلك الجسد الذي بدا لي ، في تلك اللحظة ، محرما ، لا يحق لي مسه •• قلت مع نفسي :

ـ « قد يلطخ الدم الذي سينزف ، عندما يتوحد جسدانا ، قد يلطخ النقاء المخيم فوق براءة روحينا !•• قد يلطخ ذلك الدم هذه الاصابع التي ما ارتفعت الا للسلام او للعمل !•• قد يلطخ

ذلك الدم الارض التي ما مرّ ربيع الا وأنت أكلهـا وان كانـت للآخرين ! قد يلطخ ذلك الدم ••• »

ولكن المسألة كانت أعمق من ذلك •• انها اعمق من أن تكون مجرد دم ينزف وجسد ينتهك •• انها تعني التجاوز ، تجاوز اصراري بأن جسد جميلة مجرد سور يقتحم ! لِمَ لا يكون جسدها رحما يمرع بالخصب والأمومة ؟!

ولكن التجاوز !•• التجاوز !•• التجاوز !••• كيـف سيتم ؟! ذلك ما كان يحيرني حيرتي من اصراري باستحالة استطاعتي أن أمس جسد جميلة !••

برعمت اشجار التوت من جديد بعدما نفضت اوراقها القديمة، والعشب القديم تلوى شاحبا على أرض الفسحة الممتدة أمام المنزل، وتفجرت من وسطه سيقان خضراء مزغبة لعشب جديد واعشاش العصافير التي هدلت الريح بعضها ، وجرفت الامطار البعض الاخر، سرعان ما عادت اليها العصافير وعمرّتها من جديد • وحتى سياج القصب والسيسبان ، فقد ازداد تماسكا وتفجرت نباتاته بخضرة كثيفة ، ومن المؤكد ان مياها كثيرة اصطفقت بين حافتي النهر طوال تلك السنة التي مرّت على وفاة ابي • والغمامة الغريبة تلاشـت تماما وكأنها لم تظلل سماء منزلنا المسالم في يوم ما ••

كنت في غرفة « المطبخ » واحشاء بندقيتي « الكسرية » التي فسختها ، مبعثرة أمامي على خرقة مبقعة بالزيت ، وحفنة من طلقات « الصجم » موضوعة على ورقة بيضاء ولهب النار التي اذكتها أمي في

الموقد ، يتلامع على اعقابها النحاسية . كان « سلمان » قد مرّ على المنزل عصر البارحة ، وكالعادة ، دون أن يقف ، طلب من أمي أن تخبرني بأن انتظرهم مساء اليوم عند الدغل . وبطبيعة الحال ادركت بأننا سنقتنص الخنازير التي ما أن اينعت حقول القمح حتى عاثت فيها فسادا ، وتلك كانت المرة الاولى التي اخرج فيها للصيد بعد وفاة أبي ، فكان لابد لي من تنظيف وتشحيم البندقية الصدئـة التي لم تمسسها يد طوال سنة كاملة .

امامي ، في الزاويـة القصيـة ، قبعت جميلة منهمكـة في غـرز ابرتين طويلتـين في قطعـة نسـيج كانت بـين يديها ، وقريبا مني كانت كرة خيوط صوفية تتقافز كلما سحبت جميلة رأس الخيط المتصل بنسيجها ، لقد اصبح من دأبها نسج مثل هذه المسائل التي قد تكون ذات فائدة لصد برد الشتاء ، وعلى كل حال فالصوف كان متوفرا لدينا تلك السنة ، فقد كنا نملك بضعة رؤوس غنم كانت بعهدة أخي حميد الذي كان يتبرم ، في بعض المرات ، من رعايتها مؤملا نفسه بأنه سيتخلص منها عندما يدعى ، قريبا ، الى الخدمة العسكرية .. وبطبيعة الحال كانت تلك فرصة ذهبية يتيحها لنا حميد لنسلقه بألسنتنا الحداد ، فاقول له بلهجـة ناصحة :

ـ لا تتبرم من رعي الاغنام يا اخي ، فهناك في الجيش توجد اغنام لاطعام الجنود ، وقد يعهدون بها اليك عندما يكتشـفون شجرة عائلتك الفلاحية !..

وجميلة تنبري له لتضيف بخبث بعدما تزوي ما بين حاجبيها وترسم في عينيها الجميلتين نظرة جادة :

ـ لو منحني ابن عمي حميد أذنا صاغية لقلت بأن الرعي في الجيش افضل من حمل السلاح !

وحميد يحتد بطبيعة الحال فيثب واقفا بقامته القصيرة الممتلئة ليصرخ بها :

ـ ولِمَ ذلك ؟!.. هل أن حازم كان افضل مني عندما دربوه على الرمي بجميع انواع الاسلحة ؟!

وتجيبه جميلة بالجد والوقار نفسهما :

ـ لا .. أبدا !.. ولكن المسألة هي أنه لا بد لهم من منشار يطيرون به عقب البندقية لتناسب قامتك المديدة !..

وانا بدوري اقاطع جميلة لاضيف :

ـ وما حاجتهم لمنشار ؟! هناك بنادق خشبية تناسب قامته . وبصعوبة بالغة تكتم جميلة ضحكتها لتصرخ بانفعال :

ـ تقول بنادق خشبية ؟! وكيف اذن يدافع عن نفسه اثناء الهجوم ؟!

ـ في هذه الحالة هم بحاجة لعدسات مكبرة ليكتشفوه بين هؤلاء الجنود العمالقة !..

وتغرق جميلة في ضحكتها الصاخبة وتصفق بيديها بمرح لتقول بصوت لاهث :

ـ وهل نسيت ارنبة انفه الصاعدة نحو السماء ؟! ستلفت انظار الاعداء فتصبح هدفا رائعا لرصاصهم !..

وكالعادة ، يتحصن حميد بالصمت امام هذا الهجوم المزدوج .. ويتناول عصاه هاشا بها الاغنام نحو الحقول .

كان حميد هو المسؤول عن رعاية الاغنام ، وانا كنت اقوم بالزراعة ، اما الارض التي اقوم بزراعتها فكانت تعود لاحد « الملاكين » الذين استطاعوا ان يتحايلوا ، يومذاك ، على قوانين « الاصلاح الزراعي » ليحتفظوا بمساحات شاسعة من اخصب أراضيهم ، وتلك الارض التي كنت أقوم بزراعتها تقع الى الشمال من منزلنا بمسافة قد لا تتجاوز عشرين دقيقه سيرا على الأقدام . وهي قطعة أرض ، وان تكن صغيرة ، ولكنها جيدة ، قريبة من النهر تحيط بها أجمات ذات اشجار كثيفة ، ولكن أكثرها اشجار غير مثمرة نبتت من تلقاء نفسها ، كنت أقوم بزراعتها لوحدي وعندما يحين موسم الحصاد ، كنا نتعاون سوية في ذلك . وكانت امور المنزل ، بطبيعة الحال ، بعهدة أمي وجميلة . كان لكل منا عمله الذي يؤديه ، وعندما يتطلب ذلك العمل مساعدة الاخرين ، كانت أيادينا تمتد ، تلقائيا ، للمساعدة ، وتلك ـ والحق يقال ـ صفة حميدة غرسها أبونا في اعماقنا ، فطالما كان يردد ، على اسماعنا ، ان اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفق ، فكان أن جبلنا على حب العمل والتعاون ، فها هي جميلة بعدما انجزت اعمال البيت ، قبعت في زاويتها المفضلة وبدأت بنسجها الذي سيدفيء جسد أحدنا بالتأكيد.

بعدما سكبت أمي الرز المطبوخ في المصفاة ، فاندلق بخرير صاخب ، في اناء وضع اسفل المصفاة ، الماء الحليبي الساخن ، وتصاعدت سحابة بخار عبقة عاليا ، اعادت القدر على قضيبي الموقد، ووضعت في جوفه كمية من الدهن ، ومن ثم ألقمت النار بآخر قطعة حطب وهتفت بجميلة :

ـ جميلة •• قومي وحشي قبضة عشب لاجل العجل الصغير لقد تأخر حميد ولم يعد بالاغنام والعشب !•• اخشى ان يهلك العجل جوعا •• هيا يا حبيبتي !•• اسمعي •• لا تنسي أن تجلبي معك حزمة حطب ••

وانفلتت جميلة من امامي قاذفة بقطعة النسيج وكرة الخيوط التي غرزت بها الابرتين ، في جوف كوة في الجدار • ان جميلة قد تغيرت كثيرا ، فقد تماسك جسدها بصورة مثيرة واكتست عظامها الناتئة باللحم ، وأقسم بانني أكاد اشعر بالارض تهتز تحت وقع قدميها كلما مرت بقربي •

سمعتها وهي تصفق باب المنزل ، وخيم ، في جوف المطبخ ، صمت مطبق ، كان يتبدد ، بين لحظة واخرى ، على صرير ذلك الترباس اللعين الذي أبى أن يستقر في موضعه من البندقية رغم انني شحمته بصورة جيدة • وكان نشيش الدهن يسمع من جوف القدر • وتبدد الصمت نهائيا على صوت أمي التي بدت وكأنها تكلم نفسها :

ـ ها هي سنة كاملة تمر على وفاة المرحوم !••

وعصى الترباس على الاستقرار في موضعه بصورة مضجرة فتضاعف سخطي بالتالي وها هي أمي تعود الى نقنقتها التي حبستها في صدرها طوال سنة مرّت بسلام .. ها هي تدخل في صلب الموضوع بجرأتها المعهودة :

ـ لشدّ ما كان المرحوم يتمنى ان يراك متزوجاً ..

وأخيرا آمنت بان هذا الترباس اللعين بدأ يعاندني بصورة جدية !.. لشدّ ما رغبت ، في تلك اللحظة ، ان امسك بالبندقية من انبوبها ، وبضربة ساحقة اهشمها على شيء ما .. على الجدار مثلا .. أو على اطار الباب !.. وفي حالة الضرورة القصوى على رأسي !!.. ثم .. ثم . مالي أنا وصيد الخنازير ؟ هل أنا المسؤول عن خراب حقول القمح ؟! أم انني سأستطيع اقتناص الخنازير بأكملها بمثل هذه البندقية الأثرية التي يعود تاريخها الى زمن « العصملي » ؟!.. لعن الله صديقي ! « سلمان » ألا تردعه بحة صوته ؟! أم إنه بحاجة الى نابين حادين يغرزهما احد الخنازير في تفاحة رقبته فيحتبس صوته الى الابد ؟!.. ثم .. اللعنة .. ما هذه الرائحة الخانقة ؟ واستدرت نحو أمي ، فوجدتها تتطلع باتجاهي بعينين جامدتين ، إنني اعرفها من نظراتها الجامدة بأنها في طريقها لفقدان اعصابها . تغلبت على سخطي واغتصبت ابتسامة مفتعلة رسمتها على شفتي ، ونبهتها الى الدهن الذي كاد يحترق في جوف القدر ، ولكنها عادت لما بدأته وباصرار اكبر :

ـ لشدّ ما ارغب بأن أراك متزوجا ولشدّ ما كان والدك يتمنى ...

ورغم الغياب الرهيب وجدت وميض العينين المسبلتي الاجفان يخترق عينيّ كسيف من نار وسمعت صوته يرن في رأسي .. أوصيك بجميلة !.. واجبت أمي ورائحة الدهن اصبحت لاتطاق:

ـ ولكنها سنة واحدة يا أماه !.. فكيف يصحّ لي أن أتزوج وقبره لم يجف بعد ؟!..

وافرغت الرز في جوف القدر فأزّ الدهن الملتهب بصخب واجابتني :

ـ لا أحد يُخلد .. البقاء لوجه الله يا ولدي ..

وبعدما نترت المصفاة المقلوبة بحافة القدر لتتساقط حبات الرز الملتصقة بها ، اكملت كلامها :

ـ ... ثم انك لا تقترف عملا رديئاً بزواجك من جميلة .. وهكذا أقحمت أمي اسم « جميلة » في اللحظة المناسبة واكملت :

ـ ... بل انك تنفذ عهدا قطعته على نفسك .. ويا ويل من يخون الموتى !..

حقا انه عهد قطعته على نفسي ، فكيف السبيل الى غير ذلك ؟

ـ ولكنها .. ولكنها صغيرة يا اماه !.. جميلة لم تزل صغيرة !..

وأطلقت ضحكة متهكمة لتقول :

ـ هه .. صغيرة ؟ تكاد تدخل عامها العشرين وتقول صغيرة ؟! من اين اتيت بكل هذا المكر ؟

ولم استطع منع نفسي عن الابتسام رغم الترباس العاصي بين يدي" . كان عذري أوهى من خيط العنكبوت ، فقد اصبحت جميلة امرأة ناضجة لا ينقصها اي شيء ، ولكنها بقيت بعيني" جميلة القديمة .. تلك الصبية الشقية المرحة والمقهقهة بسبب وبدون سبب . لم استطع النظر اليها كأمرأة ستكون زوجة لي .. يكفي أن أقول : جميلة .. لتطل" علي بذلك الوجه الطفولي وتينك العينين الحالمتين، وتلك الضفيرة التي كانت تقذف بها الى الخلف بحركة خاصة .. انها جميلة التي كانت تناكدني صباح كل يوم ،تحت شجرة التوت فتسلب النوم عن عيني" !..

وعادت أمي لتتساءل ، هذه المرة ، بغضب :

ـ صغيرة ؟ تزوجها وستمنحك اثنين .. اثنين كل تسـعة اشهر !! أنا أعرفها ، انها امرأة خصبة كأمها رحمها الله التي لم تهنأ بحياتها .. ثم ألم تعاهد أباك بذلك ؟!..

نطقت بالسؤال الاخير بصوت مرتفع ، فأجبتها باقتضاب :

ـ نعم !..

ـ اذن تزوجها !..

ـ حسنا .. سأرى !..

ولأول مرة أنفجرت أمي صارخة ، وانا اعرفها : عندما تصرخ تكون قد فقدت اعصابها :

ـ سأرى !.. سأرى !.. يجب أن تقرر الآن !.. ان جميلة خطيبتك .. ولن تجد أجمل منها !..

يا لله !•• لم تكن المسألة أن أجد أجمل منها •• بل •• كيف افهمها يا الهي ؟! وفجأة وجدت الترباس يلين تحت اصابعي لينسل بخفة في موضعه !•• وعندما استدرت نحو امي طالعني وجهها الذي يدأ مثل بالونة على وشك الانفجار •• وكان لهب النار الخامـدة يندلح عبر طيات فوطتها ليرتقي ملامح وجهها الغاضب • ولم أجد بداً من أن ابتسم برضوخ واستسلام لاقول لها بصوت هادئ :

ـ حسناً !•• سأتزوجها !••

وسقط فكها بدهشة ، وانقلب غضبها الى ارتباك يمازجه فرح طاغ شعّ ملء عينيها :

ـ حقاً ؟•• ولكن متى ؟ لتحسم القضية يا ولدي !

ـ بعد شهر •• في هذا الربيع يا أماه !••

وانطلقت زغردة ثاقبة من فمها العجوز ، رددت الجـــدران الطينية السوداء صداها ، وتلك كانت اول مرة ارى بها أمي وهي تزغرد !•• وفي اللحظة نفسها دخلت جميلة محتضنة حزمة حطب ، وكأنها هجست سبب تلك الزغردة فقد تقدمت من الموقد لتركن امامه حزمة الحطب وجفناها مسبلان بخفر !•• ولم أدر هل أنّ ذلك الاحمرار الذي غزا وجنتيها كان بسبب لهب الجمرات المستعرة في الموقد ، ام لشيء آخر ؟!

وما هو ذلك الشيء الآخر ؟ هل فكرت بما اعتمل في اعماقها يومذاك ؟•• قد تكون جميلة لم ترفضني مع نفسها ، بل انني لعلى ثقة بأنها قد احبتني ونظرت لي نظرتها الى رجلها القادم ، منذ ذلك

اليوم الذي سمعنا به ، من تحت شجرة التوت ، بأننا سنكـون لبعضنا !•• ولكن لنفرض بأنها رفضت !•• فهل كان لرفضها أيما تأثير على ذلك القرار الذي نطقت به وشفعته أمي بزغردة ثاقبة ؟! لم تكن المسألة قبولها أو رفضها ، بل كان المهم أن أقرر أنا •• وأنا فقط !•• والان وانا مضطجع على سريري وسماء الظهيرة تنخطف ، من خلال النافذة ، بوميض فسفوري لا يحتمل ، وبعد كل هذه السنوات التي مرّت ، اعود لذلك اليوم فيتضاعف سخطي تجاه نفسي ، بل واشعر بالرعب من تلك الهيأة التي بدوت بها يومذاك ! اية ابتسامة غبية رسمتها على شفتي ؟! وأي تعليل غريب كان تعليلي لاحمرار وجنتيها ؟ لِمَ لم يكن ذلك الاحمرار بسبب الغضب ؟ الغضب لاسباب عديدة اولها هو تجاهلنا المطلق لرأيها ، وحتى أن يكن ذلك الرأي مطابقاً لآرائنا !•• وقد سألتها ، فيما بعد ، عن ذلك اليوم الذي انطلقت به زغردة أمي ، ولكنها اكتفت بأن اسبلت جفنيها وتحصنت بالصمت وجوابها ذاك كان أبلغ جواب !•• وفي الحقيقة لم ادرك خطأي الا في ليلة زفافي ، وحتى ادراكي ذاك كان ادراكا قاصراً ، وبالتالي نان قراري الذي قرّ رأيي عليه ، في تلك الليلة ، كان أيضا قرارا مرتجلا جاء بسبب عينين مخضلتين بالدموع ، كما ان قراري الذي سبقه ، يوم وافقت أمي على زواجي بجميلة ، كان بسبب وجه غاضب ، أو - من يدري - قد يكون بسبب ترباس بندقية !!•• وحتى قراري الاول فقـــد كان بسبب وميض عيني محتضر !•• أوه ••• لقد بدأت اشتط بصورة مربكة ، وقد يعود ذاك لهذه الحمى الآخذة بخناقي ، او بسبب هذه الشمس التي ما ان

تعامدت على الارض ، الا وتلبسني هذا الهاجس الفاجع المرير !
وعلى كل حال يبقى الشيء الاكيد هو أن جميلة قد احبتني كما
احببتها ، اما ما حدث فيما بعد فقد جاء بسبب ذلك التبلد الذي
يصيب الانسان في بعض المرات فيفقده حس الادراك السليم .

خلال الشهر الذي سبق زواجي انتهيت من اعداد الترتيبات
اللازمة . وفي آخر يوم بدأت وأمي بوضع اللمسات الاخيرة
.. وكانت الغرفة العلوية قد أختيرت لزفافنا ..

بدأت أمي تعيد ترتيب بعض الاشياء التي كانت مرتبة على
احسن وجه في الاساس : ترفع وسادة لتعيدها الى موضعها بعد أن
تمسحها براحة يدها وتربت عليها بحنان . أو تنفض غبارا موهوما
عن قطعتي النسيج المعلقتين على جداري الغرفة المجاورين ، حتى
انني بدأت اخشى أن تتمزق تلك القطعتان اللتان اعتز بهما ايما
اعتزاز !.. أو تزفر على المرآة المعلقة على الحائط ، بشدّة حتى
تجحظ عيناها لتمسحها ، بعدما تتندى ، بخرقة في يدها ، ولولا
ثقتي برئتي أمي لمنعتها من الاستمرار بذلك الزفير المتواصل خشية
أن يغمى عليها !.. وعندما هدأت أخيرا طوفت بنظرها عبر الغرفة
ومن ثم بدأت تتحدث ، بصوت حالم ، عن الطقوس التي يجب
اتباعها يوم الزفاف ـ وبطبيعة الحال امتدت يداها من جديد نحو
الوسائد والمرآة وقطعتي النسيج ..

ـ « عشر حبات من الهيل توضع بين اصابع اليدين ، وأمامها
على كنبة منخفضة ، توضع صينية واسعة تثبت مع استدارتها

شموع مضاءة ، وفي الوسط يوضع اناء مملوء بالحناء ، وكذلك توضع كأس لبن واغصان آس او نعناع •

المصحف الكريم مفتوح بين يديها على سورة « يس » وعلى احدى الصفحات توضع مرآة صغيرة ، على جانبيها تقف صبيتان في يد كل منهما صحن به كمية من السكر ، وبين لحظة واخرى ترشان عباءة العروس بذلك السكر • حالما ينتهي الشيخ من « عقد النكاح » وتجيب العروس بـ « نعم » تنطلق الزغاريد وتقفل أم العروس قفلا ـ تكون قد احضرته مسبقاً ـ فوق رأس العروس ، وبما أنّ جميلة يتيمة ، وانا اكاد اكون بمثابة أمها بعدما ربيتها على يديّ هاتين ، فأنا اذن من ستقفل القفل فوق رأسها •• » ••

ولكنني اعترضت ملتفتا باتجاهها بعدما انتهيت من تثبيت ستارة النافذة :

ـ حسناً يا أماه ، ولكن خبريني ، رحم الله امواتك ، ما شأن القفل بعرسي المتواضع ؟!

واجابتني ، وهي تعيد للمرة الالف ، مسح المرآة المعلقة قرب النافذة :

ـ يالك من ماكر !•• حقا لا تعرف السبب ؟!•• القفل يابني سيفتح فيما بعد عندما تنال وطرك !•• هل فهمت الان ؟!

ولم أدر لِمَ تذكرت ، في تلك اللحظة ، صندوق جميلة الخشبي القديم ؟! ولكنني اعترضت للمرة الثانية :

ـ لا استطيع ان افهم كيف تستطيع الامساك بمصحف به

مرآة وبيدين مضمومتين بين اصابعهما وضعت عشر حبات هيل ؟!

ولكنها لم تجبني هذه المرة بل اكتفت بأن رسمت على شفتيها ابتسامة حائرة •

وازحت الستارة جانبا فواجهتني قمم الاشجار المتراصفة في الاسفل ، ومن خلال الفسحات المفتوحة بينها ، طالعتني حافتا النهر المختفيتان تحت غطاء نباتي متماسك ، وخلفهما امتد السهب الاخضر الذي يكتسي كلما امعن في البعد بلون بني لينتهي حيث التلال الشرقية المتراصفة ترتفع بهيأة جدار بنفسجي خفيض •• الى اليسار، عبر الممر المغطى بالحصباء ، رأيت جميلة تدب باتجاه الطريق وبيدها صفيحة فارغة • كانت ترتدي ثوبا بنفسجيا يصل الى كعبيها ، وضفيرتها الوحيدة تتلوى كلما حركت رأسها جانبا • تخطت الطريق واستدارت يمينا حيث شجرة السدر ، ومن ثم اتجهت نحو حافة النهر واعتلتها في النقطة التي تخفّ بها كثافة الاشجار واختفت في الجهة الثانية حيث المياه المدومة • وانتبهت الى صوت أمي التي بدت وكأنها أبصرت جميلة بعيني المثبتتين على النهر :

ـ الملعونة اصرّت على احباء الماء لتغسل الملابس المتسخة ! قلت لها : لا يصحّ ذلك يا ابنتي فانك ستزفين مساء الغد لابن عمك حازم ، وهناك أمور اخرى يجب ان تشغلي نفسك بها لا أن تغسلي الملابس !•• ولكنها اسبلت جفنيها ورسمت على شفتيها ابتسامة باهتة • هكذا ، بين عشية وضحاها انقلبت ابنة عمك الماكرة الى صبية خجولة !••

حقا لقد طرأ تبدل واضح على سلوك جميلة • منذ ذلك اليوم الذي انطلقت به زغردة أمي ، اصبحت تتحاشى النظر في عينيّ • وان جمعنا مكان واحد حاولت بشتى الوسائل والحجج أن تنسل هاربة •• اين ذهبت تلك الصلابة والروح المرحة ؟! هكـــذا •• اكتشفت فجأة بأن جميلة ليست أكثر من نسوذج آخــــر لامي المستسلمة لقدرها • اية قوة ستضعك امامي في يوم ما لنحدّق بعيني بعضنا بصدق وشجاعة ؟••

وشاهدتها وهي ترتقي حافة النهر والصفيحة الطافحة بالمـاء ترتج فوق رأسها • وبتوازن وانسياب بدأت تقتحم الفراغ بجرمها البنفسجي المؤطر بخضرة الارض المزغبة ، ومن مكاني ، خلف نافذة الغرفة العلوية ، لمحت الماء يترجرج داخل اطار الصفيحة المربـع • ولكنها رأتني ، رغم أن رأسها لم يرتفع باتجاهي ولكنني اجزم بأنها رأتني ، تلك طريقتها الخبيثة في النظر : تنظر دون ان يحس الاخر ذلك : عندما كنا نواصل العمل في بناء المنزل لحدّ الارهاق ، كانت تراقب ابي وهو على قمة الجدار يواصل رصف اللبنات واحدة فوق الاخرى ، كانت تراقبه دون ان ترفع وجهها باتجاهه ، فان وجدته منشغلا عنها ارتكنت قرب الجدار لترتاح لبعض الوقت ، وحالما كانت تنتبه بأنّ ابي قد لاحظ تقاعسها في العمل كانت تستوي واقفة لتناولني اللبنات والطين بحمية واندفاع حتى أن بعض القطع الصلبة كانت تسقط من يدي وتكاد تسحق قدمي ، ولكنني رغم ذلك كنت اغرق في ضحكة اخفيها بسعال متقطع • انهـــا رأتني وها هي خطواتها تتعثر على الطريق الممهد وصفيحة الماء ترتجّ بعنف

والماء يندلق منها لينسكب على وجهها ورقبتها ولينسلّ عبر فتحة ثوبها الى الداخل ••

ـ اللهم اجعله خيرا !•• أراك تضحك يا حازم ؟!

واتبهت الى نفسي وانا أضحك وكانت أمي تعيد فرش الاغطية والوسائد من جديد :

ـ لا شيء •• مجرد طريفة تذكرتها •• نسيتي أن تخبريني يا أماه عن فائدة حبات الهيل والسكر واغصان الآس والحناء واللبن ••؟

ـ انها تجلب البركة لزواجكما •• الهيل ذو رائحة طيبة ، اذن ستكون حياتكما طيبة مثل تلك الرائحة باذن الله •• وكذلك أغصان الآس فاضافة الى رائحتها الزكية هناك خضرة اوراقها وحياتكما تكون مثلها خضراء يانعة واللبن ابيض والبياض هو رمز الطهر والنقاء وكذلك ستكون حياتكما حلوة كحلاوة السكر !••

لم اكن راغبا بعرس صاخب ، ولكن ما العمل ، والاقارب والاصدقاء لا يتذكرون قرابتهم ولا صداقتهم الا عندما ينطلق عويل فاجع أو زغردة ثاقبة من بيتك ؟! وهكذا •• عندما رجعت من المدينة الممتدة غربا خلف غابات النخيل ، بعدما انجزت بعض الامور المتعلقة بمثل هذا اليوم ، فوجئت بمنزلنا غاصا بخليط عجيب قوامه نساء محدودبات الظهور ، لم أدر في أي قرن ولدن ؟ بل كنت اتصور بأن التراب قد غيب أكثرهن !•• وقريبات كن قبل اشهر مجرد صبايا يكاد المرء يشمّ رائحة الحليب من افواههن ، فاذا بهن اليوم

أمامي وكل واحدة تحتضن طفلها الثاني أو الثالث والفوطة المعهودة تؤطر وجوههن ، وذيلها يطرّ ، خلف ظهورهن ، على الارض •

تحلقن حولي وبللن وجنتي اللتين خرجتا ، قبل ساعة ، ناعمتين متوردتين من بين يدي الحلاق بللنهما بلعابهن الدافيء واصداء قبلاتهن ترن في اذني المحمرتين اللتين اجتث ملقط ذلك الحلاق اللعين، الشعر عنهما • اما لساني فحدّث ولا حرج • كنت اديره في فمي الناشف واردّ على تحياتهن بشتى الصيغ والاساليب ، وفي لحظات الصمت الطارئة ، كنت أدسه في الثقوب الكثيرة المبثوثة بين اسناني النخرة متذوقا بقايا اكلة اثيرة ازدرتها في المدينة • وانتهيت من قريباتي الاثريات لأبدأ بقريباتي الفاتنات ، بدأت اتنقل بنظراتي عبر وجوههن الملونة وحواجبهن المنتوفة وعيونهن التي شوهها الكحل والهبتها الرغبات الداعرة وهن يتخيلن منظري الاسطوري وانا منفرد بضحيتي في ذلك الوكر المنفرد فوق السطح •

في غرفة اخي حميد الواقعة الى يسار باب المنزل ، بمحاذاة غرفتي ، جلسنا على الاسرة والارائك المصنوعة من جريد النخل • وضاقت الغرفة ، رغم سعتها ، بنا مما اضطر البعض أن ينتصبوا واقفين على اقدامهم • كانت التعليقات البذيئة تنطلق في جوف الغرفة المثقل برائحة الاجساد الزنخة ودخان السكائر • كانت العيون تحدق بي بخبث والتعليقات تزداد حدة بمرور الوقت والابتسامة المرتسمة على شفتي تضيق أكثر وتتقلص بالتدريج حتى تكاد تنقلب الى تكشيرة مقرفة ، ولكن ظهور الشيخ « رمضان » المؤذن وبصحبته بعض الكهول ، انقذني مما قد لا يحمد عقباه ، وحالما ولج الغرفة

بوقار ، بدا مناسبا لعمامته المستديرة فوق رأسه بانصياع ، هدأ اللغط بعض الشيء ، فتناهى لاذاننا الصخب الآخر الصادر عن الغرفة العلوية حيث العروس • كان صخبا منغوما يصاحبه الدقّ على الدفوف والاغنيات المكرورة ، ولم استطع منع نفسي عن الابتسام عندما فكرت باحتمال انهيار السقف تحت ثقل الاجساد الصاخبة في الاعلى !!••

عندما أطلت أمي بوجهها من باب الغرفة راجية الشيخ رمضان أن « يتفضل ! » استدارت العيون المتلامعة باتجاهي وانطلقت التعليقات الشبقة من جديد متناسية ، هذه المرة ، وجود الشيخ رمضان • بعد دقائق انطفأ صخب النساء ، فأرهفنا الاسماع . تناهى الينا صوت الشيخ وهو يردد بنبرة منغومة :

- •• زوّجتك •• من حازم •• ابن •• بمهر معجل قدره ••• ومهر مؤجل قدره ••• فان قبلت •• فقولي نعم ••• زوّجتك ••• موكلي ••• قدره ••• مؤجل ••• قولي نعم ••• زوجتك ••• من ••• قولي نعم !••

وصمت الشيخ •• وفجأة انطلقت الزغاريد •• لابد انها قالت : نعم •• وتخيلت القفل الذي بين يدي أمي وانزلاق اللسان الحديدي مصحوبا بتكة خافتة ضاعت في هدير الهلاهل والاغاني ••

قبل أن يودعني الشيخ رمضان صافحني بطريقته الخاصة التي ذكرتني بأنني لم أمنحه « حلاوة العرس » وهكذا انهيت تلك المصافحة بأن دسست يدي الطليقة المسكة بدينارين مدعوكين ،

بين اصابعه التي اقتنصتهما بحيوية لم تناسب شبكة التجاعيد المنتشرة على وجهه المطوق من الاعلى بعمامة كانت بيضاء في يوم ما !

في ساعة متأخرة من الليل هدأت الضجة بعض الشيء وبقي الاقارب الخلص والقريبات المحدودبات الظهور •• وكذلك بقي الاصدقاء الحميمون وبضمنهم سلمان وخالد • وعندما طلبت منهم أن لا يتجشموا عناء الانتظار ـ وفي الحقيقة كانت رغبتي الوحيدة أن أنفرد بنفسي لبعض الوقت ـ ولكنهم أبوا بشمم قائلين بنبرة رجولية :

ـ كيف نتركك ؟! نحن لك لمثل هذا اليوم !

وتناول بعضهم دفوفا مخضبة بالحناء وبدأوا يدقون دقاً رتيباً ، غامزين لي بأعينهم الشبقة • وتحت الحاحهم والحاح أمي لم أجد بدا من أن أرتقي السلم مصحوبا بتمتمات أمي التي كانت مزيجا من آيات وسور مبتورة الاواخر وادعية خاصة لابد انها حفظتها ـ عن ظهر قلب ـ لمثل هذه الامسية •

دفعتني أمي ، برفق ، الى جوف الغرفة المشع على شكل انفجارات ضوئية صغيرة تومض هنا وهناك حيثما ثبتت الشموع ، قرب السرير وتحت المرآة وقرب ستارة النافذة المسدلة • ووارىت الباب خلفي ••

الى الامام ، في وسط الغرفة حيث الضوء الرأعش يهوم بحيرة ، طالعني شبح ابيض ممسك بكأسين زجاجيتين ممتلئتين الى منتصفهما بكمية من الدقيق ثبتت فوقها ـ في كل كأس ـ شمعة

بيضاء دقيقة تتوهج بوهن ، لينداح ضؤها الراعش تحت القماش الابيض الشفاف المنسدل على وجه خمنت بأنه لابدّ ان يكون وجه جميلة .

بعدما تناولت منها الكأسين ووضعتهما جانبا ، رفعت النسيج الشفاف فطالعني وجه ملون يكاد يشبه وجه أبنة عمي جميلة ! قبلتها في الجبين ، ففوجئت بالبشرة الباردة لحد الجمد ، ووجدتني اتساءل بصوت راعش :

ـ أتخافين يا جميلة ؟! هيا افتحي عينيك لارى اية سعادة تشع منهما؟

ورف جفناها للحظة خاطفة لتسبلهما فيما بعد ، ولكنها كانت كافية لان ألمح ، وبوضوح عينيها المتلامعتين ، وأقسم بأن لمعانهما كان بسبب الدموع المحتبسة فيهما . تساءلت :

ـ أفي مثل هذه الليلة تبكين ؟!

وارتجفت شفتها السفلى الممتلئة مثل ثمرة ناضجة ، وانفلتت دمعتان ، ملطختان بالكحل ، من تحت الجفنين المسبلين . انحدرتا ببطء نحو زاويتي الفم راسمتين على الوجنتين المتوردتين خطين متعرجين ، في تلك اللحظة فقط تناهى لسمعي قرع الدفوف من الاسفل ، كان قرعا غبياً لا يناسب ، على الاطلاق ، وقفتنا الحائرة تلك وسط ضوء الشموع الجنائزي الشاحب ، وبعيداً .. بعيداً من جوف الليل المدلهم انطلق عواء غامض أعقبه بكاء طفل في الاسفل . كنا واقفين في وسط الغرفة ، والى اليمين كانت ستارة النافذة

الفستقية اللون تتأرجح بانسياب ، وفي المرآة المعلقة قرب النافـذة رأيت انعكاس الصورتين المعلقتين على الجدارين المجاورين ٠٠ وخلف جميلة ، طالعني السرير العريض ذو الكرات النحاسية الاربع في الاعلى ، كان غطاؤه الاخضر الفاتح المطرّز الحاشية بزخـارف زرقاء دقيقة ، مستويا باستقامة وكأنه لم يمس في يوم ما ولم يدفأ بحرارة جسد !! وفي منتصف الجدار الممتد خلف السرير طالعتني قطعة النسيج وقد رسم عليها البيت المقدس بلون ابيض محايد ، وفي مقدمة الصورة ظهر بدويان يعتليان سنامي جمليهما المرسومين بلون بنيّ غامق مؤطر بخط اسود يكاد يوحد البدويين بهما ، والى الخلف ارتفعت سماء رمادية تنتهي بحافة الصورة ٠٠ يسارا في الفسحة المحصورة بين حافة السرير السفلية والجدار الجانبي ، الذي على يساري ، ارتفعت طاولة خشبية مغطاة بغطاء من لون غطاء السرير نفسه ، وضع فوقه اناء معدني مستدير ضحل بعض الشيء ، توسطته كأس مملؤة باللبن ، تحف بها شموع بيضاء مشتعلة تتخللها اغصان آس خضراء ٠ على الجدار الجانبي امتدت قطعة نسيج ثانية توسطها ، وبحجم كبير ، فارس عربي اعتلى صهوة حصان أسـود رفع قائمتيه الاماميتين عاليا ونفخ خطمه بكبرياء ، والفارس ممسك بسيف مسلول ، وعلى جبهته صورة هلال ، وبعيدا ، خلف الفارس ، اصطف الاسرى « الصليبيون » بثيابهم المزركشة وخوذهم ذات الصلبان ودروعهم المصفحة ، وعلى جانبي الاسرى ، بحجم اصغر من صورة الفارس الاول ، وقف فارسان عربيان آخران في يـد كل منهما رمح يشير سنانه نحو الارض ، وبدت سماء الصورة حمراء

داكنة الحمرة تتعامد تحتها ، خلف الاسرى ، أشجار نخيل رمادية اللـــون .

وفي الاسفل كان القرع قد ازداد وكأنّ صبرهم قد عيل وهم في انتظار الدم المسفوك ، الدم الذي يشد سرة الجنين بمشيمة الام ويشدّ الجثة بالأرض ايضاً .

كانت رائحة الشمع المحترق ورائحة الآس والبخور التـي ضمخت بها المفارش والوسائد ، تمتزج ببعضها لتعبق برائحة خدرة تكاد تكتم الانفاس .

ـ انظري يا جميلة ...

ورفعت يدي الاثنتين ، نصبتهما هكذا .. في الفراغ الملطخ بضوء الشموع الكابي ، فبدتا وكأنهما يدان من شمع . واكملت :

ـ انظري !.. انهما يدان محايدتان لا تنتميان الى هذا الضوء الداعر ، الذي يكاد يخنقني برائحته الثقيلة ، ولا الى ذلـــك النقر الغبي !..

وتركتهما لتسقطا الى جانبي باسترخاء مؤلم مشابه للشلل ، ورأيت عينيها تومضان من تحت جفنيهما لتنصبا عليهما باصرار . وشعرت بالحيرة من تينك اليدين البريئتين المهملتين على جانبي ، قلت بصوت أقوى :

ـ هل تصدّقين بأنني أحب ان تظلا مجرد يدين بريئتـــين ؟!

ورأيت عينيها ترتقيان جسدي بانسياب لا يـــرد لتستقرا

بنظراتهما على عينيّ اللتين شعرت بهما تؤلمانني لشدة تحديقي في وجهها . وعلى جانبي شعرت بيدي الاثنتين وهما ترتجفان ، وبصوت بدا وكأنه ليس صوتي ، قلت :

ـ البراءة ليست كلّ شيء !.. قد يلبس الغباء لبوس البراءة! هل رأيت عيني قتيل ؟! .. انا رأيت !.. هناك قرب الخنادق الرطبة رأيت عيني « مصطفى غريب » .. كانتا بريئتين لدرجة لا تطاق !.. البراءة اغتالتنا في الماضي .. ولكن ما العمل ويداي هاتان محكومتان بالبراءة ؟.. ما العمل ؟!..

ورأيت عينيها تجمدان بحيرة ، فأدركت بانها لم تفهم ما اعنيه .. ومن الاسفل كان النقر الرتيب يتصاعد عبر دم الليل الاسود اللامتناهي ، وكأنه نبض عالم على وشك الانهيار . كان الومض الهزيل المتفجّر في جوف الغرفة قد فشل تماما في انكار وجـــود ذلك الليل الذي تشرب بعتمته كل شيء كما يتشرب النسيج بدم القتيل .

انحرفت باتجاه النافذة وأزحت ستارتها ، ومن ثم فتحـــت ضلفتيها . مع اندفاع الهواء البارد الى جوف الغرفة الخانق ، ارتفع النقر على الدفوف ، ودون ان استدير ، سمعت حفيف ثوبها وشعرت بأنفاسها الدافئة تلفح رقبتي الحليقة . وبعيدا ، في العتمة المخيمة لمحنا نارا تتأجج بحدة وكأنها نجمة وحيدة هبطت من سمائهـــا واختارت الارض . وكانت عناقيد النجوم المتراصة تتلامع في الخلاء الاسود ، وكما حدث في آخر ليلة لنا في القرية ، لمحت في اقصى الشرق ، على يساري « بنات نعش » والاخت العرجاء لا تـــزال

تحث الخطى لتلحق بأخواتها الست ، وكان « درب التبانة » يطرّ قبة السماء . وسمعت صوتي ينطلق عبر صمت الليل الجارح المترنح تحت وقع ذلك النقر الغبي :

ـ هناك كنا نرى النجوم ايضا . كانت بيضاء مسالمة ، تنبض بوداعة . ولكن النجوم الحمراء لطائرات الاستطلاع سرعان ما تقتحم وحدتها لتتوهج بايقاع جارح ، وكأنها عيون وحش يترصدنا بانتباه .. كانت طائرات استطلاع الأعداء تحوم فوق رؤوسنا باستمرار ، ولأن السماء معتمة ، كنا لا نرى سوى وميض مصابيحها الحمراء وهي تشتعل وتنطفيء . كانت تلك الطائرات تمرق عاليا فيصلنا هدير محركاتها على شكل دمدمة مكتومة . وعلى الارض كانت مدافعنا المزينة بصورة جيدة ، صامتة يتآكلها الصدأ . كانت القنابل الفسفورية تنفجر فجأة فتختفي النجوم تماما ولا يبقى سوى وميض متوهج يعرّي التلال والوهاد وظلالنا المشبوحة قرب الخنادق . وببطء كان الظلام ينسدل من جديد والنجوم تظهر ثانية ، وثانية تعود المصابيح الحمراء لتتوهج بايقاع جارح . ترى ما الذي كنا ننتظره ؟ هذا ما كنا نعرف الاجابة عنه في البداية ، ولكننا اكتشفنا ، فيما بعد ، بان تصورنا ذاك كان محض خيال !.. هل كنا ننتظر أن يبدأوا هم ؟! ولكنهم بدأوا .. قبل شهر واحد من مجيئنا الى الجبهة .. في الخامس من « حزيران » بدأوها ، وبستة ايام واجهونا بجبهات جديدة امتدت مئات الكيلومترات شرقاً وشمالا وغرباً !..

في النهار كنا ننتظر أيضا ، وكانت الشمس تتدلى فوق

خوذاتنا ، وشعاعها الساخن يتلامع على حديد مدافعنا وبنادقنا التي تندت اكفنا فوقها .. لقد كاد الانتظار يتحول الى شجرة عقيمة ضربت بجذورها في الهواء .

عقب وصولنا الجبهة الشرقية ، بدأنا نحفر الخنادق ، واستمر الحفر لفترة طويلة ، حتى اننا كنا نتهكم على ذلك بقولنا بأنه قد جيء بنا الى الجبهة لنتعلم الحفر لا لنحارب . في ظهيرة احد الايام ، وكانت الشمس قد تعامدت على الارض باستقامة ، فبدأ العرق يتصبب من جباهنا وترطبت به قمصاتنا الخاكية تحت الاباط والاحزمة والظهور . في تلك الظهيرة سمعته لاول مرة . كان قريبا مني يشاركني في الحفر ، ولكنني لم الحظه من قبل . سمعته يهتف بي وكأننا على معرفة سابقة :

ـ عمق الحفر يا بني !.. عمقها أكثر !.. ما ادرانا قد تصبح قبورا لنا ..

لقد نطق تلك الكلمات بطريقة غريبة فيها مسحة مرح لا تنسجم مع مضمون الكلمات المأساوي .. ولو حاولت ان أقلد طريقة كلامه لمئة سنة لما وفقت !.. عندما استدرت نحوه رأيته فتى قميئاً يتكىء على مقبض فأس يطوله !.. كانت تعتلي جبهته لمة شعر شهباء ، فبدا وكأن رأسه قد أدخل في أتون ملتهب للحظات، وأخرج فينا بعد وقد افتقد شعره لونه الاصلي فلا هو بالاسود ولا بالاشقر . اما وجهه فبدا وكأنه رئة خروف مدبوغة . كان من الصعوبة القصوى تمييز الحدود الفاصلة بين شعر رأسه وشاربه ووجهه . لقد بدت ملامحه وكأنها مندغمة ببعضها بطريقة عشوائية

حتى انه خطر لي ، في تلك اللحظة ، كيف يستطيع حلاقة ذقنه دون أن يحز تفاحة رقبته الناتئة ؟! عندما لاحظ أنني قد انتبهت اليه ، أدار وجهه لناحية ثانية واستمر في توزيع كلماته اللاذعة وجمله المبتورة ، التي تتكرر خلالها لازمة ثابتة هي « يا بني » ، عشرات المرات ، على الجنود المحيطين به والمنهمكين في الحفر وكانت «يابني» تلك لا تناسب قامته القميئة على الاطلاق ! فوجدت نفسي انفجر ، فجأة في ضحك متواصل . وبعيني المخضلتين بالدموع ، لمحته وهو يقذفني ، بين فينة واخرى ، بنظرات « فأرية » خاطفة من عينيه الصغيرتين اللتين كانتا بسواد الفحم . ولكنه لم يأبه لضحكي ، فقد استمر في توزيع كلماته اللاذعة هنا وهناك .

في احدى الليالي المعتمة بادرني فجأة ودون سابق انذار ، حتى انني انشدهت للحظات عندما لفحت انفاسه أذني . كان قد اقترب مني دون ان انتبه اليه :

ـ اراهنك بأننا لن نحارب !.. انها مجرد لعبة . الحرب لا تكون بهذه الطريقة البائسة : أن نظلّ ننتظر الى أن يبدأوا هم ، لنردّ عليهم ، ولكن بطريقة اخرى : أن نحفر الخنادق ونظل ننتظر من جديد !.. الحرب لا تكون بهذه الطريقة البائسة يا بني .. أنظر !.. لقد بدأوا هم في هذا الصيف الكافر !.. وبستة ايام ! ستة ايام فحسب .. واجهونا بجبهات جديدة امتدت غرباً وشمالا وشرقاً ..

وطوّف بيده بحركة دائرية مشيراً الى الجهات الثلاث التي عناها . سحب نفسا عميقا من سيكارته المخفية داخل راحة يده

المكورة ، وعلى وهجها رأيت عينيه الصغيرتين وتلك النظرة الفأرية القلقة تتواثب فيهما •

ـ انها حرب أشباح يا بني !•• نحن لم نحاربهم ، انما هـم يحاربون ظلالنا ! ونحن ننتظر •• (الاوامر) تقول أن ننتظر !•• انها لعبة مملة تفقد الانسان صبره !•• أتدري بماذا فكرت ؟!

وعلى وهج سيكارته التي سحب منها نفسين متعاقبين ، لمحت عينيه القلقتين وهما تقذفانني بنظرة متشككة ، وكأنه ندم عـلى تساؤله الاخير •• بعد لحظات أكمل حديثه مغيرا الموضوع :

ـ لا تظنني انسانا يتعجل الامور !•• أبدا •• أنا صبور صبر الجمل !•• هل تعلم يا بني بأنني صياد ؟ صياد سمك !•• كنت صيادا قبل تجنيدي •• الصيد مهنة تعلم الانسان الصبر • هكذا •• تتندى راحة يدك على خيط السنارة المستقرة في القاع •• قد يطول الانتظار •• ساعة •• اثنتين •• قد تكون حصيلة يوم كامل لا شيء !•• تعود بساقين خدرها الانثناء طوال ساعات النهار ، وبثوب مبلول ملطخ بالوحل وبمعدة خاوية لم تتبلغ سوى بأعشاب برّية مالحة تقضي على الجوع مؤقتا ، ولكنها قد تبليك باسهـال متواصل يكاد يقذف بأمعائك خارجا ، ولابد لك من لبنة ساخنة تضع مؤخرتك فوقها ولساعات طويلة حتى يتوقف ذلك الاسهـال اللعين مخلفا في امعائك قرقرة فاضحة كأنها قصف الرعد المتواصل • كنت صبورا يا بني : اشد الخيط على معصمي واركز نظري عـلى الجزء الظاهر فوق سطح الماء ، الذي يتماوج باستمرار حتى يكاد أن يصيبني بالدوار •• وفجأة احس بنغزة •• الخيط يهتز ••

أدقق النظر .. لا .. انها نغزة خادعة كانت بسبب التيار . وانتظر .. نغزة اخرى .. حسناً انها سمكة هذه المرة .. تتهيأ اليد الثانية والجسد المرهق يتحفز فجأة والتعب ينسحب بعيدا .. وتستمر النغزات .. انها سمكة خبيثة تقضم الطعم من الجانب دون ان تبتلعه بكامله لا سحب الخيط بنترة قوية . ولكن مهلا فأنا اخبث منها .. انا صبور كالجمل وهي سمكة .. وستبقى سمكة سواء قضمت الطعم من الجانب او ابتلعته بكامله .. وفجأة ينخطف الخيط .. لقد وقعت في الشرك .. الم اقل بأنها سمكة ؟ بل وسمكة بليدة استسلمت لاغراء الطعم أسرع مما كنت اتصور .. تلك هي اللحظة المناسبة ، وبضربة قوية من راحة يدي المعقوفة بتصلب اتر الخيط .. هكذا .. لقد شكت السنارة في حلقها . بسرعة خاطفة اسحب الخيط والماء يرتج بعنف وكأن الجن يرقص تحته .. السمكة نقفز بيأس وتتلامع قشرتها تحت سطوع ضوء الشمس . انها النهاية يا عزيزتي .. ضربة محكمة في الرأس والجسد الفضي المتواثب يهدأ . اغطي رأس السنارة بالطعم من جديد واقذف بها بعيدا .. فيف .. وتهوي نحو القاع الاخضر .. وأنتظر من جديد ..

ويسحب اخر نفس من عقب سيكارته قبل ان يسحقها تحت حذائه الجلدي الثقيل ، ويعود لثرثرته :

- الم أقل بأنني صبور كالجمل ؟ ولكن لو اردت الصدق يا بني لقلت لك بأن الحالة لو استمرت على هذا الوضع فانني أخشى على رأسمالي الوحيد ، الذي هو الصبر ، أن يتخلى عني !

حسنا .. انني لا أتعجل الامور ، ولكنني بدأت أفكر منذ الان بأنني لو رجعت الى قريتي فسأغير طريقة صيدي !.. لـــك أن تتساءل : لماذا ؟ ولكنني أقول بأنني بدأت اشك بجدوى الصيـد بالطريقة القديمة نفسها . انا في سبيلي الى ابتكار طريقة جديدة .. طريقة اسرع وحصادها أوفر !

ورغم الظلام شعرت به وهو يقذفني ، من جديد ، بنظرته المتشككة .

وطال انتظارنا في خنادقنا الرطبة حيث شمس « حزيران » التي تلبست شموس الشهور الاثني عشر ، تتلامع بقسوة فـــوق حديد خوذاتنا المنسدلة فوق عيوننا التي ترى الاعداء وهم يتبخترون امامنا بصلف واستهتار . كانوا هناك ، في الاراضي المحتلــــة ، ينصبون استحكاماتهم الاسمنتية ويشقون الطرق المؤدية اليها عبر الجيوب الصخرية المنتشرة في التلال . ونحن ننتظر وحديد بنادقنا يسخن نهارا ليبرد ، لحد الجمود ، ليلا . كانت طائراتهم تمـــرق فوق رؤوسنا ، على ارتفاع منخفض مفجرة الهواء بهديرها الاصمّ .. ونحن نرفع وجوهنا نحوها لنفاجأ بشعاع الشمس ينسكب في اعيننا فنعقفها نحو الارض من جديد وننغمس في طقوس الانتظار المرير متناسين المدافع المركونة بيننا والمغطاة بأغطيتها الثقيلة المبقعة بالزيت ، وكان صديقي الجندي « مصطفى غريب » ـ وذاك كان اسمه ـ يوشوش اذني مواصلا ثرثرته عن كونه صبورا كالجمل ، وعن الصيد وقريته المحاطة بمخاضات عامرة بالاسماك . كان يتحدث بحب وشوق ، عن أخواته الثلاث العانسات اللواتي يكبرنه في

العمر ، وعن مدى تعلقهن به وحبهن له لانه ـ حسب قولهن ـ « عمود البيت » وكان مصطفى يقسم ، وهو يكركر بضحكته الصماء بأنّ بيتهم بلا عمود !.. لانه ليس سوى كوخ مقبب السقف بحجرتين متلاصقتين . كان يقول بأن الاخت الكبيرة تكاد تكون بمثابة الرئيسة المطلقة عليهم ، لها الامر وعليهم الطاعة ، والأخت الثانية التي من دأبها جلب الماء من النهر القريب وكذلك الحطب وحش العشب لعنزة او خروف كنّ يربينه كل سنة ليبعنه فيما بعد ، وكذلك حضور الاعراس والمآتم نيابة عن اختيها ، أي انها كانت ـ ويغرق مصطفى في الضحك من جديد ـ بمثابة وزيرة الخارجية !.. اما الاخت الصغرى ـ وهنا كان مصطفى ينبهني بأن لا أدع كلمة « الصغرى » تشحذ خيالي ، لان تلك الاخت الصغرى كانت قد تخطت الثلاثين وكان الشيب قد غزا شعرها المتدلي ، من تحت فوطتها ، على شكل فتائل ـ كان من دأب تلك الأخت جمع آخر الاخبار واحدث فضائح وطرائف القرية لتقصها عليهم فيما بعد وهم متحلقون حول نار الموقد . اي انها كانت ـ وهنا كنت اقاطع مصطفى لاقول : ـ ... بمثابة وزيرة اعلام .. ويكركر مصطفى بالضحك من جديد مطبطبا على ظهري باستحسان . وكنت بدوري اناكده محاولا اثارته ، فأسأله بخبث : وأنت !.. اية وزارة كانت بعهدتك ؟! ولكنه كان يجيبني بمرح : أنا ؟ لقد كنت وزيرا بلا وزارة !!.. و... هه .. هه .. هه يطلق ضحكته الصماء القصيرة .

كان « مصطفى غريب » يواصل ثرثرته اليومية ولا ينسى ان

ينوه بغموض ، بين يوم واخر ، عن طريقته الجديدة في الصيد ، تلك الطريقة التي لم يكشف سرها الا فيما بعد . وبطبيعة الحال كانت اللازمة التقليدية « يا بني » تتكرر باستمرار خلال ثرثرته المتواصلة ، تلك اللازمة التي لم تعد تثير انتباهي بعدما تعودت أذناي على سماعها ، لانها بدت كالايقاع الرتيب الذي من كثرة تكراره لا ينتبه اليه احد . ولكنه عندما كان يغضب ويحتد فان تلك اللازمة تكاد تتكرر بين كل كلمة وأخرى . وفي أحد الايام فاجأني . كعادته ، دون مقدمات وبدا انه غاضب لسبب كنت اجهله :

ـ ألم أقل لك يا بني بأنني سأفقد رأسمالي الوحيد الذي هو الصبر ؟.» نعم يا بني كنت متأكدا من ذلك . حسنا .. انا صياد .. أليس كذلك ؟ لا تنظر الى ملابسي العسكرية !.. والان انتبه !.. أضف لي مهنة أخرى .. أنا لص !.. مالك تنظر لي ببلاهة ؟!

اقول لك : بأنني لص !.. لقد سرقت مساء البارحة !..

وقذفني بنظرته المتشككة تلك ، وغادرني بنزق دون أن يكمل كلامه .

وفي آخر يوم رأيت فيه وجهه الغريب الذي بدا وكأنه أخرج من جوف أتون ملتهب ، في آخر ظهيرة ، فوجئت بلكزة في جنبي وعندما التفت بغضب ـ فاللكزة كانت قد المتني ـ رأيت «مصطفى غريب » قريبا مني يقذف الخنادق والخيام والجنود بنظرات حذرة

•• ودون تمهيد بدأ ثرثرته المعهودة وكأنه يواصل حديثا ما انقطع بيننـــا :

ـ اتعلم ما هي طريقتي الجديدة ؟! أرجو أن تعذرني يا بني لأنني لم اثق بك لحد الان !•• كنت أحاول أن أختبرك ! ••• تعال !

ولم افهم أي شيء فالامر قد استغلق على ذهني بصورة كاملة •• ما هذا الكلام المضطرب ؟! ولكنه لم يترك لي فرصة للتفكير ، فقد سحبني من يدي واجتاز بي الخنادق والخيام ، وهناك حيث التراب الذي أخرجناه من جوف الخنادق ارتفع على هيأة تـــلال متراصفة ، هناك أوقفني بطريقته العصبية ، وذلك بأن سحبني من يدي بعنف ، وعندما انتبهت •• وجدته تحت انفي مقرفصا عـــلى الارض يراقب الخلاء المحيط بنا بعينين حذرتين ، وعندما قرفصت بجانبه ، وقد تضاعف فضولي لتصرفاته الغريبة ، رأيته وهو يجرف بيديه التراب قرب قاعدة التل • بعد لحظات برزت صخرة كبـيرة بعض الشيء ، وسمعته وهو يطوف بعينيه حولنا بحذر :

ـ تلك هي طريقتي الجديدة في الصيد !

وسحب الصخرة فظهرت تحتها حفرة ، مد فيها يده الراعشة، واخرجها وهي ممسكة بشيء لم أدر ما هو لاول وهلة ، ولكن سرعان ما عرفت : كانت قنبلة يدوية !! ولو انه اخرج من تلـك الحفرة أرانب سحرية أو كنزا سريا لما فوجئت قدر تلك المفاجـأة وانا اراه ممسكا بقنبلة !•• ووجدتني أهتف بصوت ثاقب :

ـ ما هذا يا مصطفى ؟!

فوضع سبابته على شفتيه طالبا مني الحذر • فأعدت سـؤالي السابق بصوت خافت لم تبارحه الدهشة :

ـ ما هذا يا مصطفى ؟!

ودون ان يرفع سبابته عن شفتيه أجابني بصوت خافت ملوحا بالقنبلة في اليد الاخرى :

ـ انها طريقتي الجديدة !•• لقد أفقدني هذا الانتظار الممل الصبر يا بني !•• اعتقد بأنني لو عدت الى قريتي لما استطعت الصيد بطريقتي القديمة البطيئة لحد الموت !•• سرقت هذه القنبلة !•• وسأسرق غيرها •• وهناك في المخاضات المنتشرة حول القريـــة والعامرة باسماك كثيرة •• هناك سأقذف بقنبلتي ! كل اسبوع وانسف بركة هكذا ••••

ونزع صمام القنبلة :

ـــ بوووم !•• أقذف بها في اللجة فيطفح سطح الماء بأطنان من السمك •• ما رأيك ؟!

وفي تلك اللحظة المشحونة بالقلق والرهبة ، وقبل أن أجيبه، قرقع الهواء على هدير سرب طائرات مرقت فوق رأسينا ، على أرتفاع منخفض مجتازة حاجز الصوت ، فشعرنا وكأنها بدأت تقصفنا ، وبقفزة واحدة عبرت الساتر الترابي ولم أجد نفسي الا وانا في قعر خندق •• ومن موقعي ذاك رأيت مصطفى يتواثب في أثري بطريقة

خرقاء مربكة ، وفجأة رأيته يتعثر والقنبلة تنفلت من يده باتجاهي، وبصورة غريزية وجدتني أنبطح لالتصق بالقاع الرطب ، وفي نفس اللحظة سمعت الهدير الاصم لانفجار القنبلة ، اعقبه سكون مطبق. مددت رأسي فوق الحافة ، فرأيت سحابة الغبار والدخان ترتفع عاليا ومصطفى متكوم على وجهه • ولم اشعر بالجنود الذين بدأوا يتوافدون نحوي ، انما كنت اسمع لغطهم وكأنه صادر من عالم آخر لا يمت الى الواقع بصلة •

عندما قلبت « مصطفى غريب » على ظهره انقذفت يداه على جانبيه بصورة عشوائية وكأنهما يدا جثة • كان بطنه مفغور الاحشاء وقميصه متشربا بالدم حول الفتحة الرهيبة التي خلفتها شظية مرقت أفقيا فكشطت جدار البطن الرخو، وكانت امعاؤه الزرقاء النابضة قد اندلقت الى الخارج وبخار خفيف يتصاعد منها • الأمر المدهش هو انني اكتشفت بأن مصطفى لم يمت بالتو واللحظة ، فرفعت رأسه بين يدي ، ورأيت السماء النائية تتلامع في تينك العينين اللتين كانتا تنظران ، ولاول مرة ، بنظرة ثابتة لا تطرف •

لم تكن عيناه تنظران الى شيء معين ، بل بدتا وكأنهما تنظران الى كل الاشياء التي ارتفع امامها حاجز المستحيل • وفتح شفتيه ليتكلم ولكن دفقة دم مفاجئة انفجرت في فمه فاحتبس الكلام في حنجرته • وعندما حاول ان يتكلم للمرة الثانية بدأ الدم يتدفق من زاويتي فمه ليسيل على يدي ومن ثم يتساقط بهدوء وصمت على الارض الساخنة ، وسمعته يفح بصوت على وشك الانطفاء :

ـ انني •• اموت •• يا بني !••

ورغم احتضاره الخاطف المرير بدا وكأنه عرفني •• وشعرت برقبته ترتخي بين يدي وجفناه ينسدلان قليلا ولكن السماء النائية ظلت تتلامع في عينيه البريئتين لدرجة لا تطاق !••

بيدي هاتين خطت الجرح ، وعلبت جثته في صندوق خشبي أرسل الى قريته حيث كوخه الذي « بدون عمود » وثلاث اخوات عانسات يستحلفن بعضهن ـ عند الضرورة ـ بحياة اخيهن في الجبهة الصامتة !•• وحيث المخاضات الطافحة بسمك لم يجرب معه طريقته الجديدة في الصيد !••

••• انظري يا جميلة •• انهما يداي اللتان تندتا بـــدم « مصطفى غريب » !•• قد يكون دمه ذاك هدر بغباء ، ولكنني كنت اشعر به على يديّ لفترة طويلة • لم امد يدي الى « القصعة » التي كانت تتوسطنا ثلاث مرات في اليوم ، الا وتخيلت أصـابعي ملطخة بدمه !•• ولشدّ ما كنت اخشى ان افقد صبري مثله وأن تكون نهايتي بدون جدوى • كان حلمي اكبر من ذلك الواقع المرير الذي شدّني الى تلك الخنادق الرطبة طوال الاشهر الخمسة اوالستة التي اعقبت الخامس من حزيران •

واتتبهنا الى قرع الدفوف يخفت بالتدريج وكأن اصابعهم تخدرت بعدما نقرت لفترة طويلة • وعلى قاعدة النافذة طالعتني يداي المسترخيتان بحياد واستسلام وكأنهما يدا جثة ، وأمامي كان الليل الملغوم بالصمت والانتظار يواجهني بصلابة وتجد لا قدرة لي

على مواجهتهما ، كنت كمن تلقى ضربة ساحقة على فكه تردد صداها في لا وعيه المرتج ، فافتقد القدرة على المواجهة والتحدي • ومن مكاني ذاك ، وانا اواجه الليل ، شعرت برمحي الفارسين المرسومين على قطعة النسيج وكأنهما مصوبان نحو مؤخرة رأسي الحبيقه ، بل كدت اشعر وكأنني أصبحت احد بدويي الصورة الجانبية •

قبل ان اغادر الغرفة سمعت صوتي الخـــدر يجرح الصمت المخيم باسترخاء :

ـ جميلة •• لنعد كما كنا •• ولننس ذلك النقر الغبي •

عندما غادرت الغرفة لمحت من خلال فرجة الباب الذي لـــم ينطبق بعد ، جميلة ، بثوبها الابيض الذي بدا غير قابل للمس على الاطلاق ، واقفة هناك في مواجهة الليل المنــــداح امامها بصمت وهدوء •

في الاسفل ، ودون ان اتنبه الى العيون المحدّقـة بي ، وقد ارتسم فيها تساؤل اخرس بليد ، أومأت لصديقي سلمان وخالد وصفقنا خلفنا باب المنزل ، وبصمت واصرار انحدرنا نحو مضارب الغجـــر •

هل كان قراري في تلك الليلة : بأن نرجع كما كنا وكأنما لا تربطنا تلك الرابطة الابدية ، هل كان قراري ذاك صائبا ؟ ثم ، ألم أكن قاسيا ، بعض الشيء ، مع جميلة ؟ ما الذي ربط مـوت « مصطفى غريب » بليلة زفافي ؟ أما كان الاولى بي أن أدع تلك الليلة تمر بسلام دون اثارة شجون ظننت بانني قد دفنتها هنـاك

في أرض الجبهة الصامتة عقب تسريحي ؟... واسئلة عديدة اخرى طرحتها على نفسي طوال السنوات الاربـــع التي اعقبت زواجي بجميلة ، كنت ، مرة ، أجيب بـ « نعم » واخرى بـ « **لا** » **وثالثة** لا أجد أمامي غير الصمت . لم اكتشف السر آنذاك لقد تلبستني حالة غريبة كادت تضعني على حافة هاوية الجنون : كان وميض عيني « مصطفى غريب » البريئتين لدرجة لا تطاق يلوح لعيني أنى ذهبت ، بل وتحول النهار الى عذاب يشدّني بتلك الظهيرة التي مات فيها ، وتحول الليل الى حلم كابوسي مديد مثل صرخة تتردد اصداؤها بين الف جبل ، ولولا أعمال الحقل التي استنزفت كل جهدي لما عرفت بالنهاية التي كنت سأنحدر باتجاهها . عندمـــا مات مصطفى بين يديّ حزنت بطبيعة الحال حزن أي أمريء يفقد عزيزا ، وتألمت كثيرا لتلك الميتة التي كانت بلا جدوى ، وكان حزني ذلك كحزن ملايين البشر الذين لا يملكون ازاءه سوى الصمت، ولكن الغريب هو أن ذلك الحزن ظل مدفونا في اعماقي طـــوال الفترة التي انقضت على موته ، مثل جمرة خبت تحت الرمـاد ، ليتفجر فيما بعد ، ومتى ؟ في ليلة زفافي بالذات ! على كل حال ، المهم انني هجست ، بما يشبه اليقين ، من أن جميلة قـــد تفهمت وضعي في تلك الليلة ، بل بدت المسألة وكأننا على اتفاق غير معلن بأن لانعود لذكر ما حدث ، وليس هذا فحسب ، بل انما عدنا كما كنا وانفرد كل منا بغرفته ، ولولا أمي لما تذكرنا بأننا متزوجان على الاطلاق !

طوال الاشهر التي اعقبت زواجنا ، كانت أمي تلحّ فيالبحث

والتقصي عن سبب انفراد كلٍ منا بغرفته ، وعندما لم يألُ جهدها لنتيجة ، بدأت تئن وتتوجع لاعنة هذا الزمن الذي سيواريهـا التراب دون ان تكحل عينيها بمرأى حفيدها ، وهي التي كانت تحلم بحفنة احفاد « ملاعين » يملأون عليها وحشة شيخوختها •• وعندما منحناها آذاناً صماء ، ارتكنت بدورها ، الى الصمت وكأنها وافقت على مضض ، الدخول ضمن اتفاقنا غير المعلن !••

••• من يدري ؟! قد تكون الشمس المنخطفة بوميـض فسفوري خاطف هي السبب في اضفاء هذا الهاجس الفاجع المرير على كياني كلما انتصف النهار وتلامعت الارض والسماء •

ها انذا مضطجع على سريري اكاد اشعر بالوسادة التي خلف ظهري وكأنها قدت من صخر ، بل انني احس بالهواء الذي اتنشقه وكأنه تحول الى كيان كثيف لا يمنح نفسه بسهولة مثلما يتنفس المرء من قاع بئر بدون قرار •

عبر مستطيل النافذة تطالعني اشجار الفسحة وظلالهـا المستديرة افترشت العشب وقد أحاطت بالجذوع الراكنة بصمـت واستكانة ، والعصافير المتخاصمة هدأت أخيرا بين الاغصان الكثيفة• انها تنطلق ، بين لحظة واخرى خارج دائرة الظل الرمادي فتخفق أجنحتها بوداعة تحت ضوء الشمس لتمرق بخفة فوق العشب ، أو تهوّم بحيرة قرب النافذة • وعبر السماء السحيقة تنخطـف عصافير أخرى نحو المدى الازرق الذي لا تشوبه شائبة بعدما كدت اظن ، خلال الايام الثلاثة الممطرة ، بأن هناك ، في بقعة ما من الارض « نوحاً » جديدا يعدّ « الفلك » !••

الظهيرة تنداح بانسياب فوق العشب والشجر والتراب ، وتهوّم عاليا عبر امتداد السماء ، وهناك ، حيث حافة النهر المثقلة بغطائها النباتي المتماسك تدرج جنوبا ، هناك يومض الشعاع الاربيض فوق الاغصان المنحنية نحو المجرى الرطب العميق ليتسرب سفلا وليتلامع عبر طيات التيار الحاد .

لم ترتبط الظهيرة في ذهني بتلك التي مات فيها « مصطفى غريب » فحسب ، بل هناك ظهيرة أخرى كادت تمحو عن ذهني ما خلفه موت مصطفى من شجون تحولت بمرور الايام الى دَين قديم لابد لي من ادائه .

كان ذلك قبل ستة اشهر ، وكنت ، كالعادة ، اعمل في تهيئة الارض للحراثة . لقد اصبحت ألازم الحقل بصفة مستمرة . وحتى بعد الانتهاء من الحصاد ورفع البيدر كان لابدّ لي من طواف يومي أتفقد به أرضي التي اصبحت ملكي . انه احساس بهيج أن تستلقي على العشب ، ومن خلال السيقان الخضراء الخشنة التي تحز وجهك تشم الهواء المندّى بعبق الأرض الرطبة .

ان قطعة الارض التي كنت أزرعها في السابق ، لقاء حفنة قمح لا تغني عن جوع ، أصبحت لي ، ولم يعد باستطاعة «الملاَكين» التحايل على قانون « الاصلاح الزراعي » الذي طبق بصرامة ، فألقم هؤلاء الجشعون حجرا أقفل ، والى الابد ، اشداقهم الشرهة التي لم تعرف الشبع والاكتفاء طوال حقب طويلة .

قد تكون تلك الارض مجرد رقعة ليست بالواسعة ، ولكنّ

ذلك لا يهم ، ليست المسألة سعة الارض أو ضيقها ، بل هي تلك الصميمية التي تشدّني لارض لا يذهب تعبي فيها هدرا • انها أرضي ، وانا اعرفها شبرا شبرا ، أعرف أن ذلك الجزء القريب من النهر والذي يمر به ماء الساقية أول ما يمر لسقي الحقل ، يصلح لزراعة الخضروات ، لان ترابه نظيف خال من الاملاح • والجزء الذي الى اليمين يصلح لزراعة السمسم ، فأرضه رملية وظليلة أيضا تتخللها اشجار برية نمت من تلقاء ذاتها • وتلك الرقعة التي الى اليسار تصلح لزراعة البصل لانها تقع في نهاية الحقل حيث الارض السبخة • وتلك الرقعة المغطاة بالحصباء ؟ انها لا تصلح لزراعة أي شيء •• ولكن ذلك لا يهم فالوجه الفاتن لا يخلو من عيب ما ، ولو أن الارض زرعت بأجمعها بالقمح لاختفت الحسنات والمساوىء •• فالقمح نبات متواضع ينبت أنى يبذر •

اضافة الى أرضي هناك مزارع جماعية أساهم بزراعتها مع الفلاحين الاخرين • لم تعد الحياة كما كانت في الماضي ، يوم كان الملاك يجيئنا ويقرر تهجير الفلاحين لان تلك الاكمة التي بنيت فوق حدبتها قريتنا تبدو « كالعين العوراء » في أرضه !•• لا •• لم يعد « الملاك » يخب على صهوة حصانه الاشهب بكبرياء وصلف عقب انتهاء الحصاد ليعطي لكل فلاح حفنة قمح هزيلة لقاء تعب موسم كامل ، وليتذمر بعد ذلك ـ بعد ان يخرج علبة سكائره الاجنبية مظهراً مسدسه الانكليزي المتدلي من حزامه •• وبعدما ينفث من فمه ومنخريه دخانا ذا رائحة غريبة لم تكن تشبه رائحة سكائرنا اللف ـ ليتذمر من شحة المحصول •• لا •• الفلاح اليوم

على قدر جهده تكون حصته ، وهنا أشعر بالاسى والحزن لآبائنا الذين لم ينصفوا في حياتهم ، ولكنني أعود لاهزّ رأسي بعنف وأتساءل مع نفسي : ألسنا نحن امتدادا لهم ؟! ان انبجست الينابيع من أرض صخرية ، وان اعترضت السدود والمخاضات سبيل الانهار المدومة الى الامام ، فها هي الارض الرحبة الممتدة مثل راحة اليد حيث الماء يطوف في زواياها الاربع بيسر .

كل عام ، وخلال شهر تشرين أعدّ الارض للحراثة : أجتث النباتات الشوكية والاعشاب الاخرى ، وبعدما أكومها اضرم فيها النار . واطلق الماء نحو الحقل .. اسبوع او أكثر وتكون الارض الرطبة مهيأة لاحتضان سكة المحراث .

جميلة تتنقل ، كالعادة ، بين الحقل والمنزل تساعدني قدر امكانها في الحقل ، وتدير مع أمي شؤون البيت . انها أشبه بشيء نابض لا تجده الا وهو يتقافز هنا وهناك . مرة أصادفها في الخلاء تسحب كومة حطب بقدر حجمها ثلاث مرات . أو اراها وهي تحش العشب ، أو تنخطف من تحت أنفي وبيدها صفيحة لتجلب بها الماء من النهر القريب .. ومن ثم اسمع وقع خطواتها فوق سطح الدار وهي تنشر الملابس التي انتهت من غسلها ، ولا تكاد تنتهي من ذلك حتى اسمعها وهي تطلق صرخة صادرة من حظيرة الاغنام التي ليست سوى كوخ طيني يقع في الطرف الشماني من المنزل ، وعندما اسارع الى هناك أراها وقد شمرت عن ذراعيها وهي تساعد عنزة أو نعجة تضع حملها .

والاغنام ، اضافة الى عملي في الحقل ، أصبحت بعهدتي بعدما

التحق حميد ، عقب تسريحه من الجيش ، بالعمل في شركة تقـوم بشحن الحصى والحجارة من الوهاد المنتشرة جنوبا والمغطاة بطبقات عميقة من الحجارة التي جرفتها السيول ،وبواسطة شاحنات ضخمة ترسل تلك الحجارة اما لرصف الطرق أو لمعامل الاسمنت • ان رعايةالاغنام ليست معضلةصعبة ، فان عددها لايتجاوز العشرين وهي لا تحتاج الى أكثر من صفير حاد لتنطلق مهرولة أمامي بمرح حال مغادرتي للمنزل ، وفي الاجمات المحيطة بالحقل اتركها ترعى طوال النهـــار •

في تلك الظهيرة ، قبل سنة اشهر ، كانت شمس تشرين قـد انحدرت قليلا عن سمت الرأس فمالت الظلال الى الشرق • رفعت يدي عن المحراث الخشبي ، بعدما انتهيت من حراثة نصف الارض، ووجدتني أفكر •

ـ « قد يكون آخر موسم احرث به الارض بواسطة هـذه الاداة البدائية ! •• »

وتلك الفكرة ملأتني بالبهجة ، فقبل أيام سمعنا ، في مقرّ « الجمعية الفلاحية » ان « المكننة » ستعم أبعد مناطق الريف ، ذلك ، لعمري ، حلم طالما راودنا نحن الفلاحين ، ما أجمل وأروع أن ترى تلك « التركترات » الجبارة وهي تدسّ بأنيابها الحديديـة الحادة في لحمة الارض التي لم تعمل بها المحاريث الخشبية سوى خدوش ضحلة • ان هذه الارض متعطشة لتلك الانياب القاطعـة التي تنغرس عميقا لتصل الى التراب البكر !••

كانت الريح اشبه بتنفس رضيع ، تهب من جهة الجنوب حاملة معها أصواتا ودمدمات غامضة ـ قد تكون صادرة من هناك ، حيث يعمل حميد ـ لقد نال التعب مني ، حررت رقبة الثور من النير ، وهو ثور أسود بقرن مكسور يعود لاحد أصدقائي الفلاحين ، ويا لـه من صديق يملأ العين !.. قبل ايام ونحن في مقـــر « الجمعية » ذكرت الصعوبات التي تواجهني هذا الموسم فقد اقترب موعـــد الحراثة وانا لا أملك ثورا ، ففوجئت بصديقي ذاك وهو يدقّ على صدره قائلا باعتزاز .

ـ أنا عندك !.. حالما أنتهي من حراثة أرضي سيكون ثوري تحت تصرفك !..

ووجدت كلمات أبي تخطر في ذهني :

ـ « اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفق !.. »

انه شعور جميل أن ترى هذا الاخاء الذي يشـــــدك الى الاخرين ..

لقد بذل الثور جهودا هائلة أثناء الحراثة ، فكلما اعترضت كتلة جذور متماسكة طريق المحراث ، شد الثور بجسده الى الامام غارزا قوائمه القوية في الارض .. و .. طق .. اسمع صــــوت تهشم الجذور والمحراث يثلم الارض بانسياب ..

قلبت المحراث رأسا على عقب وحاولت جهد امكاني أن احدّ سكته بواسطة مبرد أعلقه في حزامي عادة لمثل هذه الامور .. حتى الحديد لا يستطيع الصمود امام الجذور المتشابكة تحت قشـــرة

الارض الهشة ! انها جذور شجيرات الصفصاف والغرب والتوت والزعرور وشجيرات برية اخرى نمت كيفما اتفق ، فالنهر قريب والارض رطبة تغري الاشجار بالنمو والتكاثر •• صدق من قال : الماء أصل كل شيء حي !

كانت خطوط الحرث تتدرج أمامي باستقامة وكتل التربة المقلوبة الرطبة تفعم برائحة صميمية ، يشمها المرء في الاشياء العزيزة، وبعيداً حيث الشمس تسطع بحدة ، تصاعد بخار خفيف وكأن الارض المقلوبة بدأت تتنفس بعد طول اختناق •

كان الجو لايزال دافئاً وشمس تشرين تسطع بحدة وظلال الاشجار تدعو المرء للاضطجاع على الارض المعشبة المحاطة بشجيرات متماسكة ، تمتدّ على شكل قوس يلتقي طرفاه بحافة النهر المرتفعة، مكونا معها جيبا سريا ، وهناك كنت اضطجع بأمان مسرحا بنظراتي ، من خلال الفسحات الشوهاء بين الاشجار ، نحو الاطراف البعيدة للحقل • قريبا مني ، طفق الثور يطوّف بجرمه الكبير متلقفاً بشفتيه الخشنتين الرطبتين العشب •

تأخرت جميلة ، انها تأتي ، عادة ، ومعها صرة الطعام بعد ساعة من سماعها لاذان الشيخ « رمضان » الذي يؤذن عادة فوق سطح كوخه في قرية صغيرة تقع الى الجنوب ، وهي قرية لا يكاد المرء يحس بوجودها بسبب تلك التلال المحيطة بها • وصوت الشيخ « رمضان » يدوي في البرية بوضوح بفضل حنجرته القوية ــ تلك الحنجرة التي اوقعته بمشاكل غرامية فاضحة ايام شبابه بسبب الصوت العذب الذي ما كان ينطلق أيام الحصاد ، حتى كانت الرقاب

تستدير نحو مصدره ، والشباب يهتفون بمرح : انه رمضان ابو البنات •• هكذا كان يلقب يومذاك ، لابد أن له اليوم حكاية حب جديدة ! _

الظل والعشب والريح سرعان ما أغرتني بالاستجابة لحكم سلطان النوم ، التعب الذي انهك جسدي طوال ساعات الصباح ترجّع في مفاصلي بايقاع مؤلم ، والصمت المطبق تردد في سمعي بطنين أصم • بين فينة واخرى كنت استيقظ على هسيس شدق الثور المتليء بالعشب • وكان الثور يدبّ بالقرب مني ملصقاً منخريه الاسودين في الارض ، وذنبه الطويل يتأرجح باستمرار هاشا به الذباب المحوم فوق عرقه المنداح بين اضلاعه البارزة وقبل أن أنزلق في هوة الكرى من جديد لمحت الثور ينسلّ خارج الاجمة متوغلا في الاحراش القريبة • ولم أدر كم نمت على وجه التحديد ، ولكنني أتذكر بأنني كنت أحلم بارغفة خبز ووجبة غذاء محترمة لم اهنأ بها ، فعلى صوت رصاصة انطلقت ، وكأنما فوق رأسي بالضبط ، وجدتني أقفز مستويا على قدمي وكأن قوة خفية قد سحبتني للاعلى ، وأول فكرة خطرت في ذهني هي أنّ أحدهم قد قتل الثور !•• الا انني سرعان ما لمحته ، من خلال الاشجار ، وهو يحك قرنه المكسور على جذع شجرة وقد انتفخ جنباه بعدما ازدرد كمية عشب هائلة •

لو لم أكن نائما وفوجئت بصوت الرصاصة لما انتبهت اليها على الاطلاق • تلك مسألة اعتيادية أن يسمع المرء صوت اطلاق عيارات نارية بين وقت وآخر فالاحراش والبساتين قريبة ، وهي

تغصّ بالخنازير التي لكل فلاح معها الف ثأر ، ولو طاف انسان عبر القرى والبيوت المنتشرة هنا وهناك لما وجد كوخا واحدا يعدم بندقية أو اثنتين ! الحياة في البرية تتطلب الاعتماد على مثل هذه المسائل ، فهناك حراسة الزرع وقنص الخنازير والصيد ٠ مذ فتحنا أعيننا على الدنيا وجدنا أباءنا او اعمامنا او اخواننا صياديـن لايشق لهم غبار !٠٠ والى الان لا أزال اتذكر رأس غزال محنط بقرنـين معقوفين ، كان معلقا على جدار كوخنا ، ذلك الغزال ، كما عرفت فيما بعد اصطاده ابي ببندقية قديمة كانت تملأ بالبارود من فوهتها! الا أن ذلك الرأس ضاع منا ، مع الاسف ، يوم نزوحنا عن القرية ٠٠٠ ولم أسترسل في تأملاتي أكثر من ذلك ، فقد انطلقت رصاصة أخرى من جهة الشرق ، أعقبتها ثانية من جهة الغرب وثالثة من جهة أخرى ، ومثل مطر عاصف يفاجيء المرء في البرية على حين غـرة فيصيبه بالذهول ، انفجرت العيارات النارية من كل جانب وترددت اصداؤها عبر البرية وغابات النخيل ٠٠ ما الخبر ؟! لقد انشدهت ولم أجد ايما تفسير لهذه المعضلة !٠٠ هل هي حفلة زفـاف ؟ وسرعان ما أبعدت هذا الخاطر عن ذهني ، أي زفاف والرصاص ينطلق من كل مكان ؟! كان صوت العيارات من الشدة بحيث جعل الثور يكف عن حك قرنه المكسور والاغنام المبعثرة بين الاجمات سرعان ما احاطت بي وهي تتنفس باضطراب وتمد رؤوسـها في شتى الاتجاهات ونظرة جوفاء حائرة قد ارتسمت في اعينها الصفراء المستديرة ٠

أمام عجزي الكامل عن تفسير ما سمعت وبسبب الجوع الذي

بدأ يعصر معدتي ، لم أجد بداً من أن أقتل الوقت بلف سيكارة سرعان ما اوقدتها وقذفت الاغنام بكل ما وجدته في متناول يدي من اغصان وكتل تراب الى أن ابتعدت عني وانتشرت بين الاجمات من جديد • وكان صوت العيارات قد انطفأ منذ فترة ولكنني كنت احس به يتردد في رأسي ولففت سيكارة ثانية ، ولم أكد اوقدها من عقب الاولى حتى انشقت الاشجار عن قوام جميلة وصرة الطعام تتأرجح في يدها • بدت وكأنها قطعت المسافة بين البيت والحقل مهرولة ، فتوجست بوقوع أمر ما وكان صدى العيارات لا يزال يتردد في رأسي ، ولكن حالما اقتربت مني ووجدت وجهها المتورد يطفح بالبشر والفرح ، انسحب خوفي بعيدا وعاد ذلك التساؤل الملح عن سبب انطلاق الرصاص ، عاد يتردد في ذهني • بادرتني جميلة قائلة بصوت لاهث ، وبعدما وضعت صرة الطعام في متناول يدي واستلقت أمامي على العشب وصدرها المتماسك تحت طية ثوبها الاحمر المزهر ، يرتفع وينخفض بصورة مثيرة :

ـ حازم •• لن تصدّق ما سأقوله لك !!•• لابد انك جائع ؟

ووجدتني أتساءل بلهجة ساخرة :

ـ لن اصدق ماذا ؟ لن أصدق بانني جائع ؟!

وأغرقت في ضحكة مهشمة جعلت نهديها يرتجان باشتهاء •• يالها من خبيثة !!•• اية لعبة هيأتها لي ؟! •• ورفعت صوتي :

ـ جميلة بالله عليك خبريني بالمسألة •• ما هذا اللف والدوران ؟••

استندت على أحد مرفقيها فانسدلت فوطتها جانبا ، وهناك حيث بياض اللحم المشرّب بحمرة خفيفة ، خددت اشعة الشمس الظل الفاصل بين فلقتي الثديين المتماسكين • وبعدما اكتست ملامحها المنداة بالعرق ، بجدية صارمة ، قالت :

ـ لقد اندلع القتال !!••

ووجدتني اتساءل مع نفسي « أي قتال ؟! » وقذفتها بنظرة جوفاء ••

ـ الجيوش العربية هاجمت من الغرب والشمال !•• هناك بيانات عن سير المعارك تذاع بين فترة واخرى ، تتخللها موسيقى وأناشيد حماسية !!••

في البداية شعرت بذهول كاد يتحول الى حالة غيبوبة ، ومن خلال الفوضى التي اكتسحت ذهني للحظات ، كنت أسمع صوت « مصطفى غريب » يتردد في اذني بصدى موحش :

ـ « انها حرب اشباح يا بني !•• الحرب لا تكون بهذه الطريقة البائسة • أن نظلّ ننتظر الى أن يبدأوا هم !•• انظر !•• لقد بدأوا في هذا الصيف الكافر •• وبستة ايام واجهونا بجبهات جديدة امتدت غربا وشمالا وشرقا !•• الحرب لاتكون بهذه الطريقة البائسة يا بني !•• »

بعد ذلك شعرت وكأنني استيقظ من حلم كابوسي مديد مثل صرخة تتردد اصداؤها بين ألف جبل ، وقد رفعت عن عيني غشاوة عكرة •• الاشياء تتوهج أمامي بوضوح ساطع •• ها هي جميلة

وكأنني أراها لاول مرة •• وها هي الارض المعشبة والاشجار تحف بها من كل جانب ، وتلك هي السماء زرقاء كما لم تكن من قبل • وعدت بعيني نحو جميلة : انها تتطلع نحوي بثبات وتحفز !•• انها الحرب اذن ؟!•• وتذكرت العيارات النارية التي انطلقت قبل قليل ، ولو كانت بندقيتي في متناول يدي لاطلقت مثلهم طلقة في الفضاء معبرا بها عن فرحتي وأنا أسمع بخبر اندلاع هـذه الحرب التي طال انتظارنا لها !•• وفجأة شعرت بقلبي يهبط في صدري !•• حتى أنّ جميلة انتبهت الى بياض وجهي الذي انحسر الدم عنه ، وتساءلت مع نفسي بخوف :

ـ « لكن من الذي بدأ ؟•• من الذي بدأها أولا ؟ » وكأن جميلة استجابت لتوضيح ما دار في ذهني :

ـ مالك ؟ لقد غاض الدم عن وجهك !•• الا تصدّق ؟! بعد ظهيرة هذا اليوم •• السادس من تشرين هاجمت الجيوش العربية واكتسحت مواقع الاعداء !•• طائراتنا المقاتلة في الجبهة الغربيـة تساهم الان في القتال !•• الا تصدق ؟!

••• ولكنها باضجاعها المثير المتحفز ، تحفز نسر يتهيأ للوثوب والصراع ، جعلتني اصدق !

بدت جميلة ، من خلال العشب الذي كاد يغطي الجـزء الملاصق من جسدها للارض بدءا من قدميها وحتى تقوس خصرها للاعلى ، بدت وكأنها انبثقت من خلال التربة المهيأة للحراثـة والزرع • كانت مستلقية هناك أمامي كما كانت الاشجار منتصبة

على جانبي وفوق رأسي • لم تبد كشيء طاريء أقحم على تلك الاجمة المستعرة بوهج الشمس ، انما كان من الواضح انه لولا وجودها هناك لحدث خلل كبير ما امكن تلافيه بأي حال من الاحوال •

كان الثوب الاحمر المزهر قد انحسر فوق الركبتين بمسافة تكفي لان اتصور مدى امتلاء واستدارة الفخذين المتماسكين •• لم يكن يبدو من قدميها ، المغمورتين بالعشب ، سوى ذلك البروز المتورد الذي يعتلي عظمة الكاحل الدقيقة ، ولم يبد من الساق التي في الاسفل غير بياض باهت كاد يكون اقرب الى لون رمادي جاء بسبب الظلال والعشب ، اما الساق الثانية فقد كانت تسطع بحدة تحت ضوء شمس الظهيرة • عقب اندفاع الركبتين الى الامام ينحرف الفخذان المنفرجان قليلا للداخل ، وكان بياضهما يعتم بالتدريج كلما توغلا تحت طية القماش ، الا انها كانت عتمة متوردة بعض الشيء ، بسبب انعكاس لون الثوب الاحمر ، ولكن هناك بعيدا في العمق كانت العتمة تتخثر باضطراد مثل عتمة دغل يكتنفه الغموض والتوجس • وفي الخارج كان الثوب يتكور باندفاع فجائي ، فوق بروز الحوض الرحب ، وبعده ينحني بانسياب لينسدل فوق انحناءة الخصر الرهيفة التي سرعان ما تدرج بالصعود للاعلى حيث الصدر المستند على مرفق اليد المغروس في العشب • كانت انحناءة الخصر اشبه بجذع شجرة يتقوس عاليا لينتهي بالاغصان المثقلة بالثمر • وكانت الفوطة السوداء قد انحسرت جانبا فسطع بياض الصدر ووضح الظل

الفاصل بين فلقتي الثديين • وهناك ، في الزاوية التي تلتقي بهـا الرقبة بالصدر ، في تلك الزاوية المتوترة تحت ثقل الجسد المشدود للارض واندفاع الرأس للأعلى ، هناك كان عرق نابض ينتفض تحت الجلد •• كنت اتلمس بعيني دفقات الدم المتعاقبة باستمرار •• كان يدق •• يدق •• يدق •• وكان دقا مستفزا يغريني باجتراح التجربة المثيرة التي بدأت تسحبني ضمن فوضاها المربكة •• لم يعد باستطاعتي البقاء في مكاني مراقبا عن كثب ذلك الدق المثـير دون القيام بعمل ما يرفع حاجز الصمت الممتد ما بيننا •• ولكنني وأنا اراقب ذلك العرق النابض وجدتني استعيد حادثة قديمة وقعت لي في الايام الاولى لالتحاقي بالخدمة العسكرية : لقد شاء سـوء حظي أن يكون سريري قريبا من سرير جندي يملك ساعة منبهة كان يضعها على المنضدة التي بين سريرينا • وعندما لم يعد السكوت ممكنا بعد ليال مؤرقة قضيتها بشق الانفس ، قررت مفاتحته • وفي تلك الليلة قلت له ، وانا اراقبه وهو يملأ ساعته اللعينة :

ـ ما حاجتك لهذه الساعة ؟!

فتساءل باستغراب ، وكان قد انتهى من ملئها وبدأت اصابعه تبحث عن مفتاح جرس التنبيه :

ـ وما شأنك انت ؟!

ما شأني ؟! يالهذا الغباء !•• ولكنني سيطرت على اعصابي واجبته ببرود :

ـ مجرد فضول ••

اجابني بلهجة عملية بعدما اهتدى الى مفتاح المنبه واخذ يضبطه على الساعة الرابعة صباحا :

ـ لأصحو على رنين جرسها في الوقت المحدد فأبدأ بتلميع حذائي وحلاقة ذقني ، واتهيأ فاكون متواجدا في الوقت المحدد في ساحة العرضات !..

يا للصفاقة !.. كان الاجدر به أن يقول « لاحلق ذقني والمع حذائي !.. » .. على كل حال أغمضت عيني لاعنا شياطين الارض الزرق التي بدأت تصخب في رأسي .. قلت له :

ـ ولكنك تستطيع حلاقة ذقنك وتلميع حذائك في المساء !

أجابني ببرود واصابعه تدير مفتاح جرس التنبيه الى آخره وكأنه يسحب وتر قوسه لينطلق السهم الى ابعد مداه :

ـ لو حلقت ليلا لطالت لحيتي في الصباح !..

اللعنة !.. هل توجد لحية تنمو خلال خمس او ست ساعات ؟ ولكنني ، وبقدرة قادر ، سيطرت على اعصابي وقلت له بلهجة خفيضة حاولت بها اخفاء انفعالي الذي قد يبدو من خلال ارتجاف صوتي :

ـ ولكنك تستطيع الاستيقاظ دون الاعتماد على مثل هذه .. وأشرت الى الساعة دون أن الفظ باسمها الذي بدا بغيضا على لساني بشكل لا يصدق . وتساءل بعدما انتهى من ملء مفتاح المنبه الى آخره :

ـ كيف ؟!

ـ كما يستيقظ الجنود عادة !

ـ لكن نومي ثقيل ، فأخشى ان يفوتني موعد التدريـــب فأعرض نفسي للعقوبة !

قلت له بلهجة مصالحة :

ـ حسنا •• تستطيع الاعتماد عليّ •• سأوقظك في الوقت المحدد !••

ولكن اللعين ابى الا أن يستفزني أكثر :

ـ وان لم تستيقظ انت في الوقت المناسب ؟!

حقا انها لحجة دامغة ضاعفت سخطي تجاهه :

ـ اللعنة !•• ولكنني سأستيقظ ، بطريقة ما ، في الوقت الذي تريده !••

وهنا انتبه الى الساعة التي انتهى من ملء مفتاحيها فبدأت تتكتك في يده بنشاط وتحد ، ووضعها على المنضدة التي بـــين سريرينا اي على بعد ذراع واحدة من وسادتي ، واستدار نحوي متسائلا باستنكار •

ـ ولم كل هذا الاهتمام بمواعيد نومي واستيقاظي ؟ انهـــا لمسألة غريبة !••

غبي •• كان اغبى انسان التقيت به على وجه الارض !•• الى

الان وهو لم يكتشف السبب الذي دفعني الى أن اضيع معه كل هذا الوقت !•• اجبته وانا احاول لاخر مرة السيطرة على اعصابي التي بدأت تدق في صدغي •• وعندما تدق هناك اكون في طريقي الى حالة اشبه ما تكون بالجنون ••

ـ انه بسبب الساعة !••

فتساءل بغباء فظيع :

ـ الساعة ؟ ولكنها توقظني في الوقت المناسب !

وأخيرا لم يعد باستطاعتي الصبر أكثر من ذلك فصرخت به بصوت هائل انفجر في حنجرتي التي اثبتت بصورة قاطعة لا تقبل الشك ، بأنني سليل « عبدالغفور » ذي الصوت الرنان :

ـ ولكنها بدقاتها الرتيبة لا تدعني انام طوال الليل !

وعندما رأيتهينظر لي ببلاهة من لم يفهم ايما شيء ، وجدت يدي تنقذف فجأة بحركة خاطفة نحو الساعة التي طارت عبر سريره وارتطمت بالارض فارتفع رنين جرسها على غير انتظار !••

••• ولكن هناك ، في تلك الزاوية المتوترة باشتهاء ، كان لنبض الدم ايقاع آخر بدأ يغريني ، بقوة لا تردّ ، لأمدّ يدي متلمسا بها ذلك الكائن الغريب المنتفض تحت الجلد !•• ان ذلك الدق المستمر بدأ يغرقني بتوتر ساحق هجست ، خلاله ، وكأن دمي أخذ يتجاوب مع ذلك العرق النابض تجاوب الصدى للصوت! لم يخطر في ذهني بأنني سأجد يدي وهي تحط باصرار غريب ، على

انحناءة تلك الزاوية ! ولكنني فوجئت بها هناك ، تتحسس بانشداه، ذلك الشيء المنتفض في الداخل !•• وكنا وكأنما انبجست ، عبر تلك المسافة الفاصلة مابيننا ، قوة ساحقة بدأت تتجاذبنا باضطراد لنتوحد بعضنا نهائيا !•• وانسحب كل ما حولنا من ارض وشجر وسماء وريح •• انسحب كل ما حولنا بعيدا وبقيت واياها كائنين بدائيين تتحكم بهما غريزة الجسد !•• وكان ذلك العرق يدق •• يدق •• يدق وبعنف تحت راحة يدي • وكان اللحم ، كما توقعت ، دافئاً بشكل غريب يغري الاصابع بأن تتوغل عبر تلك المنحدرات الغامضة بحثاً عن النبع الذي ينطلق منه ذلك الايقاع المستفز •• كنت وبكل وجودي اندفع وراء تلك اليد التي تمردت ، وبشكل نهائي ، على كل قيد كان يشدّها بي !•• وهناك حيث اللحم يندلق في كل اتجـاه بتحد وغموض ، شعرت بالدق يدوي بشكل لا يصدّق •• أحسست بقلبها ينتفض تحت كفي مثل عصفور ذبيح •• وتساءلت مـع نفسي : هل هي تلك الارادة الغامضة التي شحذها الانتظار المرير طوال السنوات الست الماضية حتى اصبحت ارهف من الحافة الفاصلة بين الحياة والموت ، تلك الحافة التي يستوي عندها كل شيء ؟ وقلت أيضا : ام انها القوة الغامضة التي انفجرت أخـيرا لتعلن عن نفسها بوضوح بعدما اصبح الضغط فوق الاحتمال ؟ وتساءلت أخيرا بتوجس : أهي الارادة ام القوة ؟ ام انها الاثنتان معا ؟ وان كانت كذلك فهل سيكون الانطلاق الى الامام والى ابعد مدى ؟ أم انه مجرد شوط محدود ؟! ذلك هو ما كان يحيرني في الحقيقة !•• ولكنني ، وكما تخيلت ، شعرت بذلك الكائن يفيض

عن كفي .. افتح اصابعي على آخرها ولكنه كان يفيض باستمرار .. قلت : اليد الواحدة لا تكفي .. ومددت بيدي الثانية ... ولكنهما كانا يندلقان في كل اتجاه !.. ان حاصرتهما فجأة وظننت انني اسرتهما أخيرا ، فوجئت بهما يفيضان خارج أسر الاصابع !.. كانا كائنين متمردين بشكل لا يطاق . وكانت ذروتاهما الناتئتان تتشنجان باستمرار مثل برعمين ، بحجم رأس الخنصر ، توترا بعنف فوق عصارة النسغ المتفجرة تحت قشرتهما الرقيقة .. وكانت كفاي قد اصبحتا مثل حيوانين ضاريين يفترسان اللحم باستمرار ويبحثان عن المزيد !.. هل كانا يبحثان عن غابة عذراء لم تطأها قـــدم ؟!

وكان الحيوانان الصاخبان ينحدران باستمرار وهما يحلمان بتلك الغابة !.. وكما يحدث في الحلم ، تراءى لعيني المبهورتين سهل أجرد تحاذيه ، من جهة الغرب ، غابات نخيل اضفى الغروب عليها الغموض ، وقريبا منها انتصبت اكمة اعتلتها بقايا قرية مهجورة .. ومن خلال ذلك الخراب الشامل تراءت لي شجرة توت وحيدة تميل مع هبوب الريح غربا حيث الشمس تختفي كل يوم وارواح البشر تتصاعد كل لحظة ، كانت الشجرة تهتز بانسياب وكأنها تومىء لي بتحية الوداع .. وتناهى لسمعي خبب خافت كان يتصاعد باستمرار ومعه بدأت الاكمة والقرية والنخيل تختفي ببطء وهدوء ... وبعيدا .. بعيدا .. تحت شعاع شمس قديمة ومض حصان أشهب اعتلى صهوته فارس مديد القامة .. طرّ الحصان الســهل الاجرد الذي كاد يختفي خلال ذلك الشعاع الغريب ، ولكنني

بقيت أسمع خببه وهو يترجع في سمعي بصدى موحش ومعـــه تصاعد صدى نقر رتيب بدأ يدق •• يدق باصرار ، وكان الليل قد خيم وملايين النجوم بدأت تنبض بصمت • كان ليلا شاسعـا جرّحت صمته مصابيح طائرات الاستطلاع الحمراء وهي تشتعل وتنطفيء •• وتشتعل باستمرار •• وفجأة دوى هدير أصم اعقبه صوت انفجار هائل واختلط في ذهني كل شيء : الليل اصبح نهارا والشمس سطعت بحدة على حديد خوذات متراصفة عند حافة خنادق رطبة •• ولم أدر كيف وجدت نفسي هناك انظر لكل ما حولـي بدهشة وغضب ، وبندقيتي ، المستكينة بين يدي بحياد ، بـــاردة لحدّ الجمد !•• ومع الدوي المستمر وجدتني اتطلع عن كثـب في عيني جندي قميء القامة استلقى بين يدي باستسلام • كان لـه وجه غريب بدا وكأنه أدخل في جوف أتون ملتهب فاندغمت ملامحه بعضها ! •• ولمحت في تينك العينين اللتين كانتا تتطلعان في وجهي بثبات ، سماء نائية افتقدت لونها الازرق القديم • شعرت بأنني أعرف ذلك الجندي • قلت مع نفسي : ترى من يكون ؟ كنت على ثقة مطلقة من انني اعرفه ، ولكن من هو ؟! وتطلعت في عينيـــه ملياً كانتا عينين بريئتين لدرجة لا تطاق ؟•• وفجأة عرفته : انـه مصطفى غريب !••

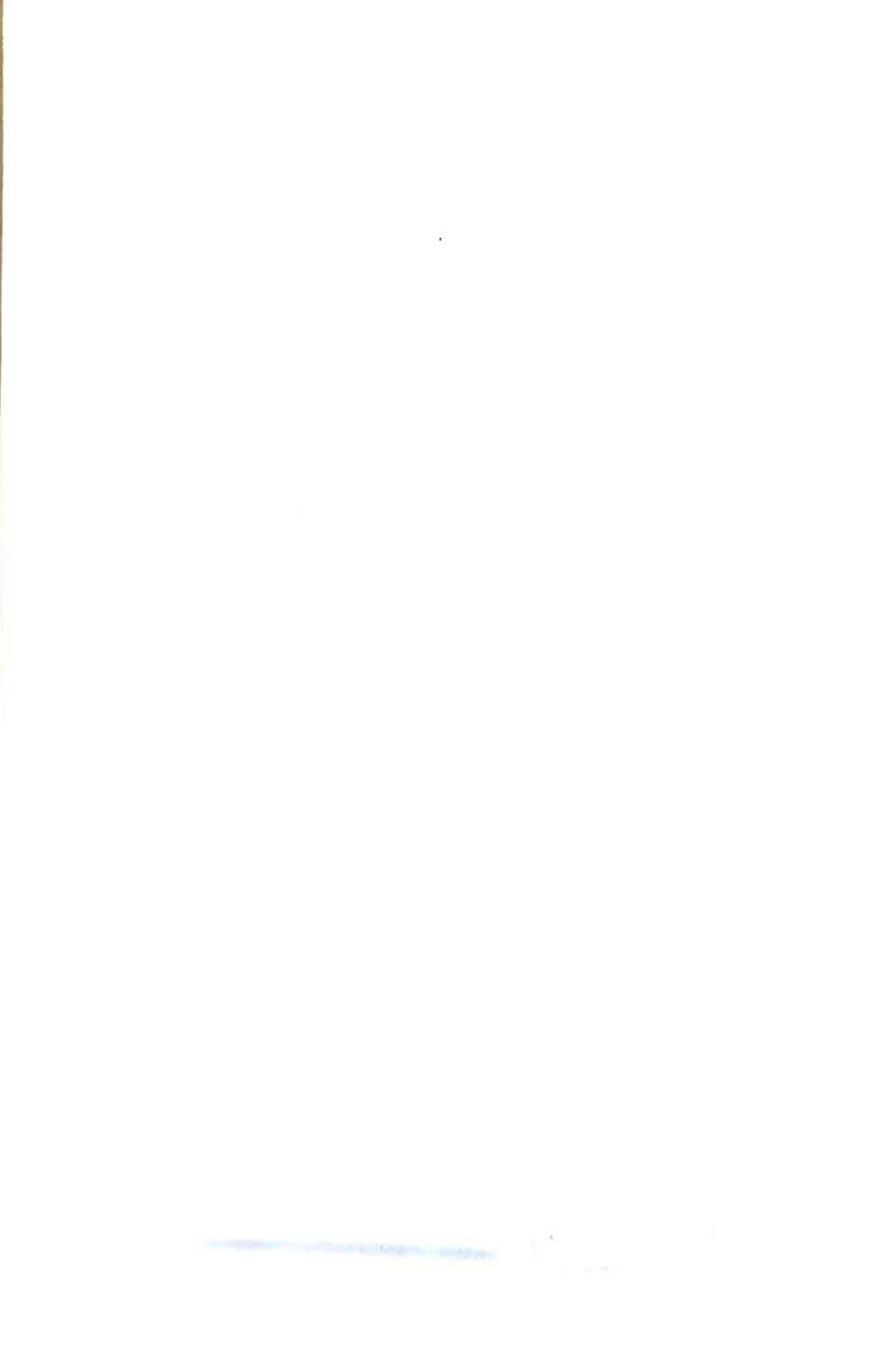
وكما يستيقظ النائم فجأة ، انتبهت الى نفسي لارى جميلة مستكينة بين ذراعي وهي تحدّق في وجهي بعينين مثقلتين بالانشداه والنشوة ، وكانت شمس « تشرين » تومض فيهما بشكل لا يصدق وعلى جسدها المندّى بالعرق وعلى العشب الذي انسحق تحت ثقل

جسدينا كانت الشمس تسطع ايضا !•• وكان صدى ذلك النقر الرتيب لا يزال يتردد في سمعي ، ومعه كنت اسمع النقر الجارح الأصم الذي انطلق قبل ساعة عبر القرى والذي انطلق هناك في الجبهة •• وعلى حين غرة سمعتني اهتف بفم تحلب لعابا ولسان تقافز في كل اتجاه مثل أفعى تمرّدت نهائيا على الايقاع الرتيب لمزمار الحاوي :

ـ جميلة •• ان كنت ارفض النقر الرتيب المتسم بالغباء ، فأنا مع النقر الاخر •• النقر الاصم الجارح الذي قد يلوّث الجسد بالدم ولكنه يوقظ الاحساس بالالم في اللحم الميت لتتفجر الحياة فيه بعنف وضراوة !!••

وكنت لا ازال المح الشمس تومض في عينيها وكانت السماء زرقاء كما لم تكن من قبل • وهناك على رقبتي المنداة بالعرق شعرت بالشعاع الساخن يلسعني باستمرار •• وكان العرق الذي غمر جسدي يسيل ليمتزج بعرق جسد جميلة ويقطر باتجاه الارض المهيأة للحراثة والزرع •• ولاول مرة اكتشفت بأن جميلة ليست مجرد جسد بارد تمتد بيني وبينه شمس حزيران القاسية وخنادق رطبة عشش العفن فيها طوال ست سنوات ، وعينان بريئتان لدرجة لا تطاق !•• شعرت بجميلة رحما يمور بالخصب والامومة !•• وصدّقت بأن الحرب قد أندلعت هناك !••

المساء



جنحت الشمس غرباً ، فأصبح في الامكان النظر الى قرصها البرتقالي الملتهب الذي بدا ، من خلال الاشجار المنتصبة امام المنزل وكأنه سيهبط ببطء وهدوء ، ولكن باصرار لا يرد ، فوق سقف المنزل . كانت الواجهة الامامية مغمورة بظل كثيف يمتـــد حتى منتصف أرض الفسحة المعشبة ، الا انه لم يستطع طمس بقع رطبة داكنة اللون انتشرت خلال الطلاء الطيني للواجهة التي انفتحت فيها أربع نوافذ ضيقة قياسا الى ارتفاع وامتداد الجدار . النافذة الاولى الى اليمين يعقبها باب خشبي موارب ، تتعاقب بعده نافذتان اثنتان،

والنافذة الرابعة تنفتح فوق النافذة الثالثة بالضبط • ان باب المنزل يجنح الى اليمين ، لذا فان الممر الممتد امامه يقسم الفسحة المعشبة الى قسمين غير متساويين ، فالذي على اليمين يكاد ان يكون مربع الشكل تشمخ فيه أربع أو خمس اشجار ، ويمتد منه شريط ضيق يحيط بالجدار الجانبي للمنزل • في ذلك الشريط ينتصب كوخ مهجور تداعى سقفه جانبا ، ومن الواضح بأنه كان في يوم ما حظيرة للماشية او ما شابه ذلك • اما القسم الذي على يسار الممر فانه يكاد يكون ثلاثة اضعاف القسم الاول ، وهو مستطيل الشكل يتفرع منه شريط واسع بعض الشيء يحيط بالجانب الأيسر للمنزل • تنتصب في هذا القسم اشجار معمرة كثيرة تتوزع بين التـــوت والكالبتوس والعناب والزعرور وثلاث او اربع نخلات قميئـــة تكاد تختفي تحت غطاء نباتي متسلق • وهناك بضعة اشجار توت تنتصب عبر الشريط الممتد الى يسار المنزل • حول الفسحة المعشبة يرتفع سياج منخفض قوامه سيقان القصب المورقة ونباتات السيسبان •• وهذا السياج يحيط بالفسحة من ثلاث جهات وينفتح امـــام الممر المرصوف بالحصباء ، الذي ينحني برفق ليلتقي بحافة الطريق العريض القادم من الشمال باتجاه الجنوب • ان عجلات الشاحنات الثقيلة قد مهدت هذا الطريق فانخفض عن مستوى الارض المحدقة به من الجانبين •

الى يســـار المنزل يتفرع من الطريـــق العريض طريـــق آخر يدرج باستقامة ، عبر أرض مزغبة بالعشب ، باتجاه غابـات النخيل المتماسكة على شكل جدار رمادي يرتفع تحت قـــرص

الشمس الهابط باستمرار • امام تعامد الطريقين ، في الجهة الثانية ، تشمخ شجرة سدر هرمة تشابكت غصونها وأوراقها القديمة ذات الخضرة الداكنة مع الاوراق ذات الخضرة الشفافة والتي تفتحت مع قدوم هذا الربيع فبدت مثل كتلة متماسكة بامكانها الصمود امام العواصف والامطار • اما الجذع الرمادي الغليظ فقد تشقق لحاؤه في أكثر من موضع ونفرت منه عروق احاطت بفجوات داكنة انتشرت على امتداد الجذع • يخيل للمرء بأنه من المحال ان توجد قطرة ماء واحدة خلف قشرة ذلك الجذع !•• انه اشبه بكتلة حطب غليظة جففها قيظ الصيف طوال عشرات السنين ، ولكنه سرعان ما يفاجأ بالغصون والاوراق الخضراء في الاعلى ، فيحار ! ولا يملك تفسيرا معقولا عن كيفية صعود النسغ خلال ذلك الخشب القديم!• الا انه سيستشف بالتأكيد عنف وضراوة ذلك الصراع المرير الذي خاضت غماره تلك الشجرة امام قوى الطبيعة الساحقة وعبر حقب طويلة !••

خلف الشجرة ، بموازاة الطريق ، ترتفع حافتا نهر مثقلتان بغطاء نباتي متماسك ، من خلالهما يسمع صوت اصطفاق الماء المندفع عبر المجرى الضيق الرطب باتجاه الجنوب ، وكأن النهر يؤكد باصطفاقه المسموع على حضوره الابدي رغم ذلك الغطاء النباتي الذي جثم فوق حافتيه المرتفعتين بعض الشيء • بعيدا •• خلف النهر يدرج سهب اخضر باتجاه الشرق تلك هي حقول القمح وقد اكتست بخضرة يانعة سرعان ما تعتكر بالتدريج كلما اوغلت في البعد لتتحول الى لون بني غامق تنتصب خلفه تلال متراصفة

لطخ شعاع الشمس البرتقالي حدباتها المتعرجة التي تؤطر أفقـــا بنفسجيا يصعد عاليا مفتقدا باستمرار كثافة لونه الاول ليكتسي بلون رمادي غامق سرعان ما تخالطه زرقة داكنة تشفّ بانسياب عبر قبة السماء . ومن هناك ، وعبر انحدار هاديء باتجاه الغرب يتشرب اللون الازرق بلون برتقالي ينسفح على شكل هالة واسعة يذوب محيطها في زرقة السماء . ولكـــنّ الشمس ، التي ازداد انحدارها الان باتجاه سقف المنزل ، تظل المحور الاساسي لتلك الفوضى اللونية المدوخة .

ان ضوءا مرتعشا بدأ يخفق الان خلال مستطيل النافذة الاولى التي على يمين الباب . قد يكون ذلك الضوء المتراقص بسبب لهب نار أذكيت في موقد عامر بالجمر في جوف الغرفة المعتم . وها هو صوت ارتطام أواني وأوعية معدنية ببعضها يسمع بين لحظة وأخرى .. ومن ثم يسمع نشيش سائل دهني لابد انه وضع على نـــــار الموقد المختفي خلف تلك النافذة . الباب لا يزال مواربا ، والنافذة التي على يساره معتمة ، أما النافذة الثالثة التي في أقصى اليسار فانها تتألق بسبب سطوع جوف الغرفة تحت شعاع الشمس الساقط عبر الباب المفتوح على آخره . خلف الزاوية السفلية اليســـرى لمستطيل النافذة الاصفر تظهر وبوضوح كتلة مستديرة قد تكون رأس انسان جالس هناك خلف النافذة .. او شيئا من هذا القبيل. النافذة الرابعة التي في الاعلى متألقة أيضا بسبب شعاع الشمس الساقط عبر باب الغرفة العلوية المفتوح .. ولكنها سرعان ما تعتم ويسمع صوت اصطفاق الباب ، يعقبه بعد لحظات ظهور رأس تلفع

بغطاء اصفر مشدود تحت الذقن • لحظات ويبرز قوام امرأة فوق حافة سور السطح التي تصل الى مستوى كوعها • انها ترتدي ثوباً من لون غطاء رأسها نفسه يبرز امتلاء جسدها المتجه حثيثا نحو فوهة سلم في الامكان رؤيه سقفه من خلال اشجار الحديقة • ويسمع خفق قدميها على الدرجات العلوية للسلم ، ولكن ذلك الخفق يتلاشى بالتدريج في بئر السلم •

خلف مستطيل النافذة السفلية بدأت الكتلة المعتمة بالاستدارة الى جهة اليسار حيث باب الغرفة المفتوح ، واصبح في الامكان التأكد بأن تلك الكتلة ليست سوى رأس انسان جالس أو مضطجع على شيء ما بجوار النافذة ، وبدا من الواضح بأن ذلك الشخص قد انتبه الى خفق القدمين الهابطتين عبر السلم المختفي في جوف البيت•

اقترب قرص الشمس ، الآن من حافة سور السطح التي توهجت بسطوع ذهبي وكأن رذاذا ذهبيا تطاير منها نحو القرص الملتهب الهابط للاسفل بقوة انجذاب متبادلة تكاد توحدهما ببعضهما بين لحظة وأخرى • وازداد توهج مستطيل النافذة السفلية، وكان رأس الرجل لا يزال محافظا على استدارته نحو الباب وكأنه يتوقع امرا معينا ، وسرعان ما اختفى الرأس وذلك عندما حجب شعاع الشمس الساقط عبر الباب قوام شخص آخر وقف هناك للحظات فاعتكر سطوع الغرفة • ولكن ذلك الشخص استدار داخل الغرفة الى جهة اليسار فانصب شعاع الشمس الى الداخل من جديد وبدا من الواضح بأن ذلك الشخص لم يكن سوى المرأة ذات العصابة الصفراء •• اختفت المرأة خلف حافة النافذة واستدار

الرأس الى حيث اختفت ، ومن هناك سمع هسيس جارح لعجلات أعقبه ظهور المرأة خلف مستطيل النافذة ، وكانت منحنية الى الامام وكأنها تدفع شيئا ما يصدر عنه ذلك الهسيس المتواصل ، وقفت المرأة فوق رأس الرجل ، وانحنت باتجاهه ، ومثلما يرفع الطفل ذراعيه نحو الام التي تحاول رفعه عن الارض ، رفع الرجل ذراعيه عاليا وامسك بهما كتفي المرأة التي تماسكت معه ، وسمعت قعقعة سرير حديدي كما سمع صرير خاطف لعجلات صدمها شيء ما ، وارتفع رأس الرجل أكثر فبرزت الرقبة النابعة من بين كتفين عريضتين حجبتا الضوء ، للحظات ، عن جزء واسع من مستطيل النافذة .

قارب الرأس كتفي المرأة المنحنية باتجاهه والتي لابد أنها تبذل جهدا هائلا وهي تقوم بعملها الغامض ذاك . وتقارب الرأسان وازداد تماسك الاذرع والاكتاف وارتفع صرير السرير بصخب .. ومن ثم بدأ جسد الرجل بالهبوط واطلقت يداه كتفي المرأة بعدما أطبقتا عليهما لبعض الوقت ، وسمع الان صوت مكتوم وأنين عجلات تزعزعت تحت ثقل الجسد الهابط باتجاهها . لم يبق ظاهرا من جسم الرجل سوى رأسه ، واستقامت المرأة بقوامها وبدأت تحرك الهواء براحة يدها امام وجهها ، وكانت تتنفس بوضوح ، وصدرها يعلو ويهبط باستمرار . لحظات وأولت النافذة ظهرها حاجزة رأس الرجل أمامها ، ومع انحناءتها الى الامام وتوجهها نحو الباب المشرع ارتفع هسيس العجلات ليجرح الصمت المخيم . واندفعت المرأة خلال الباب واستدارت يمينا ساحبة خلفها الباب

الذي اصطفق بصوت مكتوم وغمر الغرفة الظلام • وكانت النافذة التي بسحاذاتها لا تزال معتمة وكذلك الباب المغلق ، أما النافـــذة التي على اليمين فانها لا تزال تعكس توهج نار مستعرة في الداخل ، الا أن انعكاس اللهب هناك كان اقل حدة من السابق • وكــان قرص الشمس قد قارب حافة السور حتى كاد يلتصق بهـــا ، بل ان تلك الحافة بدت وكأنها تحولت الى ذوب نحاس سائل تصاعد عاليا ليتوحد ، بقوة جذب خفية ، بالقرص الملتهب •

سمع صرير العجلات ، هذه المرة ، من خلف الباب الـــذي أشرع ، بعد لحظات ، على مصراعيه ، ووقفت المرأة ذات العصابة الصفراء في المستطيل المعتم للباب • كان ثوبها الاصفر ينساب للاسفل ، بعدما يتكور بعض الشيء فوق البطن ليمس سطح الارض• عندما استدارت المرأة عائدة الى الداخل •• نفرت ، من تحـــت طية عصابتها ، ضفيرة وحيدة تلوت خلف ظهرها ، وهناك حيـث العتمة تخيم في الداخل أمكن رؤية كتلة شيء اشبه بانسان جالس على كرسي ، وكانت المرأة قد استدارت خلف تلك الكتلة وبدأت تدفعها نحو الباب فتحركت بيسر وصدر عنها هسيس العجلات الذي سمع قبل قليل • وارتطم شيء معدني بالارض داخل الغرفة التي على اليمين أعقبه صوت امرأة من هناك ، قالت المرأة بصوت هادىء النبرات :

ـ أرجو ان لا تتأخرا كثيرا !•• اسمعي لا تنسي أن تدثري جسده بغطاء !•• اخشى أن تشتد وطأة الحمى عليه •• كيف انـت الان يا حازم ؟!••

وأجابها صوت حازم الذي انبثق من تلك الكتلة الغاطسة في عتمة الرواق :

ـ بخير •• انني بخير يا أماه •• بل اكاد اجزم بأن الحمى قد بارحتني !••

وانطلقت ضحكة ناعمة من المرأة ذات العصابة الصفراء وقالت بعدما ادارت رأسها باتجاه باب الغرفة :

ـ انه يدعي المرض يا عمتي !•• هل تصورت حقا بأنه محموم ؟!•• كل ما هنالك هو انه ضجر من استمراره في الاضطجاع على سريره طوال الايام الثلاثة المطرة فأدعى المرض !••

وبراحة يدها مسدت تكويرة بطنها ، وهتفت بلهجة مرحة وساخرة في الوقت نفسه •

ـ سيصبح أبا ولا يكفّ عن تدلله علينا !•• سبحان الله !••

وجاءهما صوت الام من داخل الغرفة هاتفة باستنكار ••

ـ لا يا جميلة •• لقد كانت جبهته تستعر نارا !•• كان محموما •• انا متأكدة من ذلك !

وللمرة الثانية أطلقت جميلة ضحكتها الناعمة تلك ، هاتفة باللهجة الساخرة نفسها :

ـ لم يكن جبينه ساخنا قدر ما تتصورين !•• بل ان يدك هي التي كانت باردة لحد الجمد بسبب تلك الاوحال التي غمرتها فيها صباح اليوم بحثا عن الفطر !!••

وقاطعها حازم وكأن صبره قد نفد :

ـ هيا يا جميلة .. اشعر وكأنّ جسدي يتآكلني شوقا لشعاع الشمس الذى حرمت منه طوال الايام الممطرة ..

ورفع صوته عاليا بعدما أدار رأسه نحو الغرفة :

ـ اطمئني يا أماه .. لقد تدثرت بغطائي الصوفي السميك .. اطمئني !..

وارتفع هسيس العجلات من جديد ، ومع أول رشقة ضوء نفذت عبر الباب ، اتضح بأنّ تلك الكتلة ليست سوى عربة بثلاث عجلات ، اقتعدها رجل عريض المنكبين ، تلفع حتى وسطه بغطاء صوفي ازرق انسدل ، عقب ركبتيه اللتين بترت ساقاهما ، للأسفل متأرجحا على الفراغ !..

ارتفعت قعقعة العجلات فوق الممر المرصوف بالحصباء ، وبدت جميلة بانحنائها نحو العربة وكأنها تطعن الريح برأسها ، وكان كفلها يتأرجح مع كل خطوة تخطوها الى الامام ، بانحدار العربة نحو الطريق المنخفض ، واستدارتها الى اليمين ، رسمت العجلات ، على التراب الممهد ، ثلاثة خطوط مقوّسة .

ان مقعد العربة يكاد يضيق بجسد حازم الذي أراح ساعديه على مسندين ارتفعا فوق رفرف العجلتين الجانبيتين . وكان الغطاء الازرق يتأرجح باستمرار مع اندفاع العربة إلى الامام ، وكانت ظلال اشجار الفسحة ترتقي جسديهما من وقت لآخر ، والارض تنفلت تحت العجلات الدائرة بانسياب ، وكان اصطفاق الماء يسمع بوضوح

من خلال الغطاء النباتي المرتفع على يسارهما ••

ـ جميلة انظري !•• لقد تفتحت براعم جديدة في اغصان الشجرة !••

نطق حازم بتلك الكلمات بلهجة من اكتشف أمرا خارقا يبعث على البهجة !•• ودون أن ترفع جميلة يديها عن مسند العربة المندفعة الى الامام منحت شجرة السدر ، التي خالطت خضرة أوراقها القديمة الداكنة خضرة شفافة لاوراق تفتحت حديثا ، نظرة خاطفة وعادت بوجهها الى الامام وهي تتابع خطوها المصحوب بهسيس العجلات الثلاث ، وزادت من انحنائها نحو العربة فانقذفت ضفيرتها على صدرها ، وبحركة رشيقة من رأسها شمرت بها خلف ظهرها ، وقالت :

ـ انه الربيع !•• انظر الى الارض المزغبة بالعشب الناعم !

وبنظرة متوحدة حدقا في اللطخات الخضراء المنتشرة على الارض الرطبة التي تخللتها برك مياه ضحلة ، وتنصتا معا لصوت اصطفاق ماء النهر •

عندما اصبحت شجرة السدر على يسارهما تماما ادارت جميلة بالعربة يميناً حيث الطريق المتجه غربا ، فانبهرت عيونهما بالضوء الساطع الذي انصب على وجهيهما بعدما غادرا ظلال الاشجار وواجها الشمس المنحدرة نحو مضجعه • ومثل موجة تصفع صخرة على الساحل فتبللها بكاملها ، انداح الضوء البرتقالي على وجهيهما وألغى الظلال التي تحدد الملامح وفضح ما اعتورها من عطب : هناك

تغضن بسيط انتفخ تحت عيني جميلة الواسعتين والمنطويتين على حنان ودفء لا يرتسمان الا في العيون المحبة !.. وهناك عند فتحة الثوب حيث الشعاع ينزلق برفق ، أمكن ملاحظة منبت ثدييها المرتجين تحت طية الثوب . وكان شعاع الشمس ينتشر أيضا على وجه حازم موضحا آثار بثور ومسامات داكنة انتشرت عبر بشرته السمراء الحليقة ، وعلى الوجنة اليمنى ظهر بوضوح اثر جرح قديم امتدّ على شكل ندبة قد تكون بسبب شيء حاد كشط سطح البشرة ولم يتوغل عميقا . كانت الرقبة المتماسكة تندفع باعتداد من خلال ياقة ثوب رصاصي انسدلت فوقه سترة بنية اللون ، وكان الغطاء الازرق يواصل تأرجحه على الفراغ .

على يمينهما ارتفع الجدار الجانبي للمنزل ، وهو جدار طيني مرتفع يبدو أنه جدار غرفتين متعامدتين واحدة فوق الاخرى ، وكان شريط معشب ، تكتنفه اشجار توت ، يمتد من ارض الفسحة ليحيط بذلك الجدار الذي يتفرع منه سور طيني منخفض احاط بالفناء الخلفي للمنزل . على جانبي الطريق ـ بعدما تراجع المنزل الى الوراء ـ انتشرت برك مياه ضحلة توزعت خلال الارض الموحلة، وكانت سطوحها المتماوجة برفق تسطع ، مثل ذوب نحاس مصهور ، تحت الشعاع البرتقالي . ولم يكن الطريق موحلا بل بدا رطبا بعض الشيء لانه كان مغطى بطبقة كثيفة من الحصباء والرمال مهدتها عجلات الشاحنات ووحدتها بلحمة الارض المتماسكة . الى الامام تراصفت كتل النخيل الرمادية التي بدءا يقتربان منها حثيثا .. وكان قرص الشمس يتدلى فوقها مباشرة ليمس بشعاعه الساطع قممها

المتعرجة تاركا قاعدتها المديدة لسحب الضباب والدخان ، وللمرة الثانية طغى صوت حازم على هسيس العجلات .

ـ قبل ستة اشهر ، يوم ودعتكم وتوجهت الى هناك ...

وبحركة واسعة من يده قام بايماءة مبهمة بدت وكأنها تشير الى شيء ابعد مما امامهما من طريق تلامع تحت ضوء الشمس وأرض تخللتها برك المياه وغابات نخيل ... ، واكمل :

ـ .. في ذلك اليوم لاحظتها ، وكانت مثقلة باوراقها القديمة الداكنة .. وها هي اليوم وقد تفتقت براعمها الجديدة !..

قذفت جميلة مؤخرة الرقبة المتأرجحة مع اهتزاز العربة بنظرة حائرة ، وكأنها لم تدرك مقصده ، الا أن وجهها سرعان ما اشرق وادارت به الى الخلف متطلعة نحو شجرة السدر ، ومن ثم عادت بعينيها لتعقفهما باتجاه الرقبة ولتتطلع فيما بعد الى حيث اشار بيده قبل لحظات .. بعينين تكادان تكونان مغمضتين بسبب الشمس أو لامر ما اعتلج في أعماقها ، تطلعت الى هناك وهتفت بصوت حالم :

ـ انها ستة اشهر تمر على ذلك اليوم الذي غادرتنا فيه !.. فكيف ينسى بهذه السهولة ؟! بل كيف ينسى مثل ذلك اليوم على الاطلاق ؟!.. يومها تلبستني الحيرة وتساوى لدي الحزن والفرح .. نعم .. لقد كانت فرحتي مشوبة بحزن خفي قد يكون بسبب افتقادي لك . تلك كانت اول مرة تغادرنا فيها عقب زواجنا !.. ثم لا تنس بأن الحرب هي الحرب !..

وكمن يلذ له ان يستعيد ذكريات حميمة ترسخت في ذهنه ، أغمض حازم عينيه وترك جسده ينساب مع ايقاع العجلات المرتجة ارتجاجا عذبا ، وانطلق صوته :

ـ عندما مرقت الشاحنة عبر هذا الطريق الذي نسير عليه الآن ، وكنت قد جلست في غرفة القيادة بجانب السائق ، رأيت المنزل يتراجع ، في المرآة الجانبية ، الى الخلف • وقبل ان يختفي خلف سحابة الغبار لمحتك تنفلتين مبتعدة عن أمي وحميد لتقفي لوحدك تحت شجرة السدر ، في تلك اللحظة خطر لي بأنك أنت التي تبتعدين عني !•• فشعرت بالحزن يعصر قلبي والهواء يحتبس في حلقي ، بل كادت عيناي تتنديان بالدمع !•• الا ان ثرثرة السائق انقذتني من الاسترسال في الحزن • بدأ صوته الثاقب يرن في جوف غرفة القيادة ليعلو على الهدير الاصمّ • تكلمّ بانفعال مؤكدا ما يقوله بحركات متشنجة من رأسه الذي ابيضّ شعره الاكرت • كان يقذفني ، بين فينة واخرى ، بنظرة خاطفة من عينين احمر بياضهما ، وكانت يداه المشعرتان تديران العجلة باستمرار • تحدث عن الحرب المندلعة هناك ، تلك الحرب التي طال انتظارنا لها ، وعن الشجاعة والاقدام اللذين سيبديهما المقاتل العربي لاسترداد أرضه التي أغتصبت بالغدر والخديعة •• وتحدث كذلك عن جيشنا الذي بدأ زحفه الاسطوري عبر الصحراء ليكون له شرف المساهمة في تلك الحرب المقدسة • وانتقل فجأة للحديث ، بحماس ، عن المعارك التي خاض غمارها قبل خمس وعشرين سنة ••• تلك المعارك التي كبحت جماحها الخيانة !•• قال بأنه قد جرح في آخر معركة

قبل اعلان الهدنة ، وأكد بفخر بأنه يعتز بأثر ذلك الجرح الذي انطبع على كتفه اليمنى ، وبعد محاولات شتى بذلها للكشف عن أثـــر جرحه ذاك ، كانت نتيجتها الفشل بسبب الشاحنة التي كـادت تخرج عن الطريق أكثر من مرة ، طلب مني أن أتحسس ذلك الأثر من فوق طيات القماش • وعلى حين فجأة انتقل متحدثا عن حرب « حزيران » التي كانت حربا من جهة واحدة لم تسنح الفرصـــة الحقيقية أمام المقاتل العربي ليؤدي دوره الفعلي في معركة طـال تعطشه لها • وتكلم بسخط عن ذلك الانتظار المرير الذي استمر لست سنوات كاملة ! وعن الفدائيين والعمليات البطولية التي أبقت الجبهات مشتعلة رغم صمت المدافع !•• واثناء توقفه عن الكلام للحظات ، بعدما ناولني سيجارة وبدأ يوقد سيجارته ، أخبرتـــه بأنني قد استدعيت لخدمة الاحتياط وبأنني قد اتوجه مع كتيبتي التي قد تتحرك بين يوم واخر ، الى الجبهة !••

عندما اخبرته بذلك كاد ينسى بأنه يقود شاحنة ثقيلـــة محملة باطنان من الحجارة !•• فقد تجمدت يداه على عجلة القيادة وأدار وجهه الداكن السمرة والمخدد بتجاعيد متشابكة انتشرت عبر ملامحه الحادة التي بدت ، تحت لمة شعره الابيض ، وكأنها صخرة قديمة كللها الجليد ، أدار وجهه باتجاهي وحدّق في عيني مليا ، كان وكأنه يرى معجزة خارقة تتحقق أمامه !•• وكانت نظرته تلك مزيجا من الحب والتقديس والحزن ، ولو لا ارتجاج الشاحنة ، بعد انحرافها عن الطريق المعهد ، لتطلع في وجهي لفترة أطول !•• عاد بوجهه الى الامام متطلعاً ، عن كثب ، الى الطريق المندفع باتجاهنا ،

ولم يستدر نحوي ولو لمرة واحدة وكفّ عن ثرثرته نهائيا • ولكن وجهه كشف عن حزن عميق ، وبدا وكأنه يخوض غمار صراع رهيب كاد يتفجر عبر حركاته المتشنجة التي بدت بوضوح من خـــلال قبضتيه اللتين تمسكتا بعجلة القيادة بعنف حتى انسحب الدم عنهما ونفرت عروقهما الزرقاء • وكان قد أطبق بقدمه على البنزين عـلى آخره ، فاندفعت الشاحنة بسرعة كبيرة وقد انصب هديرها الصاخب في سمعي بعنف ، وبدا وجهه وكأنه وجه تمثال صب على وضعيتـه الثابتة تلك ، وكانت شفتاه تختلجان بين لحظة واخرى وسيجارته تتنقل عبر زاويتيهما والدخان ينساب من منخريه بكثافة • في المدينة الممتدة هناك خلف غابات النخيل وقبل أن أهبط من الشاحنة ، مدّ لي يدا مشعرة ، وصافحني بقوة متطلعا في عينيّ بنظرة أبوية ، وقال لي بصوت جاهد على أن يجعله يبدو طبيعيا : « كن محارباً جيدا يا بني •• ولكن عد لنا سالماً ! •• » وعندما أطبقت الباب خلفي مد لي رأسه وقال : « أرجو أن تعذروني لما بدر مني من انفعال قد يكون بالنسبة لك بدون مبرر !•• » وعقف عينيه نحو الارض وأكمل : « كان ابني مع الفدائيين !•• واستشهد في احدى المعارك في الارض المحتلة !•• » وسحب وجهه الى الداخل وبدأ المحرك يهدر بصخب ، وقبل أن تندفع الشاحنة سمعته يقول بصوت متهدج دون ان يستدير باتجاهي : « لست حزينا يا بنيّ !•• ولكنه •• كان ابني الوحيد !•• » وفي طريقي الى الجبهة ـ وكنت قد توليت قيادة شاحنة محملة بالجنود لاصل بها ارض المعركة والتحق بزملائي جنود المشاة فيما بعد ـ بقي وجهه الاسمر الذي

اعتلته لمة شعر بيضاء ، مرتسما أمام عيني لفترة طويلة • كان وجها يتسم بطيبة قد تبدو في عيون البعض ضربا من السذاجة • ولم ادر لِمَ ذكّرني ذلك الوجه بوجه مدرس « العلوم » الذي كان يدرسنا في آخر سنوات دراستي المتوسطة ، تلك السنة التي تركت بعدها المدرسة نهائياً وانقطعت عن الذهاب الى المدينة ، لعدم وجود مدرسة أعلى من المرحلة التي اجتزتها ، وتفرغت للعمل مع ابي في الحقل ، كان ذلك المدرس نسخة ثانية من ذلك السائق ، بل انه كاد يشبهه في ملامح الوجه وبياض الشعر لولا تلك النظارة الطبية المستقرة دائما على منبت انفه المحمر ، وكان بعض الطلاب الخبثاء يستغلون طيبة قلبه : فقد طلب منا في احدى المرات ، ان نحضر ضفدعة ميتة لكي يشرّحها أثناء الدرس • وقدّم له احد الطلاب كيسا ورقيا قال بأن الضفدعة في داخله • وما كاد يمد يده حتى قفزت الضفدعة وارتطمت بوجهه فأغرق الطلاب في عاصفة من الضحك !•• لقد جعلتني تلك الوداعة المرتسمة في وجه ذلك السائق أن أتخيل مدى عزلة هؤلاء الرجال المجهولين الذين قصرت لديهم المسافة الفاصلة بين الفرح والحزن حتى كادت تصبح بحجم ابتسامة ترتسم على شفاههم في لحظة سعادة مفاجئة ، أو بحجم دمعة يذرفونها في لحظة ضعف لابد منها طالما بقيت ذكريات الاحباء الذين مضوا ماثلة في أذهانهم !•• كان وجها يصعب على المرء نسيانه •• ولشدّة استغراقي في التفكير به نبهني العريف الذي كان يجلس بجانبي في غرفة القيادة ، أكثر من مرة ، بأن أكون حذرا لان ذلك الطريق الممتد باتجاه الغرب كان يغص بالشاحنات وناقلات الدبابات وعربات الاسعاف ••

وعقف حازم عينيه نحو الارض المندفعة تحت عجلتي العربة الجانبيتين ، قاذفا الفراغ الذي كان الغطاء الازرق يتأرجح فوقه ، بنظرة ذاهلة .

رفعت جميلة وجهها عاليا وشمرت ضفيرتها الوحيدة ، التي انزلقت الى الامام ، خلف ظهرها بحركتها القديمة التي طالما أحبها حازم . كان شعاع الشمس يلامس بشرتها برقة .. فبدا مثل قناع برتقالي رقيق شفّ فوق ملامح الوجه ، تطلعت نحو اشجار النخيل التي انفتحت بين جذوعها فجوات داكنة ، بعدما اقتربا منها بعض الشيء ، ان تلك الفجوات قد تكون فوهات ممرات تخترق كتلتها المتماسكة لتؤدي نحو الادغال الكثيفة ، وقالت بصوت حالم انساب مع أنين عجلات العربة :

ـ بعدما ابتلعت سحابة الغبار الشاحنة ، بقيت واقفة تحت شجرة السدر لفترة طويلة ، حتى انني لم اعد المح أيما سحابة غبار على امتداد الطريق . عندها فقط صحوت على ضجيج العصافير المتخاصمة بين اغصان الشجرة ، وعلى الارض الرطبة ، قرب الجذع الرمادي الغليظ ، رأيت بعض الاوراق الصفراء المتساقطة ، ولم أدر لِمَ تذكرت ذلك الصيف البعيد يوم أحرقنا الدغل استعدادا لبناء المنزل !.. بل انني طوفت حول جذع الشجرة باحثة عن ذلك الموقد الذي طبخنا غذاءنا عليه !.. ولكنني لم أجد أيما أثر له ، الا انني كنت أراه !.. بعيني القديمتين كنت أراه هناك خلف الجذع ، بل كدت اشعر بوجنتي تلامس خدك ونحن ننفخ معا النار الخامدة تحت القدر .. وكما حدث في ذلك اليوم البعيد ، شعرت برعشة

عذبة هزّت جسدي !.. هل كنت أحلم ؟ لا استطيع أن أجزم بذلك !.. فكل ما اتذكره هو انني اتجهت نحو النهر وأنا ذاهلة أمشي كالسائر في نومه ! وهناك ، قرب المخاضة التي سبحنا فيها في ذلك الصيف البعيد ، ارتكنت جالسة على الحافة المعشبة للنهر ، وعلى جانبيّ وخلف ظهري كانت سيقان القصب والحلفاء وشجيرات الصفصاف تطلق ، كلما هبت الريح ، صفيراً فاجعاً ملأني بالحزن ، ولكنَ الماء كان يجري في الاسفل والسماء الساطعة تومض خلال طيات التيار المدوّم عبر حافتي المجرى الرطب . تحت قدميّ اللتين غمرتهما في الماء كانت دوامات صغيرة تنبثق باستمرار مجتذبة لهوتها الدائرة تتف القش والثمار الجافة والحشائش الطافية ، وأحسست وكأني انجذبت نحو النهر ، فلم أستطع منع نفسي من الانحدار نحو الماء . ومثلما كنت في الماضي صبية شقية لا يكاد يخطر في ذهنها أمر ما الا ونفذته على الفور ، شعرت بهاجس طفولي دفع بي أن أدع الحذر جانبا .. وهكذا رفعت ثوبي عاليا وخضت في اللجة الخضراء .. ووصل الماء فوق ركبتيّ وكان باردا لدرجة قفّ لها الزغب الناعم المنتشر على ساقيّ !.. وهناك في الاسفل حيث الماء يجري سريعا نحو الجنوب ، رأيت انعكاس فخذيّ الغليظين فوق سطح الماء المترجرج .. كانا يقتربان حثيثا من بعضهما كلما صعدا عاليا لينتهيا بعتمة غامضة فشلت مرآة النهر في كشف سرّها !.. في تلك اللحظة وجدتني أهتف في سرّي :

« عسى خصب الامومة ان يضيء عتمة هذا الجسد المحكوم بالانتظار !.. »

وكان الماء يجري باستمرار فبـــدا وكأن فخـــذي ارتجفا بصورة غامضة وكأنّ تلك العتمة بدأت تمور ببذرة الخصب !•• ولم يعد الانتظار ممكناً ، وأصبح الحذر مجرد خرافة مضحكـة !•• شعرت وكأنني توحدت بكلّ ما حولي فلو أن ارتعاش غصـــن صفصاف أمام الريح بدا أمرا معيباً ، لاصبح عريي ، في تلك اللحظة، عارا !! وهكذا وبضربة واحدة قذفت بثوبي من فوق رأسي ، فتعلق بغصن شجرة على جانب النهر ، وبدأ يتأرجح مثل جثة مشنوق !•• وفي الأسفل شعرت وكأن النهر انبهر امام ذلك البياض الساطع الذي اقتحمه على حين غرة !•• وكان التيار الجارف يسحبني باستمرار، فمنحته نفسي •• واحسست بصدمة المفاجأة لحظة ارتطام لحمي الساخن ببرودة الماء !•• ولكنني وبعدما منحته بعض دفئي ومنحني ارتعاشته الغامضة لم اعد اشعر بالبرد ، بل انني بدأت احس بالهواء باردا كلما مسّ جزءا انفلت من جسدي خارج أسر الماء •• فكنت أغطس باستمرار وأدع النهر ليتوحد بي بتماسك صميم شعرت ، من خلاله ، وكأنك احتضنتني بين ذراعيك !••

سحبت جميلة احدى يديها عن المسند الخلفي للعربة ، وحطت بها على بطنها ، وكمن يتحسس شيئاً رقيقا قابلا للعطب بسرعة ، تلمست براحة يدها المفردة تكويرة بطنها ، ومن ثم عادت بها نحو مسند العربة المتجهة نحو الشمس التي انحدرت كثيرا حتى كادت تمس بشعاعها أسفل ذقنيهما • وقالت بالنبرة الحالمة نفسها •

ـ هل تعلم يا حازم بأنه بدأ يتحرك في أحشائي ؟! مســـاء

البارحة لم يدعني انام لساعة متأخرة !.. هل .. تصورت وأنت هناك بأنك ستصبح أبا ؟!...

واشرقت بسمة مرتبكة . ومن تحت ذقنها ، حيث الارض تميد تحت العجلات الثلاث والجسد يختضّ برفق ، جاءها صوته :

ـ هناك ؟!.. تلك كلمة مبهمة لا تستطيع ان تحمل ذرةواحدة من عظمة ما كان يجري « هناك » !..

وأغمض عينيه للحظات ، ليفتحهما فيما بعد ببطء وحذر وكأنه يخشى على تلك الرؤى التي أرتسمت فيهما أن تضيع .. واكمل :

ـ .. لم تكن المسألة ان افكر بك أو بأنني سأصبح أبا !.. لا .. لم اكن افكر بك وفي الوقت نفسه كنت افكر بك !! لقد توحدت كل الاشياء الحبيبة على قلبي ببعضها عبر ذلك الطريق الصحراوي المغبر والممتد غربا !.. كان منظرا اسطوريا يكاد المرء يتصور بأن ما يراه يحدث في الحلم وما هي سوى هنيهة ويستيقظ من نومه ليتلاشى كل شيء !.. ولكنّ ما حدث ذلك اليوم كان الحقيقة التي تجسدت من خلال جئير الشاحنات والدبابات والناقلات والمصفحات وهدير طائرات الحماية !... ما حدث كان الحقيقة التي تبدت بأروع صورها فيما بذله الجنود من جهود هائلة لاجل عبور حاجز المستحيل وقطع تلك الكيلومترات الالف في بحر يوم واحد !.. كانت الناقلات الضخمة تجأر على الرمال وقد ارتكنت

فوق ظهورها دبابات كانت فوهات مدافعها تسطع تحت ضوء الشمس .. لم يكن عدد الناقلات كافيا مما اضطر القادة للايعاز لبعض الفرق المدرعة لتسيير دباباتها على السرفة ! كانت الشاحنات المحملـــة بالجنود تمرق بخفة تحت سحب الغبار ، وكان الجنود معتمريـن خوذاتهم وهم في كامل سلاحهم وعلى أتم الاستعداد ، وكأنهم منذ الآن قد دخلوا أرض المعركة ، بل بدا صراعهم مع العدو بأروع صوره في اصرارهم على قطع تلك المسافة الطويلة دون توقـف للحظة واحدة لاجل الراحة !!.. على جانبي الطريق كانت سيارات الضباط الخفيفة تمرق وهوائيات اجهزة الاتصال تهتز فوقها .. وكانت الطائرات العمودية الخاصة باصلاح ما يحدث من عطب في الناقلات ، تدرج فوق رؤوسنا ، وطائرات الحماية بهياكلها الضيقة تنخطف تحت ضوء الشمس مفجرة ذلك الخلاء المغبرّ بهديرها . كنا نتقدم باصرار غريب لا يعتوره الخور لاجل قطع تلك المسافة الفاصلة بين فوهة بنادقنا وارض المعركة !.. كنا مثل قطار اسطوري هائل ، مقدمته ولجت أرض المعركة ونهايته تواصل امتدادها عبر أرض الوطن !.. وكان الغبار قد تكاثف بشكل لا يصدق حتى أن الرؤية امتنعت لابعد من امتار معدودة مما اضطررنا الى اشـعال مصابيح الشاحنات المطلية باللون الازرق ... وكان قد تســرب داخل غرفة قيادة شاحنتي المحملة بالجنود رغم أن زجاج النافذتين كان مرفوعا ، وكان الغبار يسفّ باستمرار على زجاج الواجهـة الامامية ، فيهمي للاسفل .. وكنت أحس بذرات الغبار الدقيقة تتسرب داخل منخري وفمي لتنحدر مع دفقات دخان السيجارة

التي ناولني أياها العريف الجالس بقربي • لكنني ، ورغم كل شيء ، كنت أشعر وكأنني توحدت بعجلة القيادة المستسلمة ليديّ اللتين تندتا بالعرق •• كان قطارنا الاسطوري المصفح بالحديد والنار والرجال يتقدم غربا باعثا في الخلاء الرملي رنينا ، شعرت به يهزّ جذر الارض وكأن الصحراء القديمة استفاقت على قعقعة سنابك الجياد وعلى صليل سيوف فرسان العرب القدماء !••

ومن خلال أنين العجلات المتواصل ارتفع لهاث جميلة ، وكانت خصلات من شعرها قد التصقت بجبينها الذي تندى بالعرق •• فطلب حازم منها أن تتوقف وأن لا تسير بالعربة أكثر من ذلك • خيم الصمت عليهما ، الا أن صدى العجلات ترجع في سمعيهما لبعض الوقت وتناهت اليهما أصوات متناثرة ترددت عبر حقول القمح البعيدة وغابات النخيل ، وكانت تلك الاصوات تتوزع بين كلمات مبهمة تصدر من رجال منهمكين في العمل بين الحقول وفي جوف البساتين ، وصراخ أمهات ينادين أطفالهن ، وصهيل افراس انتفخت بطونها بالعشب الذي ازدردته ، وخوار أبقار شمت رائحة عجولها الطليقة في الاجمات القريبة • وعلى غير انتظار انطلق من بعيد صوت شجيّ صدح بأغنية ألغى البعد كلماتها ، ولكنه لم يستطع الغاء ايقاعها العذب الذي بدا وكأنه يتماوج بانسياب على امتداد الارض الفسيحة • كانت الاغنية تعلو وتهبط مثل طائر أزرق غريب انطلق خلال اشجار غابة • كان المغني يقول في أغنيته أشياء كثيرة لا تحتاج الى كلمات تفسرها قدر حاجتها الى ايقاع يفجرها !•• ها هي الاغنية تجيئهما من الحقول ومن التلال وبساتين

النخيل ومن كل مكان •• انها تطوف عبر زوايا الارض الاربع ، فوق حقول القمح وفي جوف الاكواخ الطينية وعبر تقوس جريد النخل الاخضر • وكانا يتنصتان اليها باستغراق غريب بدا وكأنه جمدهما على وضعهما الثابت ذاك : جميلة بثوبها الاصفر وبغطاء رأسها الذي من اللون نفسه ، والتي بدت مثل ضربة ريشة متقنة، لولاها لظهرت تلك اللوحة بأرضيتها البنية التي خالطتها لطخات خضراء وزرقاء ، والمحاصرة من الامام بجدار النخيل المديد الذي انفتح على جانبيهما مثل جناحين كاد يطبق عليهما طائر خرافي رأسه قرص الشمس الملتهب ومخالبه جذوع النخيل النابعة من الارض الظليلة ، لولا جميلة لبدت تلك اللوحة ناقصة لا ترتاح لها العين • وكان حازم قد جمد على كرسيه كذلك ، مفردا ظهره بهيأة من يتنصت باستغراق ، وكان قد عقف بوجهه الى الجهة التي انطلقت منها الاغنية لتنطفيء فيما بعد ، ولكنها كانت قد خلفت وراءها صداها الخفي الذي جعل الاشياء تبدو بطريقة تختلف عما كانت عليه قبل انطلاقها • ها هي جميلة تحاول ان تأتي بعمل ما تملأ به فجوة الصمت التي تركتها الاغنية وراءها : فتدفع بيديها عاليا لتتشاغل بشدّ عصابتها الصفراء بصورة أفضل ، وكان حازم ، وبعد انطفاء الاغنية بلحظات ، لا يزال محافظا على هيأة التنصت التي اتخذها أثناء انطلاق الاغنية وكأنه يترقب أن تنطلق من جديد ، أو انه يتنصت ، بكامل جسده ، الى صداها الخفي • ولكنه سرعان ما اتكأ بظهره الى المسند الخلفي وأراح يديه على امتداد فخذيه ، ومن ثم سحب احداهما وأسند مرفقها الى جانب العربة محتضنا ذقنه

براحتها • وباستدارة حادة ، صرّت مفاصل العربة من تحته بسببها ، استطاع أن ينظر الى الخلف حيث ظلهما المتوحدان بظل العربة امتدّ وراءهما لمسافة لا بأس بها ، وكان الطريق يتلامع بعض الشيء عبر الارض الرطبة المحدّقة به من الجانبين ، وكان يضيق باستمرار كلما اوغل بعيداً ليختفي بصورة مبهمة قرب البيت الذي ارتفع من فنائه الخلفي عمود دخان اشهب تلوى عاليا • وبدت شجرة السدر قميئة تكاد تلتصق بالارض ، والى الخلف ارتفعت حافة النهر على شكل جدار نباتي واطيء امتدّت فوقه سماء تخثرت زرقتها العميقة • هتف حازم بصوت كاد يحتبس في حنجرته بسبب التواء عنقه الى الخلف :

ـ لقد أذكت أمي النار في التنور !••

عقب استدارة ناعمة الى الخلف تطلعت جميلة خلالها نحو عمود الدخان ، عادت بوجهها الى الامام واستغرقت للحظات في تفكير خاطف أنهته بقولها :

ـ لا أدري لِمَ يذكرني كل ما أراه أمامي بيوم رحيلك ؟!

وبعد لحظة صمت طارئة بدت وكأنها استعادت خلالها ذكريات معينة ، قالت :

ـ بعد مبارحتي للنهر شعرت بقشعريرة اختض لها جسدي • بدأت أرتعش وأرتعش وأسناني تصطك في فمي دون ان استطيع السيطرة على نفسي ، أجبرتني عمتي على الاضطجاع ودثرتني بأغطية ثقيلة كادت تكتم أنفاسي ، زالت القشعريرة ليحل محلها صداع

فظيع كاد يفلق رأسي • في ذلك اليوم اضطرت عمتي الى اذكاء النار بنفسها في التنور لكي تخبز العجين • ولكنني لم أستطع الاستمرار في الاضطجاع ، فتركت الفراش وامسكت بالمكنسة كي أنظف الفناء الخلفي • كانت امك قد شمرت عن ذراعيها وأدخلت طرف فوطتها في فتحة ثوبها وقد وقفت امام فوهة التنور الملتهب ، وسرعان ما لاحظتني فاختطفت المكنسة من يدي وصرخت فيّ : « كيف تكنسين البيت وحازم لا يزال يواصل سفره الى الجبهة ؟!• لا يا ابنتي •• لا •• انّ ذلك لفأل سيء !!•• »

أشرق وجه حازم بابتسامة عريضة عقفت خديه عاليا فبرز أثر الجرح المندمل بوضوح ، وقال :

ـ فأل سيء !!•• ستظلّ أمي تؤمن بمثل هذه الافكار الغريبة! ليتها رأت بأم عينيها ما جرى يومذاك لتتأكد بأن أي « فأل سيء » لم يكن باستطاعته منعنا من الاسراع لنجدة الاشقاء والمساهمة في شرف القتال لتحرير أرضنا العربية !••

وبعد دقيقة صمت واصل كلامه :

ـ عندما أختلي بنفسي واستعيد ، في ذهني ، زحفنا الاسطوري يومذاك ، لا استطيع ألا ان اشبهه بدم جديد سرى عبر عروق الصحراء واندفع الى موضع الجرح القديم الملتهب ، الجرح الذي نزّ صديدا طوال خمسة وعشرين عاما !•••

أغمضت جميلة عينيها المواجهتين لقرص الشمس الذي لم

يبق بينه وبين الحافة العليا لكتل النخيل المتراصة ، سوى قدر ذراع واحدة ، وهمست بصوت خافت :

ـ الدم !.. الدم !.. عندما أواجه الشمس بعينين مغمضتين أرى العتمة حمراء تحت جفني !.. انه الدم الذي أكاد اشعر به يقطر عبر عروقي ساعة أضع رأسي على الوسادة عقب انتهائي من انجاز اعمال البيت !.. أتساءل مع نفسي : لِمَ يكون الدم في كل شيء حي ؟!.. بعد أيام من رحيلك ذهبنا الى الحقل الذي أتممت حراثته لكي نبذره .. وعندما جنحت الشمس عن سمت الرأس اتممنا بذاره ، فأطلق حميد الماء نحوه ، وكانت أمك قد غفت تحت احدى الاشجار ، وانا تسللت الى الاجمة التي كانت الشاهد الوحيد على ما فعلناه في تلك الظهيرة التشرينية عندما حملت لك خبر اندلاع القتال . هناك ، في البقعة نفسها وجدت العشب الذي انسحق تحت جسدينا يومذاك ، قد استقام وتماسك من جديد !.. ولكنني شعرت وكأن خضرته الداكنة قد تشرّبت بالدم الذي نزف من جسدي ، وللمرة الثانية وجدتني أهتف في سري وانا اضع يدي خلال نسيجه المتماسك : « عسى خصب الامومة أن يضيء عتمة هذا الجسد المحكوم بالانتظار !.. »

كانت الشمس تهبط باستمرار ، وظل النخيل الكثيف يقترب منهما حثيثا وهما واقفان في منتصف الطريق . وكانت السماء المنتصبة خلف جدار النخيل الداكن تسطع بلون برتقالي محمرّ بدا وكأنه جرح احتقن الدم فيه فانفجر بشكل مروع ولطخ برشاشه الراعف كل ما يحيط به :

ـ عندما بدأنا هجومنا الكاسح كانت الشمس قد استوت قرصا برتقاليا متوهجا على الافق الغربي • وحسب خطة قائد مجموعتنا بدأنا الهجوم من جهة الغرب مستغلين الغطاء الذي وفرته لنا الشمس المنصبة بشعاعها في عيون العدو • كان ذلك في اليوم الثالث من حصارنا لتلك التلال المتراصفة والتي أمرتنا قيادتنا بتطهيرها من عناصر العدو والاستيلاء أو تفجير مراصدهم المحصنة على القمم •

في اليوم الاول اندفعنا لاقتحام تلك التلال ولكننا فوجئنا بمقاومة عنيفة وفرتها لهم مواقعهم المحصنة على السفوح والقمم ، وليس هذا فحسب بل كانوا على اتصال دائم بقيادتهم التي سارعت بنجدتهم فأقحمت الطيران على شكل موجات متتالية اصلتنا بنيرانها ولكنّ الوهاد والاخاديد والجيوب الصخرية احتضنتنا وحمت ابناءها القادمين لنجدتها •

قد تكون تلك التلال التي نزفنا دماءنا لاجل تحريرها ، مجرد تلال صخرية ، لكن لو تطلب تحرير كل شبر منها شهيدا لما ترددنا ، لسبب بسيط هو : انها أرضنا نحن ، أرضنا التي شهدت امجادنا كما شهدت هزائمنا ، ولكنها بقيت أرضنا !•• على ثراها ترددت قعقعة سنابك خيول « خالد بن الوليد » في معركة « اليرموك » وعليها ركز فرسان « صلاح الدين الايوبي » راياتهم بعدما حرروها من « الصليبيين »، وبين أذرعها الصخرية القاسية تربص الفدائيون العرب والفلسطينيون بالعدو ، وقدموا ارواحهم مهرا لعرسها الدموي !••

وصمت حازم لبعض الوقت ، وكاد قرص الشمس الان يمس جريد النخيل فانصب شعاعه في عينيه البنيتين مباشرة • الى جانبه وقفت جميلة مسندة يدها على كتفه ، وعيناهـــان اللتان تقلص بؤبؤهما امام الشعاع الساطع ، تتطلعان الى الفجوات الداكنـــة المتوغلة في كثافة الاشجار المتماسكة • انها تتطلع الى هناك ولكن قبضة يدها المستندة على كتفه تنتفض من وقت لاخر وكأنها تحثه على الاستمرار في حديثه الذي قد لا تكون هذه المرّة هي الاولى التي تسمعه منه !•• وارتفع صوت حازم من جديد :

ـ في أول يوم من وصولنا الجبهة ، وكانت الظهيرة في ذروتها ، تم تجميعنا في تشكيل قتالي مزود بمختلف انواع الاسلحة للزحف باتجاه سلسلة تلال حُدد موقعها على خارطة احتفظ بها قائد مجموعتنا كانت مهمتنا الاساسية هي تحرير تلك التلال ، الا أنّ الوصول اليها لم يكن بالامر الهين ، فقد تشابكت خطوط القتال بيننا وبينهم ، وكان لابد لنا من اختراق أرض ملتهبة للوصول الى هناك • كان هدير المدافع الاصم ودوي انفجار القنابل وانطلاق الصواريخ والقذائف المضادة للدروع والطائرات ، يسمع بوضوح • وكانت الطائرات العربية تمرق ، على فترات متفاوتة ، فوق رؤوسنا باتجاه الجنو بوالغرب مجتازة حاجز الصوت • ركبنا مدرعات حملتنـا لمسافة لا بأس بها ، ولكن الاخاديد والوهاد سرعان ما تشابكـت واعترضت خط سيرنا والقتال قد احتدم من حولنا بعنف وضراوة حتى أن القذائف كانت تمرق صافرة فوق رؤوسنا ، فاضطررنا الى ترك المدرعات والتقدم راجلين • أمرنا القائد ، وكان فتى فيحدود

الثلاثين من عمره رسمت على كل كتف من بدلة القتال التي نلبسها ثلاث نجوم باللون الاصفر ، أمرنا بالانتشار بشـــكل مروحي ، فانصعنا لامره ، كل جندي منا كان بكامل سلاحه بدءا من رشاشته وذخيرته وقنبلتين يدويتين معلقتين بحزامه ، وانتهاء بزمزمية الماء وما شابهها من مسائل ضرورية اخرى • وكان جنود آخـرون يحملون مدافع مضادة للدروع وصواريخ مضادة للجو وصناديق الذخيرة والمؤن • أصطدمنا ثلاث أو أربع مرات بجيوب معاديـــة انتشرت في تلك الوهاد ولكننا استطعنا القضاء عليها بيسر • وكان الدوي الاصم والهدير الهائل ولعلعة الرشاشات تتصاعد باستمرار والدخان قد انعقد فوق الرؤوس ، وكانت أسراب الطائـــــرات المعادية تمرق على أرتفاع منخفض أو على ارتفاع سحيق لتتفـادى شبكات الرصد والرادار ، الا ان الصواريخ كانت بانتظارها لتنطلق باتجاهها وخيط دخان يتلوى خلفها ، وسرعان ما تنفجر الطائـــرة وتتحول الى كتلة نار تنتشر في كل مكان • وكانت طائرات أخرى تلقي بحمولتها بعيدا حالما يبصر طياروها خطوط الدخان الرهيبة تلك • وكانت طائرات أخرى تفاجأ بتشكيلات عربية فتحتدم ، في السماء الملفعة بالدخان ، معارك رهيبة تتقاذف خلالها الطائرات في كل اتجاه وكأنها اسماك فولاذية تتصارع في مياه مزبدة • وكنا نحن نواصل تقدمنا في اتجاه القطاع الاوسط حيث التلال التي كنا معها على موعد • وعندما جنحت الشمس غربا ، اشرفنا على وهـــاد عميقة انتصبت بمحاذاتها تلال مرتفعة بعض الشيء ، وهنا كان القصف المتبادل على أشده ، والدبابات والمدرعات المعطوبة مبعثـرة

في كل اتجاه • وكان القصف الجوي مخيفا وكأن السماء فتحت أبواب الجحيم على آخرها •• كل طرف كان يحاول ، جهد امكانه ، الحاق اكبر ضرر ممكن بالطرف الآخر قبل غروب الشمس • عندما اقتربنا من هدفنا اوعز لنا القائد بالتوقف لبعض الوقت ، فانتشرنا عبر الاخاديد الصخرية العميقة • كانت الدبابات العربية ترى ، على يسارنا ، بوضوح وكانت تدبّ في كل اتجاه نافثة من فوهات مدافعها النيران ، توغلنا تحت سحب الغبار والدخان وعند حافة وهدة عميقة توقفنا ، وكان هدفنا امامنا مباشرة ، وهو عبارة عن مجموعة تلال لا تبعد عن بعضها كثيرا ، توسطتها قمة مرتفعة اشرفت على بقية القمم النابعة من قاعدة واسعة واحدة تلفعت بضباب الغروب الرمادي ، وبدت أخاديد عميقة وحزوز ضحلة تشابكت عبر سفوحها الصخرية الجهمة ، وكانت السفوح المواجهة للشمس تسطع بحدة تحت الوهج البرتقالي • كان منظرها العام يوحي بالاطمئنان وبسهولة اقتحامها في أي وقت تشاء ، ولكن نظرة واحدة من خلال المنظار كشفت لاعيننا تلك الجيوب الصخرية التي أختيرت كمرابض حصينة للدبابات وبطاريات المدفعية البعيدة المدى المنتشرة خلال السفوح المحدبة برفق نحو القمم • بدا من الواضح ، من خلال الاعداد الضخمة للدبابات والمدافع ، ان تلك التلال تمثل منطقة استراتيجية للعدو ، فقد كانت قممها تشرف على مساحات شاسعة من الاراضي المستعرة بنيران القصف المدوي في كل اتجاه ، وكان اختيار تلك القمم المنيعة لنصب المراصد وشبكات الرادار أفضل اختيار ، وبالمقابل كان اختيارنا لطريقة تحريرها أفضل اختيار

أيضا !.. كنا على ثقة من اننا سنجابه بقوة لا يستهان بها ، ولكن الشيء الأكيد هو ان اصرارنا على تحريرها كان أمرا مفروغا منه .

بنظرة واحدة ادركنا استحالة التقدم باتجاه تلك التلال دون مساعدة الدروع ، لم يكن اسهل من ان يصالبوا نيران مدافعهم ودباباتهم ورشاشاتهم لو اننا انحدرنا باتجاههم ليفنونا على آخرنا ! وهكذا اتصل قائد مجموعتنا باللواء المدرع الذي على يسارنا طالبا منهم اقحام بعض الدبابات في المعركة . وقبل وصول تلك الدبابات مهدنا لها الطريق بقصف مركز جوبه بقصف مماثل من جانبهم ، فتلفع كل ما حولنا بالغبار والدخان ، واستحالت الرؤية لأبعد من خطوات معدودة ، وعلى يميننا كادت الشمس تغطس خلف الافق الغربي . كان جناحنا الغربي مكشوفا لبطارية مدفعية أصلتنا بنيرانها بسبب استواء الارض من تلك الجهة ، حاولنا اسكات تلك البطارية ، ولكن عبثا فقد كانت محصنة في مربض صخري حصين . وتحت سحب الدخان والغبار تقدمت دباباتنا ورمت بكل ثقلها في المعركة فبدأت الصخور تهتز من حولنا لشدة القصف . كان تقدم دباباتنا باتجاه تلك التلال أمرا بالغ الخطورة لانها كانت ستنكشف لنيرانهم في الوقت الذي تظل دباباتهم بمنجى من الخطر بسبب مرابضها التي كانت على ابعاد متفاوتة من السفوح المواجهة لنا ، وهكذا اضطرت دباباتنا الى المناورة لغرض سحب العدو الى أرض يمكن الاشتباك عليها ، الا انهم لم ينزلقوا لذلك الفخ ، اما لانهم أدركوا السر ، او بسبب جبنهم من التزحزح عن مرابض حصينة تضمن لهم دفاعا جيدا . استمر احتدام المعركة عبر حواف الوهاد

والاخاديد الصخرية الفاصلة ما بيننا ، واعطبوا بعض دباباتنا ، كما أصبح من الواضح بأننا اعطبنا عددا لا بأس به من دباباتهم واسكتنا بطاريات مدفعية لهم ، وبذلك نكون قد فتحنا ثغرة في تحصيناتهم المتماسكة ، وكان من الضروري استثمار تلك الثغـرة بعد هبوط الليل الوشيك وهذا ما حدث بالفعل !..

عندما خيم الظلام خفت حدة المعارك بعض الشيء . الا انه كان يسمع ، من وقت لاخر ، هدير متقطع مصحوب بومضـــات خاطفة تسطع في جوف الليل تعقبها صلية رشاش تنطلق على حـين غرة ، من ثم تدمدم قذائف مضادة للدروع . وكان هدير الآليات المكتوم يترجع باستمرار عبر الاثير المضمخ برائحة البارود والدخان والصخور تهتز من تحتنا كلما انفجرت قنبلة أو هدر مدفع ، لقد بدأت عمليات التسلل لاقتحام المرابض التي لم يسمح سطـوع ضوء النهار بالاقتراب منها قبل أقل من ساعتين . كان المدفع الذي أصلى جناحنا الايمن بنيرانه هو بغيتنا ، فطلب القائد أن يتطوع اربعة أو خمسة جنود للقيام بتلك المهمة المحفوفة بالمخاطر ، وتطوع عشرات الجنود ، الا انه اختار خمسة مقاتلين كنت أنا بضمنهم ، بعدما تزودنا بالعتاد وباعداد مضاعفة من القنابل اليدوية ، وتأكدنا من سلامة رشاشاتنا ، ودعنا رفاقنا وشد قائد المجموعة على اكفنا متمنيا لنا النجاح في اداء المهمة والعودة سالمين . زحفنا عبــر الاخاديد الصخرية متجنبين الارض العراء خشية أن ننكشف بسبب قنابل الاضاءة التي كانوا يطلقونها من وقت لآخر . بعد ساعة تمكنا من اجتياز ثغرة في تحصيناتهم ، وعلى ضوء قنابل الاضاءة

لمحت دبابتين هائلتين أعطبتهما قذائفنا وكان درع أحداهما قد التوى بشكل غريب ومدفعها المديد نكس فوهته نحو الارض ، اما الدبابة الثانية فقد لمحت الثقب الذي خلفته القذيفة في درعها ، وكان ذلك الثقب يتوسط النجمة السداسية التي ما رأيتها الا وتذكرت صور الدبابات « النازية » التي رسمت على دروعها الصلبان المعقوفة !.. واصلنا زحفنا بحذر أكثر لاننا كنا قد اصبحنا داخل تحصينات العدو واصبح من المحتمل ان نفاجئهم بين لحظة وأخرى او يفاجئونا هم !.. كان الظلام يسطع بحدة كلما انفجرت قنبلة اضاءة فكنا نلتصق بالارض حتى نكاد نتوحد بها ونحسّ بوجيب الدم المندفع في اجسادنا . وأخيرا سمعنا همسهم الخافت فاصبح لكل شبر نقطعه حسابه الخاص خشية ان نصطدم بجنود استطلاع يحيطون بتلك البطارية اللعينة . انقسمنا الى مجموعتين : واحدة للاقتحام والثانية للاسناد ، وكنت أنا وجندي آخر نؤلف مجموعة الاسناد . وقبل أن نفترق تقدمنا بضعة امتار أخرى فأصبح من الواضح ان همسهم يجيئنا من الامام على بعد لا يتجاوز العشرين مترا . انحرف جنود الاقتحام الثلاثة مع انحدار سفح التل ليباغتوهم من الجهة الثانية ، وتلبثت مع رفيقي خلف صخرة . كان سفح التل يدرج على يساري للأعلى ، وعلى ضوء القنابل المتفجرة في الجهة الثانية ، كانت قمة التل تنفصل للحظات عن جسد الليل المتماسك فتبدو مثل صخرة هائلة على وشك الانحدار للاسفل . مرّت دقائق متوترة كنت اشعر خلالها وكأنّ الصخر الذي تدفأ تحت جسدي بدأ يتجاوب مع دفق دمي .. فجأة

انطلقت صلية رشاش !.. اذن اصطدموا بهم !!.. وعلى ضوء طلقاتهم استطعنا تحديد موقعهم فانتفضت رشاشتي بين يدي ولعلع رصاصها بصوت اصم ... لابدّ أنّ صلية رشاشتي قد اربكتهم فقد تشتّتت طلقاتهم في شتى الاتجاهات بعدما فوجئوا بتعدد مصادر النيران .. بقفزة واحدة اجتزنا عدة امتار وتخفينا خلف صخرة . ومع صليات متعاقبة ، سخن بسببها حديد رشاشتي كنا قد اقتربنا كثيرا من مصادر نيرانهم ، وبدا من الواضح اننا قد صفينا بعض عناصرهم . حدث كل ذلك سريعا ، وقبل أن تستعر التلال بدوي المدافع ، كان رفاقنا الثلاثة قد اقتحموا المربض وسمعنا دويّ قنابلهم وهم ينسفونه ، وفي اللحظة نفسها انتبهت الى صفير قنبلة تشقّ الفضاء باتجاهنا من اليمين ـ لابدّ أنهم لمحونا على ومض القنابل المتفجرة ـ وقبل أن يتسنى لي الوقت للارتماء على الارض ، انخطفت عيناي على ضوء القنبلة التي انفجرت خلف صخرة لا تبعد عنا سوى مسافة قصيرة ، ومع الدوي الاصم شعرت بشيء حاد يلسع وجهي ، وفي الوقت نفسه فوجئت برفيقي الذي كان على يميني ينقذف باتجاهي ليسقطني معه على الارض .

تحت صليات الرشاشات المنطلقة باتجاهنا من جميع الجهات تجمعنا نحن الاربعة حول جثة رفيقنا الخامس ، ورغم كثافة النيران استطعنا التسلل نحو مواقع كتيبتنا حاملين معنا مقاتلنا الشهيد !

كان قرص الشمس قد اختفى منذ فترة فتوحدت كتل النخيل السوداء بالارض الرمادية ، واستطال ظل المساء ليغمرهما بغلالته

الداكنة وكأن ذلك الطائر الخرافي ، الذي رأسه الشمس وجناحاه غابات النخيل ، قد اطبق عليهما بعدما دس برأسه الملتهب تحت طية ريشه الاسود واضطجع غافيا • وكان امتداد الافق الغربي لا يزال يسطع بلون ذهبي خالطته زرقة صدئة كزرقة الفولاذ القديم •

جنحت جميلة بالعربة جانبا واستدارت بها نحو الشرق بعدما أولت ظهرها لجدار النخيل الاسود ، وكأن غروب الشمس كان ايذانا لهما بالعودة الى المنزل • ارتفع هسيس العجلات من جديد، ومع تنفس الريح في وجهيهما فاحت بقوة رائحة العشب النامي والمياه العطنة والطين • ومن بعيد سمع رنين اجراس القطعان العائدة الى قراها • كانت الارض تمحي أمامهما بغموض ، الا انه كان من الممكن ملاحظة التماع الطريق المنساب الى الامام ليضيق باستمرار ويختفي قريبا من المنزل الذي افتقد حدّة تماسكه • بدت شجرة السدر اشبه بكتلة سوداء التصقت بالارض ، خلفها ارتفعت حافة النهر الداكنة ، وعاليا كانت سماء رمادية معتمة تقترب حثيثا من الارض وكأنها معها على موعد تقرر بعد غروب الشمس• من الجنوب ارتفع هدير مكتوم بدأ يتصاعد باستمرار ، قد يكون هدير شاحنة تدرج على الطريق الرئيس المتجه شمالا • وكان ذلك الهدير يخفت في بعض المرات وكأنما اعترضت سبيله تلال ومنعطفات الا انه سرعان ما يتصاعد من جديد ، وتحت الوهج الخافت لضوء الغسق المحتضر ارتفعت سحابة غبار تدرج تحتها شاحنة كانت تقترب حثيثا من المنزل ، وها هي أخيرا تمرق خلف شجرة السدر

البعيدة لتختفي أمام المنزل ، وخفّ هدير محركها بعض الشيء وكأنها توقفت هناك ، ولكن سرعان ما ارتفع هدير الشاحنة من جديد ، ومن الطرف الاخر للمنزل ظهرت سحابة الغبار والشاحنة التي تلقفتها تموجات التلال الشمالية فاختفت هناك ، ولكنّ هديرها المكتوم ترجع تحت السماء الداكنة لبعض الوقت ليذوب بالتدريج ويخيّم سكون مطبق بجرحه هسيس عجلات العربة باستمرار .

بدت السماء وكأنها ازدادت تجهما وهي تواصل هبوطها نحو الارض الداكنة ، وافتقدت الاشياء المحيطة بهما حدة تماسكها بعدما القى المساء عليها غلالته الزرقاء ، وكانت جميلة تنتر رأسها بين لحظة وأخرى لتقذف بضفيرتها المتمردة خلف ظهرها وهي تواصل تقدمها اثر العربة . وانطلق صوتها قائلة :

ـ كنا تتابع اخباركم !.. أنا وعمتي كنا نتابع اخباركم من المذياع ولاول مرة أصبحت نشرة الاخبار من احب الفقرات الى قلبينا !.. عندما كنا نسمع عن تحركات جيشنا هناك وعن بسالة الجنود وهم يخوضون غمار المعارك الطاحنة ، كنت اشعر بالزغب المنتشر أسفل اذني يقف بفخر !.. كنت أغمض عيني وأتخيل تقدم هؤلاء المقاتلين تحت قصف المدافع والصواريخ ليقتحموا أوكار العدو الغاصب ... الا انه كان لهؤلاء المقاتلين وجه واحد هو وجهك انت !!.. في احد الايام جاءنا حميد بحزمة اوراق غليظة، قال انها صحف ومجلات تتحدث عن أخبار الجبهة وعن بطولات مقاتلينا !.. وبيدين مرتعشتين تلقفتها منه ، ولاول مرة في حياتي

فشلت في حل عقدة الخيط ، فقطعته باسناني ونشرت تلك الصحف والمجلات امامي على الارض ، متمعنة ، بلهفة لا توصف ، في الكلمات السوداء الدقيقة المنتشرة على صفحاتها ، ولكنها لم تشف غليلي لان المامي بحروف الهجاء ، كما تعلم ، لا يتعدى قراءة ستة أو سبعة حروف على شرط أن نكتب بخط عريض وكل حرف يكون بحجم اصبع الباميا !.. فكيف بي بمثل تلك الكلمات التي كانت اشبه بنمال دقيقة ازدحمت على حفنة قمح ؟! ولكنني سرعان ما اكتشفت بأن بعض الصفحات تضم صورا أشبعت فضولي !.. لا تستطيع أن تتصور يا حازم كم حدقنا ، انا وعمتي ، بتلك الصور !.. كنت أتمعن فيها باستغراق غريب فأرى فوهات المدافع وسحب الدخان المنتشرة فوقها ، والدبابات الضخمة والغبار المندفع بكثافة من تحتها ، والطائرات الصغيرة بهياكلها الضيقة وهي تسطع في سماء ملفعة بالدخان ، كنت أراها وكأنها تتحرك أمام عيني المجهدتين من شدة التحديق ، وكان كل جندي أراه في تلك الصور يشبهك بشكل غريب !.. لقد احتفظت بتلك الصحف والمجلات وتلك هي على المنضدة في غرفتك الى الان !..

كانت عتمة المساء قد وحدتهما بالعربة على هيأة كتلة داكنة تدرج الى الامام ، ولم يعد في المستطاع ملاحظة ما يطرأ على ملامحهما من انفعالات ، بعدما لفعهما الظلام بستاره . وكان الهسيس الجارح للعجلات يتصاعد بايقاع غريب ، كأنه صوت انحدار السماء نحو الارض ، ويزداد وضوحا باضطراد . وكانت أصوات متناثرة تنطلق من وقت لآخر مبددة سكون المساء

المطبق مثلما تترجرج مياه ساكنة لسبب ما • ها هو صـــوت جناحي طائر يسمع وهو يسفّ عاليا ليلحق بسربه الذي سبقه ، انه ينطلق بانسياب دون ان يعتور خفق جناحيه اضطراب مـــا وكأنه على ثقة من انه لن يفقد أثر سربه !•• وكان يسمع نبـاح كلاب وصهيل بعيد يتماوج في جوف الغسق المغلف بالغموض ، وصرير جنادب يرتفع من الحقول البعيدة برتـابة تكاد توحـــد ذلك الصرير بلحمة الصمت • الى الشرق افتر ثغر السماء الجهمة• أخيرا ، على وميض نجمتين أو ثلاث بـــدأت تنبض باستحيـــاء وانبهار وكأنها تشعر بالخجل لكونها قد سبقت موعد بزوغهـــا بعض الشيء !•• وكادت كتلة البيت تذوب في العتمـــــة التي تكاثفت حولها لولا ضوء خافت شعّ في الفناء الخلفي أمكن عن طريقه تحديد موقعها • وعاد صوت حازم مواصلا حديثه مـــن جديد :

ـ ما رأيته في تلك الصحف ، يا جميلة ، كان مجرد صور حنطتها عدسات الكاميرا !•• أما ما كان يجري هناك فكـــــان شيئا اخر بالتأكيد !••

وبعد فترة صمت قصيرة ، لابد أنه قد استعاد خلالها بعض ما جرى هناك ، قال :

ـ لو حاولت الان أن اتذكر اسماء الجنود الذين شاركتهم في اقتحام تلك التلال لما استطعت !!•• لم تكن الاسماء تهمنا قدر اهتمامنا بالهدف الذي جئنا لنحارب من أجله !•• كنا مجموعة مقاتلين جاءوا من أقصى الجنوب والشمال والشرق ، والغرب ،

هذا ما كنا نعرفه !.. وكان هدفنا الرئيس التحرير او الاستشهاد ، وهذا ما كنا نعرفه أيضا !.. اما ما عدا ذلك فلم يكن مهما !.. كنا نقاتل لننهي القتال الذي فرض علينا من قبل الاعداء طوال خمسة وعشرين عاما ، فلم يتسن لنا الوقت اللازم لنتعرف على أسماء بعضنا البعض !.. كنا على عجلة من أمرنا : كل دقيقة تمرّ تعني اشياء عديدة .. قد تعني تحرير جزء عزيز من التراب المضمخ بدماء الآباء والذي قد تسيل عليه دماء الابناء لاستكمال الشوط والتحرير الكامل غير المنقوص !..

في « حزيران » كان لنا الوقت الكافي لنتعرف على اسمائنا جيدا ولنحدق في أعين بعضنا البعض لنرى أينا الاسرع بغض الطرف ، وأينا الاصلب عودا ليستطيع التحديق في أعين الاصدقاء والاعداء !.. أما في « تشرين » فقد اختزلنا كل اعمارنا وما تجرعنا خلالها من عذابات وما شهدنا خلالها من افراح كنا نحلم بها في الماضي ، اختزلنا أعمارنا في لحظات مكثفة .. سلسلة لحظات متعاقبة وغياب لحظة واحدة قد تعني ثغرة في تلك السلسلة . لم يكن بين الحياة والموت سوى لحظة واحدة ادركنا بأنه يستحسن بنا التمسك بها بحكمة !..

وعقب لحظة قصيرة أكمل :

ـ بعد نجاحنا في اسكات تلك البطارية اللعينة التي كلفتنا شهيدا غاليا ورجوعنا لكتيبتنا لاحظ رفاقي ، على وجنتي اليمنى ، جرحا طويلا تخثر الدم عليه ، عندها فقط تذكرت ذلك الالم الذي

لسع وجهي ساعة انفجار القنبلة ، ولكنه ، على كل حال ، لم يكن جرحا عميقا فقمت بتضميده بنفسي • وبعدما هدأ القصف العشوائي بعض الشيء وارينا شهيدنا التراب • حفرنا قبره على ذروة رابية تطلّ على أرض المعارك ، وكان الهدير البعيد للمدافع ولعلعة الرشاشات المتقطعة والتماعات الاضواء المشعة في جوف الليل المتماسك • كانت تلك الاصوات أروع نشيد جنائزي واريناه على ايقاعه المهيب •

أصبح من الواضح بأننا قد فتحنا ، على يميننا ، ثغرة واسعة في تحصينات العدو ، كان من الممكن استغلالها والنفاذ منها في الليلة نفسها قبل اكتشاف أمرها على ضوء النهار ، وهذا ما حدث فعلا : فقد انتظرنا لبعض الوقت ومن ثم بدأنا زحفنا فوق الاديم الصخري البارد ساحبين معنا مدافعنا المضادة للطائرات والدروع ، ورشاشاتنا التي كان حديدها لا يزال دافئا بسبب الاطلاق المستمر قبل ساعة • كان القائد في المقدمة يحسب لكل خطوة يخطوها الف حساب ، وكنا نحن خلفه نستجيب لحركاته تلقائيا وكأننا اعضاء جسد واحد تتحرك حسبما يشير الرأس • مع الاطلالة الرمادية لغبش اليوم الثاني ، كنا قد انتشرنا عبر السفوح المحدّبة للتلال ، فتداخلت ما بيننا خطوط التماس ، وبذا نكون قد افقدناهم ميزة تفوّق مواقعهم الحصينة علينا ، فاضطررناهم لقتالنا وجها لوجه !•• بل وفي أحيان كثيرة القتال بالسلاح الابيض بعدما أصبحت أكثر دباباتهم تحت رحمة قذائفنا المضادة للدروع !•• ومع أول صلية رشاش ، استقبلنا بها يومنا

الثاني لدخولنا المعركة ، استعر كل ما حولنا بالنار والدخان ، ورجعت التلال الملفعة بالضباب أصداء الانفجارات المتعاقبة ، واعتكرت زرقة السماء البكر من فوقنا .

تم لنا اسكات بعض مواقعهم وأعطبنا عدة دبابات لهم ، كما انهم كبدونا بعض الخسائر في الارواح والمعدات . من جهة الشرق ، ومن خلال سحب الدخان والغبار والضباب ، ارتفع قرص الشمس ، والتمع حديد اسلحتنا تحت ومض شعاعها الساطع ، وتلك كانت أول شمس تفاجئنا ، لحظة شروقها ، ونحن في خضم المعركة المحتدمة بعنف رهيب . في الظهيرة كنا قد استولينا على أغلب التلال وتوزّعنا عبر الوهاد والاخاديد الصخرية لغرض تصفية الجيوب الباقية واقتناص الدبابات المتحصنة في مرابض منيعة .

كنت أنا وأربعة جنود آخرين قد تحصنا في اخدود صخري تنحدر الارض أمامه لتنتهي بقاع وهدة واسعة ، ومن هناك ترتفع الارض ثانية لتنطوي على نفسها مثل موجة هائلة تجمدت بطريقة ما ، وهناك ، خلف النشز الصخري ، كنا نلمح فوهات مدافع ثلاث دبابات ارتكنت خلف الحافة الصخرية . كان معنا مدفع مضاد للدروع وبعض قذائف ، أطلقنا قسما منها على تلك الدبابات فأشعرناهم بأنه لابد لهم من التحرك باتجاهنا ـ لانه لم يكن يوجد طريق سالك آخر بين تلك الكتل الصخرية المتراصة في كل اتجاه ـ أو البقاء في مربضهم ذاك منتظرين النهاية الحتمية . وكما توقعنا ، تحرّك مدفع

احدى الدبابات وصعد عاليا وبرزت مقدمة الدبابة المتجهة نحو سماء الظهيرة الملفعة بسحب الدخان ، وقبل أن يتسنى لها الوقت لتعقف بمدفعها نحو الاسفل منحدرة للقاع ولتصعد فيما بعد باتجاهنا ، كانت احدى قذائفنا قد شقت طريقها عبر الدرع الحديدي فارتجت الدبابة على نفسها وكأنها أخذت على حين غرّة ولكنها سرعان ما انزلقت نحو مربضها ، ومع سماعنا لصوت انفجارها وارتفاع عمود دخان من هناك ، فوجئنا بالدبابتين الأخريين وقد انحدرتا نحو قاع الوهدة متجهتين نحونا مباشرة .. شعرنا بالارض الصخرية تهتزّ من تحتنا وكأنها تنذرنا بالخطر الوشيك !.. نجحنا في اقتناص دبابة ثانية خمدت في مكانها ولم تنفجر .. وكانت الدبابة الثالثة قد فلتت من قذائفنا وبدأت تهدر بغضب مسعور وهي تتقدم حثيثا نحو موقعنا وتطلق بقذائفها الطائشة فوق رؤوسنا .. كان لابد لنا من ايقافها بأي ثمن !.. الا اننا صعقنا عندما اكتشفنا بأنه لم يبق لدينا سوى قذيفتين اثنتين !.. وأصبح التسديد بدقة أمرا متعذرا لانه لم يكن أسهل على تلك الدبابة من أن تتصيدنا واحدا واحدا لو اننا اطللنا برؤوسنا فوق الحافة الصخرية ، فاضطررنا الى الحرص على تينك القذيفتين ، وكأنّ تلك الدبابة اللعينة أحست بحراجة موقفنا ، فجأرت بصوت زاعق واندفعت نحونا بسرعة مضاعفة !.. جازفنا بالقذيفة الاولى واطلقناها!.. ولكن .. يا للهول !.. لقد أصابتها القذيفة الا انها لم توقفها .. فبعد ارتجاج فجائي استأنفت الدبابة تقدّمها للاعلى !.. وبنظرات سريعة تبادلناها بيننا بصمت ، بدا

وكأننا قد اتفقنا عن طريقها على خطة واحدة ارتسمت في أذهاننا سوية انسحبنا نحو قاع الاخدود الذي بدأ يرتج بوضوح تحت ثقل الدبابة الصاعدة وبسبب القذائف المتفجرة في كل مكان !..

وبسبب الانفعال الذي ارجف صوته ، توقف حازم عن مواصلة حديثه لبعض الوقت ، وارتفع هسيس العجلات الذي ، رغم استمراره ، بدا وكأنه كان قد تراجع بعيدا أثناء حديثه . لم يبق الان من تركة النهار الراحل سوى مسحة ضوء شاحب لاتزال تمس الاشياء المحيطة بهما على استحياء لتمنحها كتلا رجراجة افتقدت تماسكها القديم الذي أضفاه عليها سطوع ضوء النهار . وبدا الوميض المشعّ في الفناء الخلفي يسطع بوضوح . وكانت بقية شعاع عكر لا تزال تنوس عبر الطريق الموغل في امتداده الى الأمـــام :

ـ من القاع الذي التصقنا به تطلعنا نحو سماء بعيدة تجرحت على حواف الصخور الحادة المحيطة بنا . وهناك فوق الحافة الفاصلة بين صلابة الصخر وانسياب السماء ، هناك برز المدفع أول مابرز من الدبابة . كانت الفوهة المطوقة بالحديد تومىء للاعلى ، وكانت تتقدم باستمرار .. وبرز الجنزير ، وحومت على الفراغ الاحشاء السفلية السوداء للدبابة .. لحظات وكانت فوهة المدفع ستنحدر باتجاهنا مكتسحة اجسادنا الهشة تحت صلابة فولاذهـا الثقيل !.. في تلك اللحظة المتوترة التي تجمعت فيها اعمارنا نحن الخمسة ..

في تلك اللحظة التي يتوقف فيها الذهن ، ولا يبقى سوى الحدس ليتحكم بسقاليد الجسد •• في تلك اللحظة ارتعشنا على صوت انطلاق قذيفتنا الاخيرة !•• واستقرت حيث أردنا لها أن تستقر !••• ارتج هيكل الوحش الحديدي •• للحظة واحدة بدت الدبابة وكأنها بهتت وهي معلقة هناك فوق رؤوسنا •••• وفجأة استسلمت ، بعدما توقف محركها ، لانحدار السفح وبدأت تتراجع ليختفي جنزيرها اولا ومن ثم مدفعها المديد !•• وبقوة دفع خفية استوينا واقفين وتطلعنا من فوق الحافة الصخرية • كانت الدبابة تتراجع بمؤخرتها للاسفل •• وكان انحدارها يزداد سرعة باضطراد •• وكنا نلمح نارا استعرت في بنزينها •• وهناك حيث استقرت في قاع الوهدة انفجرت ذخيرتها بدوي هائل •• واستحالت الدبابة بكاملها الى كتلة نار ملتهبة كنا نسمع منها أصوات انفجارات متعاقبة لاسلحة طاقمها الذي حوصر في الداخل •• عندها فقط انتبهت الى المسحوق الابيض للصخر الذي تهشم تحت ثقل الدبابة !••

عندما كادت الشمس تغيب نجحنا في احتلال جميع التلال وطهرناها من الجيوب المتبقية وتمركزت مدفعيتنا في تلك المرابض الحصينة التي كانت مغطاة بشبكات التمويه ، وكانت على اتصال لاسلكي مباشر ببقية مواقعهم المنتشرة لمسافة بعيدة•• لم يبق امامنا سوى احتلال قمة التل الرئيس ، وقبل غروب الشمس استطعنا احتلال سفوحه السفلية من جميع الجهات ، وبذا عزلنا القمة عن خطوط امداداتها ••

كانت تلـــك القمـــة الحصينة تناطح السماء الزرقـــاء بكبريـــاء زادت من لهفتنـــا لاحتلالهـــا •• الا ان تقدمنـــا للاعلى أصبح بطيئا ، وفي بعض المرات اصبح أشبه بالمستحيل ، فقد كانت تلك القمة تشكل نقطة أساسية لرصد العدو لقواتنـا لكونها تشرف على مساحات شاسعة من الارض العربية التيكانت المعارك محتدمة عليها يومذاك •• ولاهميتها القصوى حصنهـــا العدو بصورة جيدة ، وزوّد افرادها المتمركزين عليها بأنـــواع مختلفة من الاسلحة • مع قدوم الليل سقط العديد منا بين قتيل وجريح ، ولكننا بالمقابل اسكتنا بطاريات مدفعية كانت منتشرة حول السفح المحدب !•• وجرت معارك بالسلاح الابيض وتلامع شعاع الشمس الغاربة على السناكي المخضبة بالدم !•• في صباح اليوم الثالث ، وبعد معارك ضارية لم نستطع خلالها التقـــدم كثيرا للاعلى ، اقحم العدو بطيرانه في المعركة• يبدو انهم استنجدوا بالطيران بعدما أصبح تحرير تلك القمة أمرا لا مناص منه بعدما تمّ عزلها من جميع الجهات • كانت اسراب الطائرات تتقدم علىشكل موجات متتالية •• الا أن أكثرها كانت تلقي بحمولتها كيفما اتفق بسبب مدافعنا المضادة للجو والتي صالبنا نيرانها وصواريخها في شتى الاتجاهات فأحالت السماء الى امتداد اخر لجحيم الارض • كنت أسمع ، في البداية ، هدير الطائرات قبل أن تنقض نحـــو الصخور •• ومن ثم كانت هياكلها المعدنية الضيقة تسطع بحدة تحت ضوء الشمس ، ومن تحت حافة خوذتي كنت أراها وكأنها ستهوي من حالق باتجاه عينيّ مباشرة !•• ولكنها سرعان ما كانت

تمرق فوق رؤوسنا بسرعة خاطفة ليترجع صدى هديرها الاصم بين الصخور ، وليعقبها صوت انفجار قنابلها ٠٠ وفي بعض المرات كانت احدى قذائفنا او صواريخنا تصيب طائرة ٠٠ فكانت ترتج وتجنح جانبا وكأنها شدت الى الخلف بواسطة خيط خفي كبح قوة اندفاعها الى الامام ، ومن ثم كانت تهوي نحو الارض يتبعها خيط دخان ابيض ، لتسقط خلف التلال البعيدة وتنفجر هناك فتتصاعد كتلة دخان رمادية !٠٠ وكانت طائرات اخرى تنفجر في الجو عقب جنوحها مباشرة ، فكنا ندرك بأن الاصابة كانت قريبة من ذخيرتها أو وقودها !٠٠ وكانت تلك الطائرة تتحول الى كتلة نار ملتهبة تتوزع في شتى الاتجاهات !٠٠ وكانت الطائرات التي تلقي بحمولتها تنسحب نحو الجنوب والغرب لتعقبها طائرات اخرى في الظهور !٠٠٠

كاد اصرارنا في التقدم للاعلى أن يصبح أمرا مستحيلا ، فطلب منا قائد مجموعتنا بالتحصن خلف الصخور في انتظار الوقت المناسب لتطبيق خطته الحاسمة ٠ كانت تلك الخطة تقتضي باستغلال جنوح الشمس غربا للقيام بهجوم كاسح ٠ وشرح باختصار ، ولكن بدقة ، تفاصيل الخطة وذكر الاسباب التي حدت به لاختيار ذلك الوقت بالذات !٠٠

مع انحدار الشمس غربا ، وكما كان مقررا ، تم تقسيمنا الى مجموعتين : واحدة للاقتحام والهجوم والاخرى للاسناد وانا كنت ضمن المجموعة الاولى ٠ توزعت مجموعة الاسناد حول السفوح المحدقة بالقمة ، وتحت غطاء النيران الذي وفرته لنا تلك

المجموعة تسللنا نحن الى جهة الغرب لنبدأ بالهجوم من هنـــاك
حيث الشمس الغاربة ستوفر لنا الغطاء المناسب بسبب انصبـاب
أشعتها مباشرة في عيون عناصر العدو فلا يستطيعون تحديــد
أهدافهم بدقة ، كما أن الطائرات ستخفف من قصفها بعض الشيء
حيث السفوح تكون قد تلفعت بالظل والدخان .. وكذلك لم
ننس دور مجموعة الاسناد التي ستربك العدو وتغطي تحركنـــا
من جهة الغرب .. في بداية هجومنا تمكنا من التقدم ، وبعدما
كاد الطريق يصبح مفتوحا امامنا تحولت مجموعة الاسنـاد الى
مجموعة اقتحام والتحقت بنا ، وبدأنا زحفنا البطيء نحو القمة
التي بدأنا نقترب منها حثيثا .. كانت تشمخ فوق رؤوسنا ،
ولكن ليس بكبرياء كما في يومنا الاول ، بل باعتزاز من كان
يؤمن بأن احباءه لابد آتون ! لم يبق بيننا سوى مسافة قصيرة
قد تكلفنا بعض الشهداء والجرحى ، ولكننا كنا مصرين عـــلى
اجتياحها بأي ثمن !.. لقد أصبحت على بعد ذراع منا ، تكـاد
تخف لتتلقفنا بين أذرعها الصخرية التي حاول العدو عبثـــا أن
يصفدّها بالفولاذ والبارود والرجال !.. ولكن السماء الملفعة
بالدخان بدأت تدمدم بغموض !.. انها دمدمة اعرفها !.. نعم
.. وكما تصورت .. سطعت هياكل الطائرات تحت شعاع الشمس
القتيلة المضرجة بدم الاحتضار !.. كنا مكشوفين تحت الطيران
بعدما تركنا مرابضنا الصخرية ، مما حتم علينا ان نندفع نحو القمة
لاحتلالها والتحصن بها بأسرع ما يمكن !.. واهتزت الصخـور
تحت وقع الانفجارات البرتقالية المتعاقبة ، وتصاعدت أعمـــدة

الدخان الرمادية نحو سماء ، بدت في عينيّ ، بنفسجية اللون بشكل لا يصدّق ! ولكننا كنا نقترب من القمة ، بل أن بعضنا كان قد ولج الحصون المنيعة ، ومن هناك تناهى لسمعي صوت انفجارات القنابل اليدوية التي قذف بها في أعشاش المدافع الرشاشة . وانا كنت أندفع مع الآخرين عبر الصخور وتحت دخان القذائف المنفجرة في كل اتجاه ، كنت أندفع لاعتلى صهوة ذلك التل الذي اغتسل بدمائنا بدءا من قاعدته وحتى قمته وكأنه ولد من جديد بعد مخاض دموي عسير !..

في تلك اللحظة الحاسمة سمعت بالصفير الفاجع يمرق فوق رأسي !.. هل كان ذلك الصفير بسبب قذيفة مدفع ؟! أم طائرة ؟!.. ام انه كان صفير الموت الذي لم يكن قد بقي بيني وبينه أبعد مما بين العينين ؟!.. لست أعلم!.. ولكن كل الذي اتذكره هو ذلك الصفير الذي أحس به الى الان وهو يتردد في سمعي !.. ومع صوت الانفجار المخيف شعرت بنفسي أرتفع بقوة دفع خارقة للأعلى ، ورأيت التلال والصخور والسماء البنفسجية تتقاذف امام عينيّ في شتى الاتجاهات !.. الا انني ارتطمت بالارض .. وفكرت مع نفسي : هل هو الموت ؟!.. لا .. أبدا !. اكتشفت بذهول بأنني لم أمت !.. ورغم حالة الذهول التي تلبستني شعرت بجسدي يحاول أن يتقدم للأعلى باتجاه القمة التي أصبحت على مرمى ذراع مني ! .. الا انني فوجئت بجسدي لا يطاوعني وكأنه شد الى الارض بطريقة ما !!.. وعندما لويت برقبتي متطلعا نحو جسدي المنبطح

على الارض صعقت لتلك الهيأة الغريبة التي وجدت ساقي عليها !؟
كانت ساقاي داخل فردتي بنطلوني الخاكي ملتويتين بطريقة فظيعة وكأنما سحب من داخلهما العظم فالتوتا كيفما اتفق !..
وكان البنطلون وحتى مستوى الركبتين قد تشرّب بالدم ، واللحم ونثار العظم المتهشم قد اختلط بنسيج القماش الممزق !.. وحذائي التوى بصورة غريبة فأصبح كعبه الى الامام !!.. عندها فقط اكتشفت بأن ساقي قد تهشمتا تماما !!.. فشعرت بألم صاعق تصاعد مع دفق دمي ليضرب بأسفينه الرهيب في عمق قلبي ...
وبدأت الاشياء من حولي تفتقد تماسكها وتذوب وكأنني أراها في حلم !.. وكان دمي ينزف باستمرار .. الا أن ذلك الهدف الذي ترسخ في ذهني استنهض في جسدي آخر ذرة قوة لم تنضب بعد ودفع بي نحو القمة !.. ولكنني كنت ملتصقاً بالسفح الصخري المخضب بدمي .. وعاليا .. حيث القمة التى أصبحت على مرمى ذراع مني .. رأيت ، قبل أن أفقد وعيي ، العلم الحبيب يرفرف بشموخ !.. اذن سبقني رفاقي ؟!.. وأنا انظر الى ذلك العلم الذي تماوج بانسياب مع هبوب الريح المضمخة برائحة الدخان والبارود .. العلم الذي ارتفع أخيرا تحت سماء بنفسجية بدت وكأنني اراها بعيني « مصطفى غريب » !.. الا انها لم تكن نائية هذه المرة بل بدت قريبة لدرجة كادت ان تنصبّ في عينيّ !
وأنا انظر الى العلم شعرت بنفسي أغوص في هوّة بلا قرار !!.

كان الليل قد تماسك من حولهما بكثافة ، ولولا ضوء المصباح المشع في الفناء الخلفي للمنزل الذي اصبح على بعد أمتار

معدودة منهما ، ولولا عناقيد النجوم المتلألئة في الظلام البهيم ، لما أمكن ملاحظة أيما شيء على الاطلاق !•• أصبح الجدار الجانبي للمنزل على يسارهما الان وغاب المصباح خلفه ، وسمع حفيف أوراق الاشجار التي جاست ريح هادئة هبت من الشمال ، خلال الغصون السوداء المتشابكة • وعاد صوت حازم ليطغي على أنين عجلات العربة الصغيرة :

ـ جميلة ، يخطر في ذهني كلما نظرت الى هذا الفراغ الذي يتأرجح فوقه الغطاء ، بأنّ ساقيّ لم تبترا عبثا !•• نعم •• عندما أشعر بأنك لست وحدك التي تدفعين العربة الى الأمام ، بل أنّ جنينك الذي تلبس جسدك ومد ذراعيه الصغيرتين عبر ذراعيك ، وقدميه عبر قدميك وبدأ يدفع معك •• عندما اشعر بذلك أرى أن ساقي لم تبترا عبثا !•• نعم •• ان هذا الجنين الذي تلبس جسدك سيكمل الشوط الذي قطعناه تحن •• فهناك قمم أخرى تحتاج لاكثر من ساقين بالتأكيد !!

الى الامام انتصبت شجرة السدر ، وكان الظلام قد أضفى عليها المهابة والوقار !•• خلفها أمكن ملاحظة حافة النهر بصعوبة ، الاّ أنّ صوت اصطفاق المياه المدومة في مجراه الرطب كان يسمع بوضوح ، وكأنّ النهر يؤكد بذلك حضوره الأبديّ • جنحت جميلة بالعربة يسارا وولجا الطريق الرئيس فهبت في وجهيهما ريح هادئة ابتردت بعض الشيء ، ومن خلال اشجار الفسحة الممتدة على يسارهما أمكن رؤية ومضات ضوء مترجرجة تبعثرت عبر الغصون المتشابكة • وبعدما سارت العربة بمحاذاة سياج القصب

والسيسبان ، استدارت ، للمرة الثانية الى اليسار وارتقت أرض الممر المرصوف بالحصباء •

أمامهما تجمعت ومضات الضوء المبعثرة على هيأة مستطيلين لنافذتين سطعتا بحدة • وكان مستطيل الباب المفتوح بين المسافة الفاصلة بين تيتك النافذتين ، مضاء بمسحة نور شاحب قد يكون انعكاسا لضوء الغرفة الجانبية التي على اليمين • كانت العربة قد توغلت بعيدا باتجاه الباب المفتوح ، وكان صوت حازم قد عاد لينطلق في جوف الليل المدلهم ، الا ان قعقعة عجلات العربة كانت تطغى على بعض كلماته ، وكانت الريح تقتنص من فمه كلمات اخرى تسمع بوضوح •• وكانت تلك الكلمات المبعثرة تتحدث عن •• الصمود •• والامل •• والايمان بالمستقبل ! •• ومع انطباق ضلفتي الباب خلفهما لم يعد يسمع أيما شيء سوى حفيف الاوراق المتراقصة بين الغصون الخفية •• وكانت النافذتان اللتان على جانبي الباب تسطعان بحدّة •• وبعد لحظات أضيئت النافذة الثالثة التي في أقصى اليسار ، ومن خلال المستطيل المضاء ظهرت جميلة وهي تنحني نحو حازم الذي رفع ذراعيه عاليا وتشبث بكتفيها •• وسمع أنين مفاصل العربة الصدئة ، وارتفع جسد حازم للاعلى فحجبت كتفاه العريضتان الضوء عن النافذة للحظات •• ومن ثم بدأ جسده بالهبوط ومعه سمعت قعقعة سرير سرعان ما خمدت عندما اضطجع حازم ، وظهرت كتلة رأسه ، التي انصب الضوء عليها بحدّة ، عند الزاوية السفلية اليسرى لمستطيل النافذة •

أولت جميلة ظهرها للنافذة وتوجهت نحو باب الغرفة المشرع ، فتلقفها الظلام .. دقيقة .. دقيقتان .. وسمع حفيف قدميها على الدرجات العليا للسلم .. لحظات .. وسطع مستطيل النافذة الرابعة ، وكان حازم قد رفع بوجهه متطلعا للأعلى ، نحو سقف غرفته .. وكانت النوافذ الاربع تسطع باصرار في جوف الليل الهادىء .

١٦-٥-١٩٧٦

٣ -٣-١٩٧٧

تصميم الغلاف : عبدالصاحب الركابي
التصميم الداخلي : خضير عباس اللامي
الخطوط الداخلية : رضا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١١٤٢ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة بغداد

١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م



الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد

السعر : ٢٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة
١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان